عُلَمَاءُ صَدَعُوا بِالحَقِّ

فَسُجِنُوا وَعُذِّبُوا وَقُتِلُوا

تَأْلِيفُ

د. مشاري سعيد المطرفي

دُكْتُورَاه فِي ٱلْعَقِيدَةِ وَٱلْفَلْسَفَةِ ٱلْإِسْلَامِيَّة

دار الظاهرية

علماء صدعوا بالحق
فسجنوا وعذبوا وقتلوا

عُلَمَاءُ صَدَعُوا بِالْحَقِّ

فَسُجِنُوا وَعُذِّبُوا وَقُتِلُوا

تأليف

د. مشاري سعيد المطرفي

دُكْتُوراه في العقيدة والفلسفة الإسلامية

دار الظاهرية للنشر والتوزيع

إهداء

إلى العلماء والدعاة والمصلحين والمفكرين الذين حملوا هم الإسلام وهم أمة الإسلام ..

إلى الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا..

إلى الرجال الذين صدعوا بالحق فسجنوا وعذبوا وقتلوا ..

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد أنزل الله الكتب، وأرسل الرسل بالحق، قال تعالى:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾[١].

وأمرهم ببيان الحق، والجهر به وإعلانه، حيث قال تعالى مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله (وهو خطاب له ﷺ ولأمته من بعده):

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾[٢].

فامتثل ﷺ أمر ربه، وقام بما أوجب الله عليه من الصدع بالحق والجهر به في وجوه المشركين ولاقى ﷺ في سبيل ذلك من صنوف الأذية والمحنة ما يفوق الخيال، وما لا يخطر على بال.

وقد سبقه ﷺ - في بيان الحق والصدع به في وجه الباطل - الأنبياء والرسل السابقون، ولاقوا من أهل الباطل أذىً كثيراً.

قال ابن القيم مبيّناً حال الأنبياء والرسل: «الطريق تعب فيه آدم،

(١) سورة البقرة، آية: ٢١٣.

(٢)سورة الحجر، آية: ٩٤.

وناح لأجله نوحٌ، ورمي في النار الخليل، واضطجع للذبح إسماعيل، وبيع يوسف بثمن بخس، ولبث في السجن بضع سنين، ونشر بالمنشار زكريا، وذبح السيد الحصور يحيى، وقاسى الضّرّ أيوب، وزاد على المقدار بكاء داود، وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد»[١].

وعلى منهج الأنبياء سار أتباعهم، وفي مقدمة أتباع الأنبياء أصحاب النبي ﷺ، ثم من أتى بعدهم من العلماء الصادقين الذين اختارهم الله واصطفاهم وكرّمهم بحمل الحق، والصدع به، والثبات عليه؛ حتى غادروا الدنيا إلى الآخرة.

وقد لاقى العلماء الصادقون في سبيل الصدع بالحق والثبات عليه بعضاً مما لاقاه الأنبياء والرسل في سبيل ذلك.

وقد قام العلماء بحمل الحق والصدع به برّاً منهم بالعهد والميثاق الذي أخذه الله عليهم في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾[٢].

وحرصاً منهم على نيل مرضاة الله، والبعد عن غضبه وسخطه في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ

(١) «الفوائد»، لابن القيم، (ص: ٤٢).

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾[١].

وامتثالاً منهم لأمر الله ورسوله ﷺ في قوله ﷺ في إحدى خطبه: «**ألا لا يمنعن رجلاً هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه**»[٢].

وزاد أحمد: «**فإنه لايقرّب من أجل، ولا يباعد من رزق أن يقال بحقّ أو يذكّر بعظيم**»[٣].

وفي قوله ﷺ: «**إنّ من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر**»[٤]، وفي رواية: «**أفضل الجهاد**».

والمراد بـ «الكلمة» ما أفاد أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر؛ من لفظ، أو ما في معناه ككتابة، ونحوها[٥].

و«إنما صار ذلك أفضل الجهاد؛ لأن من جاهد العدو كان متردداً بين الرجاء والخوف لا يدري هل يغلب أو يغلب، وصاحب السلطان مقهور في يده، فهو إذا قال الحق وأمره بالمعروف فقد تعرّض للتلف وأهدف نفسه للهلاك، فصار ذلك أفضل أنواع الجهاد من أجل غلبة الخوف»[٦].

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٥٩، ١٦٠.

(٢) رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١/ ٨٥).

(٣) رواه أحمد وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٣٢٥).

(٤) رواه الترمذي، وصححه للألباني في صحيح الترمذي (١/ ٩٥).

(٥) ينظر: «تحفة الأحوذي»، للمباركفوري: (٦/ ٢٤).

(٦) ينظر: «معالم السنن»، للخطابي: (٤/ ٣٢٤).

لذلك، فقد تعرّض هؤلاء العلماء الربانيون -الذين لا يخشون في الله لومة لائم- للابتلاء بالظلم والسجن والتعذيب والقتل، بسبب صدعهم بالحق والثبات عليه.

والابتلاء من سنن الله الكونية، فيكون البلاء على المخلوقين اختباراً لهم وتمحيصاً لذنوبهم، ورفعة لهم في الدنيا والآخرة، قال تعالى:

﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾[1]

وقال ﷺ: «**إنّ عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإنّ اللّه عزّ وجلّ إذا أحبّ قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرّضا، ومن سخط فله السّخط**»[2]

وأكثر الناس بلاء هم الأنبياء والعلماء والصالحون، فيبتلى الإنسان على حسب دينه.

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول اللّه، **أيّ النّاس أشدّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثمّ الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرّجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبًا اشتدّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقّةٌ ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتّى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئةٌ»**.[3]

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال، قلت: يا رسول الله، من أشد الناس بلاء؟ قال: «**الأنبياء**» قلت: ثم من؟ قال: «**العلماء**» قلت: ثم

(١) سورة الأنبياء، آية ٣٥.

(٢) رواه الترمذي وحسّنه الألباني في صحيح الترمذي (٢/ ٧٠).

(٣) رواه الترمذي وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣/ ٦٥).

من؟ قال: «**ثم الصالحون، كان أحدهم يبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يلبسها، ويبتلى بالقمل حتى تقتله، ولأحدهم كان أشد فرحاً بالبلاء من أحدكم بالعطاء**». [١]

وبلاء العلماء فيه رفعة لهم في الدنيا والآخرة، وتمحيصاً لهم، ولا يمكّن العالم حتى يبتلى.

«سأل رجل الشافعي فقال: يا أبا عبد الله، أيما أفضل للرجل أن يمكّن أو يبتلى؟ فقال الشافعي: لا يمكّن حتى يبتلى، فإن الله ابتلى نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلما صبروا مكّنهم، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم ألبتة».[٢]

وقال الواقدي عن الإمام مالك بعد ما ضرب وجلد: «فوالله ما زال مالك بعد في رفعة وعلو».

وقال الذهبي معلّقاً: «هذا والله ثمرة المحنة المحمودة، أنها ترفع العبد عند المؤمنين»[٣].

وقال ابن القيم: «وإذا تأمّلت حكمته - سبحانه - فيما ابتلى به عباده وصفوته بما ساقهم به إلى أجلّ الغايات، وأكمل النهايات التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الابتلاء والامتحان... وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين الكرامة في حقّهم، فصورته صورة ابتلاء وامتحان،

---

(١) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٥/ ٧٥).

(٢) «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (٨/ ٩٩).

(٣) «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (٨/ ٨٠- ٨١).

وباطنه فيه الرحمة والنعمة، فكم لله من نعمة جسيمة ومنّة عظيمة تجنى من قطوف الابتلاء والامتحان».[١]

وهذا كتاب بعنوان: «**علماء صدعوا بالحق فسجنوا وعذّبوا وقتلوا**»، ذكرت فيه قصص علماء ربانيين لايخشون في الله لومة لائم، صدعوا بالحق، ابتغاء ما عند الله، فتعرّضوا للظلم والابتلاء بالسجن والتعذيب والقتل، فصبروا وثبتوا على الحق، فزادهم الله رفعة في الدنيا والآخرة.

وقد رتّبت مباحث هذ الكتاب حسب التاريخ الزمني لوفيات العلماء الذين صدعوا بالحق.

أسأل الله بأسمائه الحسنى، وصفاته العلا، قبول هذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يكتب له القبول، وينفع به المسلمين.

د. مشاري سعيد المطرفي
الكويت – مدينة سعد العبدالله
للتواصل واتساب: ٠٠٩٦٥٦٦٧٨٣٧١٦

(١) «مفتاح دار السعادة»، لابن القيم: (١/ ٢٩٩-٣٠١).

(١) مالك بن أنس

اسمه ونسبه:

مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر (نافع) بن عمرو بن الحارث، الأصبحي، المدني.

إمام دار الهجرة، ومن أبرز سادات أتباع التابعين، وأحد أصحاب المذاهب الفقهية المعروفة، وإليه تنسب المالكية.[١]

ويرجع نسب مالك بن أنس إلى قبيلة (ذي أصبح) بن حمير، وهي إحدى القبائل اليمنية[٢].

مولده ونشأته:

ولد الإمام مالك بن أنس في خلافة سليمان بن عبد الملك في المدينة المنوّرة، في منطقة (ذي المروة)، وكان ينزل أولاً بالعقيق، ثم نزل بالمدينة[٣].

وقد اختلف المؤرخون في مولده، ولكنّ الأصح: أنّه ولد سنة ثلاث وتسعين من الهجرة، عام موت أنس خادم رسول الله ﷺ[٤].

وأما نشأته فقد نشأ الإمام مالك في المدينة النبوية، في دار الهجرة، ومعدن الرسالة.

---

(١) ينظر: «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (٨/ ٤٨)

(٢) ينظر: «الإكليل»، للهمداني: (٢/ ٢٠٣)، و«طبقات الخواص»، للزبيدي، (ص: ١٠).

(٣) «ترتيب المدارك»، للقاضي عياض: (١/ ١٢٤).

(٤) ينظر: «ترتيب المدارك»، للقاضي عياض: (١/ ١١٨، ١٢٤).

ويبدو أن الإمام مالك كان يشتغل في صغره بالتجارة مع أخيه النضر ليساعده في تحمّل نفقات البيت، قال ابن بكير: «كان أخوه النضر يبيع البز وكان مالك معه بزازاً، ثم طلب العلم»[١].

وقد نشأ الإمام مالك في صون ورفاهية وتجمّل[٢] في كنف أسرة حريصة على العلم والفقه والأثر، فقد كان لأسرته الأثر البالغ في حسن تربيته، وعلى وجه الخصوص أمه، فقد وجهته أمه إلى كتّاب بني تيم فحفظ القرآن.

ثم بعد أن حفظ القرآن حثّته أمه على تعلّم الأدب قبل العلم، فقد كانت توصيه بالذهاب إلى (ربيعة الرأي) ليتعلّم من أدبه قبل علمه، قال الإمام مالك: «كانت أمي تعممني، وتقول لي: اذهب إلى ربيعة فتعلّم من أدبه قبل علمه»[٣].

ولما رغب في العلم أخبر أمه، فقالت: «تعال فالبس ثياب العلم» كما يقول مالك: «فألبستني ثياباً مشمّرة، ووضعت الطويلة على رأسي، وعممتني فوقها، ثم قالت: «اذهب فاكتب الآن»[٤].

وقد أقبل على طلب العلم منذ سنّ مبكّرة، قال الذهبي: «أقبل على طلب العلم وهو حدث».[٥]

---

(١) ينظر: «ترتيب المدارك»، للقاضي عياض: (١/ ١٢٤).

(٢) ينظر: «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (٨/ ٤٩).

(٣) ينظر: «ترتيب المدارك»، للقاضي عياض: (١/ ١٣٠).

(٤) ينظر: «ترتيب المدارك»، للقاضي عياض: (١/ ١٣٠).

(٥) «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (٨/ ٤٩).

وقال مالك: «كنت آتي نافعاً مولى ابن عمر، وأنا يومئذ غلام».

وقال الزبيري: «رأيت مالكاً في حلقة ربيعة، وفي أذنه شنف»، وهذا يدل على ملازمته لطلبة العلم من صغره[١].

وكانت بداية تفرّغه لطلب العلم على يد شيخه ابن هرمز، فقد لازمه سبع سنين لم يخلطه بغيره، قال مالك: «كنت آتي ابن هرمز من بكرة فما أخرج من بيته حتى الليل»[٢].

وقد نشأ في أسرة قليلة ذات اليد، قال أحمد بن صالح: «كان مالك قليل المشي يظهر التجمّل، ضيق الأمر، لم يكن له منزل، كان يسكن بكراء إلى أن مات، وسأله المهدي ألك دار؟ فقال: لا»[٣].

وقال ابن القاسم: «أفضى بمالك طلب العلم إلى أن نقض سقف بيته فباع خشبه، ثم مالت عليه الدنيا بعد»[٤].

ثم دار الإمام مالكٌ على علماء زمانه، حتى بلغ عدد شيوخه تسعمائة شيخ، منهم ثلاثمائة من التابعين، وستمائة من تابعيهم ممن اختاره، وارتضى دينه، وفقهه، وقيامه بحق الرواية وشروطها، وخلصت الثقة به، وترك الرواية عن أهل دين وصلاح لا يعرفون الرواية[٥].

---

(١) «ترتيب المدارك»، للقاضي عياض: (١/ ١٣٢ - ١٣٣).

(٢) ينظر: «ترتيب المدارك»، للقاضي عياض: (١/ ١٣١ - ١٣٢).

(٣) «ترتيب المدارك»، للقاضي عياض: (١/ ١٢٤).

(٤) «ترتيب المدارك»، للقاضي عياض: (١/ ١٣٠).

(٥) ينظر: «تهذيب الأسماء واللغات»، للنووي: (٢/ ٧٨ - ٧٩).

وبعد أن أكمل دراسته للآثار والفتيا اتخذ له مجلساً في المسجد النبوي لتعليم الناس -وفي بعض الروايات أنّ سنّه كان ذلك في السابعة عشرة- ولقد قال في هذا المقام، وفي بيان حاله عندما نزعت نفسه إلى الدرس والإفتاء: «ليس كل من أحب أن يجلس في المسجد للحديث والفتيا جلس حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل، فإن رأوه لذلك أهلاً جلس، وما جلست حتى شهد لي سبعون شيخاً من أهل العلم أني موضع لذلك»[1].

ثناء العلماء عليه:

شهد له غالب العلماء بأنه كان وحيد دهره في مدينة رسول الله ﷺ في علمه، واجتهاده، وحديثه، وكثير من خصاله.

قال الذهبي: «اتفق لمالك مناقب ما علمتها اجتمعت لغيره:

أحدها: طول العمر وعلو الرواية.

وثانيتها: الذهن الثاقب والفهم وسعة العلم.

وثالثتها: اتفاق الأئمة على أنه حجة صحيح الرواية.

ورابعتها: تجمعهم على دينه وعدالته واتباعه السنن.

وخامستها: تقدمه في الفقه والفتوى، وصحة قواعده»[2].

وعدّه ابن أبي حاتم في الطبقة الأولى من علماء الحجاز الجهابذة[3].

وقال النووي: «أجمعت طوائف العلماء على إمامته، وجلالته،

---

(١) ينظر: «ترتيب المدارك»، للقاضي عياض: (١/ ١٤٢).

(٢) «تذكرة الحفّاظ»، للذهبي: (١/ ١٥٧).

(٣) «الجرح والتعديل»، لابن أبي حاتم: (١/ ١٠).

وعظم سيادته، وتبجيله، وتوقيره، والإذعان له في الحفظ والتثبيت، وتعظيم حديث رسول الله ﷺ»[١].

وقال الدارمي: «مالك من سادات أتباع التابعين، وجلة الفقهاء والصالحين، ممن كثرت عنايته بالسنن، وجمعه لها، وذبّه عن حريمها، وقمعه من خالفها، أو رام مباينتها، مؤثراً لسنّة رسول الله ﷺ على غيرها من المخترعات الداحضة، قائلاً بها دون الاعتماد على المقايسات الفاسدة»[٢].

وقال ابن منجويه: «كان أول من انتقى الرّجال من الفقهاء بالمدينة، وأعرض عمّن ليس ثقة في الحديث، ولم يكن يروي إلّا ما صحّ، ولا يحدّث إلّا عن ثقة مع الفقه والدّين والعقل والنسك»[٣].

وقال أبو نعيم: «مالك بن أنس إمام الحرمين المشهور في البلدين الحجاز والعراقين، المستفيض مذهبه في المغربين والمشرقين. كان أحد النبلاء، وأكمل العقلاء، ورث حديث الرسول ونشر في أمته علم الأحكام والأصول، تحقق بالتقوى، فابتلي بالبلوى»[٤].

وقال السخاوي: «مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر: الإمام العالم، نجم السنن، وعالم المدينة»[٥].

---

(١) «تهذيب الأسماء واللغات»، للنووي: (٢/ ٧٥ – ٧٦).

(٢) «مشاهير علماء الأمصار»، لأبي حاتم الدارمي، (ص: ٢٢٣).

(٣) «رجال صحيح مسلم»، لأبي بكر ابن منجويه: (٢/ ٢٢٠).

(٤) «حلية الأولياء»، لأبي نعيم: (٦/ ٣١٦).

(٥) «التحفة اللطيفة»، للسخاوي: (٢/ ٣٩٩).

وقال ابن تغري بردي: «شيخ الإسلام، وأحد الأعلام، وإمام دار الهجرة، وصاحب المذهب... عظيم الجلالة، كبير الوقار، غزير العلم»[١].

وقال ابن شهاب: «من أوعية العلم، ولنعم مستودع العلم»[٢].

وقال ابن عيينة: «مالك سيد أهل المدينة، وسيد المسلمين، وحجة في زمانه»[٣].

وقال الشافعي: «إذا ذكر العلماء فمالك النجم، ومالك حجة الله على خلقه»[٤].

وقال الشافعي أيضاً: «مالك بن أنس معلمي وأستاذي»[٥].

وقال الأوزاعي: «عالم العلماء، ومفتي الحرمين»[٦].

وقال يحيى بن معين: «مالك بن أنس من حجج الله على خلقه»[٧].

وقال أسد بن الفرات: «إذا أردت الله والدار الآخرة، فعليك بمالك»[٨].

وقال عبدالرحمن بن مهدي: «لا أقدّم على مالك في صحة الحديث أحدًا»[٩].

---

(١) «النجوم الزاهرة»، لابن تغري بردي: (٢/ ٩٦).
(٢) «ترتيب المدارك»، للقاضي عياض: (١/ ١٤٨).
(٣) «ترتيب المدارك»، للقاضي عياض: (١/ ١٤٩).
(٤) «ترتيب المدارك»، للقاضي عياض: (١/ ١٤٩).
(٥) «ترتيب المدارك»، للقاضي عياض: (١/ ١٤٩).
(٦) «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (٨/ ٩٤).
(٧) «الانتقاء»، لابن عبد البر، (ص: ٣١)، و«سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (٨/ ٩٤).
(٨) «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (٨/ ٩٤).
(٩) «الانتقاء»، لابن عبد البر، ص: (٢٥).

وقال يحيى بن سعيد القطان: «كان مالك بن أنس إماماً في الحديث»[١].

وقال بقية بن الوليد: «ما بقي على وجه الأرض أعلم بسنّة ماضية ولا باقية منك يا مالك»[٢].

وقال عبد الله بن المبارك: «ما رأيت رجلاً ارتفع مثل مالك بن أنس ليس له كثير صلاة ولا صيام، إلا أن تكون له سريرة»[٣].

وقال ابن عيينة لما بلغه وفاة مالك: «ما ترك مثله أو ما ترك على الأرض مثله»[٤].

مؤلفاته:

للإمام مالك مرويات كثيرة في غير فن من العلم، قال القاضي عياض: «إن لمالك - رحمه الله تعالى - أوضاعاً شريفة مروية عنه، أكثرها بأسانيد صحيحة في غير فن من العلم، لكنه لم يشتهر عنه منها، ولا واظب على إسماعه، وروايته؛ غير الموطأ مع حذفه منه، وتلخيصه له شيئاً بعد شيء، وسائر تآليفه إنما رواها عنه من كتب بها إليه، أو سأله إياها أحد من أصحابه، ولم تروها الكافة»[٥].

---

(١) «الانتقاء»، لابن عبد البر، (ص: ٢٦).

(٢) «ترتيب المدارك»، للقاضي عياض: (١/ ٧٦)، و«سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (٨/ ٩٤).

(٣) «حلية الأولياء»، لأبي نعيم: (٦/ ٣٣٠).

(٤) «ترتيب المدارك»، للقاضي عياض: (١/ ١٤٩).

(٥) ينظر: «ترتيب المدارك»، للقاضي عياض: (٢/ ٩٠).

ومؤلفات الإمام مالك يمكن تلخيصها فيما يلي:

١- **الموطأ**: وهو أهم مؤلفاته، وأجلّ آثاره التي كتبها بيده، حيث اشتغل في تأليفه ما يقرب من ٤٠ سنة، وهو الكتاب الذي طبقت شهرته الآفاق، واعترف الأئمة له بالسبق على كل كتب الحديث في عهده، وبعد عهده إلى عهد الامام البخاري، قال الإمام الشافعي: «ما ظهر على الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك»[١]، وهذا القول قبل ظهور صحيح البخاري.

وقد لاقى قبولاً واسعاً لدى العامة والخاصة، حتى أن العلماء تسابقوا في القديم والحديث إلى اقتنائه وشرحه وتدريسه.

٢- **رسالة في القدر والرد على القدرية**، وهي من خيار الكتب في هذا الباب الدالة على سعة علمه بهذا الشأن.

٣- **رسالة في الفتوى**، وهي مشهورة.

٤- **التفسير لغريب القرآن**، جزء واحد.

٥- **كتاب السير**، جزء واحد.

٦- **رسالة في إجماع أهل المدينة**، وهي مشهورة متداولة بين العلماء[٢].

---

(١) «ترتيب المدارك»، للقاض عياض: (٢/ ٧٠).

(٢) ينظر: «ترتيب المدارك»، للقاضي عياض: (٢/ ٩٠ - ٩٤).

محنته:

لم يكن الإمام مالك ممن يرى الخروج على الحكام، وإن كانوا ظلمةً وجائرين، ولكنه مع ذلك لم يكن يوماً مداهناً لخليفة أو أمير، أو يكتم العلم من أجلهم، لذلك ارتفعت مكانته، وعلت منزلته عند الخاصّة والعامّة، حتى جلس الخلفاء بين يديه، وقرأ الأمراء عليه، وصدع الناس لما أمرهم به، فصار آمراً ناهياً، تسري أوامره على الجميع، فحسده على تلك المكانة العالية بعض المؤثرين للدّنيا على الآخرة، فوشوا به إلى أمير المدينة حينها: جعفر بن سليمان، وذلك في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور، ومفاد هذه الوشاية: أنّ مالكاً لا يرى أيمان البيعة للخلافة هذه بشيء[١].

وقد اختلف علماء السير والتراجم في سبب محنة الإمام مالك، وعلى يد من كانت المحنة، وفي خلافة من وقعت[٢].

ولعل الأصح والأشهر: أن سبب المحنة: فتواه بعدم وقوع طلاق المكره؛ مستدلاً بحديث ابن عباس: «**ليس على مستكره طلاق**»[٣].

وأما على يد من كانت المحنة فالأشهر: أنها كانت أثناء الولاية الثانية لجعفر بن سليمان على المدينة؛ حيث سعى الوشاة إلى جعفر، قائلين

(١) ينظر: «الديباج المذهب»، لابن فرحون، (ص: ٢٨)، و«الانتقاء»، لابن عبد البر، (ص: ٤٤).

(٢) ينظر: «الانتقاء»، لابن عبد البر، (ص: ٤٣)، و«ترتيب المدارك»، للقاضي عياض: (٢/ ١٣٠).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في المصنف: ٥/ ٤٨، ورجاله ثقات، وعلّقه البخاري في صحيحه: (٩/ ٣٤٣)، ولفظه: «**طلاق السكران والمستكره ليس بجائز**».

له: إن مالكاً لا يرى أيمان بيعتكم بشيء؛ وأنه يأخذ بحديث ثابت بن الأحنف في طلاق المكره، وذكروا عنه أنه أفتى بأن بيعة أبي جعفر لا تلزم؛ لأنها على الإكراه، فغضب جعفر بن سليمان فدعا بمالك فاحتج عليه بما رفع إليه عنه، ثم أمر بتجرده من ثيابه ومدّه، فضرب بالسياط سبعين سوطاً (وفي رواية مائة)، ومدّت يده حتى انخلعت كتفه، وبقي بعد ذلك مطابق اليدين لا يستطيع أن يرفعهما، ولا أن يسوّي رداءه، ثم حمل مغشياً عليه[١].

وحكى إبراهيم بن حماد: أنه كان ينظر إليه (بعد فترة من الضرب): أنه كان إذا أقيم من مجلسه حمل يده اليمنى أو يده اليسرى بالأخرى[٢]، وذلك لأنه ضرب حتى انخلعت إحدى يديه.

وأما زمن المحنة ففي خلافة أبي جعفر المنصور[٣].

هذا مختصر المحنة، أما تفاصيلها فقد حكاها أبو العرب التميمي بسنده إلى مطرف بن عبد الله وغيره من أصحاب مالك، قال:

إن هيجاء هاجت بالمدينة في زمان أبي جعفر، فبعث إليها أبو جعفر ابن عمه جعفر بن سليمان العباسي ليسكن هيجاءها، ويجدّد بيعة أهلها، فقدمها وهو يتوقّد على أهل الخلاف لأبي جعفر، فأظهر الغلظة والشدّة

---

(١) ينظر: «الديباج المذهب»، (ص: ٢٨)، و«الانتقاء»، لابن عبد البر، (ص: ٤٤).

(٢) ينظر: «الانتقاء»، لابن عبد البر، ص: ٤٤، و«سير أعلام النبلاء»، للذهبي: ٨/ ٨٠.

(٣) ينظر: «الديباج المذهب»، لابن فرحون، (ص: ٢٨)، و«الانتقاء»، لابن عبد البر، (ص: ٤٤).

وسطًا على كل من ألحد في سلطانهم، وأخذ الناس بالبيعة، ومالك بن أنس بالبيعة، ومالك بن أنس يومئذ سيد أهل زمانه.

ولم يزل صغيراً وكبيراً محسوداً، وكذلك من عظمت نعمة الله عليه في علمه أو عقله أو نبله أو ورعه، فكيف بمن جمع الله تبارك وتعالى ذلك له فيه، ولم يزل مالك منذ نشأ يسلب النباهة والرئاسة من كان قد سبقه إليها بظهور نعمة الله عليه، وسموها به على كل سام قبله من أهل بلده، فاشتد لذلك الحسد له، وألجأهم ذلك في البغي، فدسّوا إلى جعفر من قال له: إن مالكاً يفتي الناس أن أيمان البيعة لا تلزمهم لمخالفتك واستكراهك إياهم عليها، فدسّ عليه جعفر بعض من لم يكن مالك أن يخشى أن يؤتى من قبله، ومن مأمنه يؤتى الحذر فسأله عن ذلك سراً فأفتاه بذلك طمأنينة إليه وحسبة منه، فلم ينشب مالك أن جاء فيه رسول جعفر بن سليمان، فأتي به منتهك الحرمة، مذال الهيبة، فأمر به جعفر بن سليمان فضرب سبعين سوطاً، فلما سكن الهيج وتمّت البيعة بلغ أبا جعفر ضرب مالك، فكره ذلك ولم يرضه، فبعث إلى مالك يستقدمه على نفسه بالعراق، فأبى من ذلك، وكتب إليه يستعفيه ويعتذر ببعض العذر.[1].

وقد لاقت هذه المحنة سخطاً عارماً لدى أهل المدينة، **قال محمد أبوزهرة:** «ويظهر أن أهل المدينة عندما رأوا فقيهها وإمامها ينزل به ذلك النكال سخطوا على بني العباس وولاتهم، وخصوصاً أنه كان مظلوماً،

---

(١) «المحن»، لأبي العرب التميمي، (ص: ٣٣٣ - ٣٣٤).

فما حرّض على فتنة، وما بغى، ولا تجاوز حد الإفتاء، ولم يفارق خطته قبل الأذى ولا بعده، فلزم درسه بعد أن أبلّ من جراحه ورقأت، واستمر في درسه لا يحرّض ولا يدعو إلى فساد، فكان ذلك مما زادهم نقمة على الحاكمين، وجعل الحكام يحسّون بمرارة ما فعلوا، وخصوصاً أبا جعفر الداهية، والفرصة لديهم سانحة، فإنه لم يكن في ظاهر الأمر ضارباً ولا آمراً بضرب، ولا راضياً عنه، لذلك عندما جاء إلى الحجاز حاجّاً أرسل إلى مالك يعتذر إليه»[1].

وذلك أن أبا جعفر كان قد كتب إلى الإمام مالك: «أن وافني بالموسم فإني حاج العام إن شاء الله»[2].

فلما كان موسم الحج التقى الإمام مالك بأبي جعفر المنصور، **قال الإمام مالك حاكياً قصة دخوله على أبي جعفر أيام الحج:**

«لما دخلت على أبي جعفر، وقد عهد إليّ أن آتيه في الموسم، قال لي: «والله الذي لا إله إلا هو ما أمرت بالذي كان، ولا علمته، إنه لا يزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم، وإني أخالك أماناً لهم من عذاب، ولقد رفع الله بك عنهم سطوة عظيمة، فإنهم أسرع الناس إلى الفتن، ولقد أمرت بعد والله أن يؤتى به من العراق على قتب، وأمرت بضيق محبسه والاستبلاغ في امتهانه، ولابد أن ينزل به من العقوبة أضعاف ما نالك منه.

---

(١) ينظر: «مالك»، لمحمد أبو زهرة، (ص: ٦١).

(٢) «المحن»، لأبي العرب التميمي، (ص: ٣٣٣ - ٣٣٤).

فرد عليه الإمام: عافى الله أمير المؤمنين، وأكرم مثواه، قد عفوت عنه لقرابته من رسول الله ﷺ وقرابته منك، فقال: عفا الله عنك ووصلك»[١].

وقال أبو الوليد الباجي: لما حج المنصور أقاد مالكاً من جعفر بن سليمان، وأرسله إليه ليقتص منه، فقال: أعوذ بالله، والله ما ارتفع منها سوط عن جسمي إلا وأنا أجعله في حل من ذلك الوقت لقرابته من رسول الله ﷺ.

بل قال الدراوردي عن مالك: «سمعته يقول حين ضربه: اللهم اغفر لهم فإنهم لا يعلمون»[٢].

وقد قابل الإمام مالك هذه المحنة (وغيرها) بأمرين:

الأول: الثبات على الحق، وعدم التراجع: **قال ابن وهب:** «إن مالكاً لما ضرب وحلق وحمل على بعير، فقيل له: ناد على نفسك؟ قال: فقال: ألا من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا مالك بن أنس بن أبي عامر الأصبحي، وأنا أقول طلاق المكره ليس بشيء، قال: فبلغ جعفر بن سليمان أنه ينادي على نفسه بذلك، فقال: أدركوه أنزلوه»[٣].

الثاني: العفو عمّن تسببوا في محنته وأذيته (كما سبق في قصة عفوه عن جعفر بن سليمان).

وقد زاد الله الإمام مالك بعد هذه المحنة (وغيرها) علواً ورفعة، **قال**

(١) ينظر: «مالك»، لمحمد أبو زهرة، (ص: ٦١).

(٢) «الديباج المذهب»، لابن فرحون، (ص: ٢٨).

(٣) «حلية الأولياء»، لأبي نعيم: (٦/ ٣١٦).

الجياني: «ما زال مالك بعد ذلك الضرب في رفعة من الناس وإعظام، حتى كأن تلك الأسواط حلياً حلي به رحمه الله تعالى»[١].

وقال الواقدي: «فو الله ما زال مالك بعد في رفعة وعلو».

وقال الذهبي معلّقاً: «هذا والله ثمرة المحنة المحمودة، أنها ترفع العبد عند المؤمنين»[٢].

وقال الليث بن سعد: «إني لأرجو أن يرفعه الله بكل سوط درجة في الجنة»[٣].

وفاته:

مرض الإمام مالك قبل وفاته اثنين وعشرين يوماً، ثم توفي بالمدينة النبوية في صبيحة يوم الأحد الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة.

قال بكر بن سليمان الصواف: دخلنا على مالك بن أنس في العشية التي قبض فيها، فقلنا له: يا أبا عبدالله كيف تجدك؟ قال: ما أدري كيف أقول لكم إلا أنكم ستعاينون غداً من عفو الله ما لم يكن في حساب، ثم ما برحنا حتى أغمضناه. وكان عمره حين وفاته ست وثمانين عاماً. وقد كانت وفاته في خلافة هارون الرشيد.

---

(١) «الديباج المذهب»، لابن فرحون، (ص: ٢٨).

(٢) «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (٨/ ٨٠ – ٨١).

(٣) ينظر: «تاريخ الإسلام»، للذهبي: (١١/ ٣٣١).

وقد كانت وفاته بعد أن نطق بالشهادتين، ثم قال: «لله الأمر من قبل ومن بعد»، قال إسماعيل بن أبي أويس: «اشتكى مالك بن أنس فسألت بعض أهلنا عما قال عند الموت، قالوا: تشهد، ثم قال: لله الأمر من قبل ومن بعد».

وغسّله ابن كنانة وابن أبي الزبير وابنه يحيى وكاتبه حبيب يصبّان عليه الماء. وكفّن في ثياب بيض. وصلّى عليه أمير المدينة حينها: عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وحضر جنازته ماشياً، وكان ممن حمل نعشه. ودفن بالبقيع.

وقد نقل القاضي عياض عن أسد بن موسى أنه رأى الإمام مالك بعد موته في المنام وعليه طويلة، وثياب خضر، وهو على ناقة يطير بين السماء والأرض، فقال له: يا أبا عبد الله! أليس قد مت؟ قال: بلى، فقال له: فإلى ما صرت؟ فقال: قدمت على ربي، وكلمني كفاحاً، وقال: سلني أعطك، وتمنّ عليّ أرضك؟»[1].[2]

---

(١) ينظر: «ترتيب المدارك»، للقاضي عياض: (١/ ١١٨ - ١٢٠).

(٢) للمزيد عن سيرة الإمام مالك ينظر: «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: ٨/ ٤٨، و«مشاهير علماء الأمصار»، لأبي حاتم البستي، (ص: ٢٢٣)، و«منازل الأئمة الأربعة»، لأبي زكريا الأزدي، (ص: ١٨٣)، و«التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد»، لابن شجاع الحنبلي، (ص: ٤٣٥)، و«تهذيب الأسماء واللغات»، للنووي: (٢/ ٧٥)، و«وفيات الأعيان»، لابن خلكان: (٤/ ١٣٥)، و«التحفة اللطيفة»، للسخاوي: (٢/ ٣٩٩)، و«طبقات الحفّاظ»، للسيوطي، (ص: ٩٦)، و«الهداية»، لأبي نصر الكلاباذي: (٢/ ٦٩٣)، و«رجال صحيح مسلم»، لأبي بكر ابن منجويه: (٢/ ٢٢٠).

(٢) أحمد بن حنبل

اسمه ونسبه:

أحمد بن محمّد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن حيّان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة الذهليّ، الشيباني.

الإمام، الفقيه، المحدّث، إمام أهل السّنّة، وأحد كبار أئمة الإسلام، وصاحب أحد المذاهب الفقهية المعروفة، وإليه ينسب الحنابلة(١).

وأما نسب الإمام أحمد فيرجع إلى بني شيبان بن ذهل بن ثعلبة، وبنو شيبان قبيلة عدنانية تلتقي مع النبي ﷺ في نزار بن معد بن عدنان(٢).

مولده ونشاته:

ولد الإمام أحمد في ربيع الأول، سنة أربع وستين ومائة للهجرة، في مدينة بغداد؛ ذلك أن والديه قدما إليها من مرو، وأمه حامل به(٣).

وأما نشأته؛ فقد نشأ يتيماً؛ فقد توفي أبوه وعمره ثلاث سنين، فقامت أمه على كفالته والنفقة عليه من عقار تركه له أبوه ببغداد(٤).

---

(١) ينظر: «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (١١/ ١٧٩)، و«المنتظم»، لابن الجوزي: (١١/ ٢٨٦).

(٢) ينظر: «مناقب الإمام أحمد»، لابن الجوزي، (ص: ١٧ - ١٩).

(٣) ينظر: «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (١١/ ١٧٩)، و«المنتظم»، لابن الجوزي: (١١/ ٢٨٦).

(٤) ينظر: «حلية الأولياء»، لأبي نعيم: ٩/ ١٦٣، و«سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (١١/ ١٧٩).

وقد اهتمّت أمه بتربيته منذ صغره، فقد دفعته لحفظ القرآن وهو صغير فحفظه، **قال الإمام أحمد:** «حفّظتني أمي القرآن وأنا ابن عشر سنين، وكانت توقظني قبل صلاة الفجر، وتحمي لي ماء الوضوء في ليالي بغداد الباردة، وتلبسني ملابسي، ثم تتخمّر وتتغطّى بحجابها، وتذهب معي إلى المسجد؛ لبعد بيتنا عن المسجد، ولظلمة الطريق».

وقد نشأ الإمام أحمد منذ الصغر متورّعاً عن عطايا الخلفاء، فقد كان للإمام أحمد عم اسمه: «إسحاق» على صلة بالخلفاء، فلم يستحسن ذلك الإمام أحمد تورعاً، وابتعاداً عن الريب[١].

وقد ظهرت عليه مخايل العلم والتّقى والأدب الجمّ منذ صغره، **قال أبو سراج:** «كنا مع أبي عبد الله في الكتّاب، فكان النساء يبعثن إلى المعلم: ابعث إلينا بابن حنبل ليكتب جواب كتبهم، فكان إذا دخل إليهن لا يرفع رأسه ولا ينظر إليهن»[٢].

وقد ظهرت عليه ملامح النجابة والنباهة والألمعية من زمن صغره، قال أبو سراج بن خزيمة متعجباً من أدبه وحسن طريقته: «أنا أنفق على ولدي وأجيئهم بالمؤدبين على أن يتأدبوا فما أراهم يفلحون، وهذا أحمد بن حنبل غلام يتيم، انظر كيف يخرج! وجعل يعجب»[٣].

وقد كان شيوخه يجلّونه منذ صغره، متوسمين فيه علو الشأن في

---

(١) ينظر: «طبقات الحنابلة»، لابن أبي يعلى: (١/ ١١١).

(٢) «مناقب الإمام أحمد»، لابن الجوزي، ص: ٢٣، ٨٣.

(٣) «مناقب الإمام أحمد»، لابن الجوزي، ص: ٢٣، والمنتظم»، لابن الجوزي: (١١/ ٢٨٦).

المستقبل، **قال الهيثم بن جميل:** «إن عاش هذا الفتى فسيكون حجّة على أهل زمانه»[(١)].

وقد ابتدأ الإمام أحد طلب العلم وحضور مجالس العلماء وعمره أربع عشرة سنة، **قال الإمام أحمد:** «اختلفت إلى الكتّاب، ثم اختلفت إلى الديوان، وأنا ابن أربع عشرة سنة»[(٢)].

وقد كان في حداثته يختلف إلى مجلس القاضي أبي يوسف، ثم ترك ذلك وأقبل على سماع الحديث[(٣)].

وقد كانت بداية طلبه العلم في بغداد، ثم طاف في البلاد والآفاق، وسمع من مشايخ العصر، وكانوا يجلّونه ويحترمونه في حال سماعه منهم[(٤)].

ورحل إلى الكوفة، والبصرة، ومكّة، والمدينة، واليمن، والشام، والجزيرة[(٥)] وغيرها من البلدان.

ثناء العلماء عليه:

الإمام المبجل أحمد بن حنبل ليس بحاجة إلى ثناء أحد من العلماء عليه؛ ففعاله العظيمة، ومواقفه الخالدة كافية في الثناء عليه، ولكن لا بأس من تعطير هذه الأسطر ببعض ما قاله العلماء في الثناء عليه، ومن ذلك:

---

(١) ينظر: «الجرح والتعديل»، لابن أبي حاتم: (١/ ٢٩٥).
(٢) ينظر: «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (١١/ ١٨٥).
(٣) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٠/ ٣٥٩).
(٤) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٠/ ٣٦٠)، و«تهذيب التهذيب»، لابن حجر: (١/ ٧٢).
(٥) «مناقب الإمام أحمد»، لابن الجوزي، (ص: ٢٦).

قال الشافعي: «أحمد إمام في ثمان خصال: إمام في الحديث، إمام في الفقه، إمام في اللغة، إمام في القرآن، إمام في الفقر، إمام في الزهد، إمام في الورع، إمام في السّنّة»[١].

وقال ابن تيمية: «الإمام الفاضل، والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق، ودفع به الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيغ الزائغين، وشك الشاكين»[٢].

وقال ابن تيمية عن ثباته في المحنة: «سلّط الله تعالى عليهم علماً من أعلام الدين أوتي صبراً في قوة اليقين أبا عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، فشدّ المئزر، وأبى الفتنة، وجاد بالدنيا، وضنّ بالدين، وأعرض عن الغضاضة على طيب العيش ولم يبال في الله خفة الأقران، ونسي قلة الأعوان، حتى هدّ ما شدوا، وقدّ ما مدوا»[٣].

وقال ابن القيم: «إمام أهل السّنّة على الإطلاق الذي ملأ الأرض علماً وحديثاً وسنّة، حتى إن أئمة الحديث والسّنّة بعده هم أتباعه إلى يوم القيامة»[٤].

وقال السبكي: «الإمام الجليل، صاحب المذهب، الصابر على المحنة، النّاصر للسّنّة، شيخ العصابة، ومقتدى الطّائفة»[٥].

---

(١) «طبقات الحنابلة»، لابن أبي يعلى: (١/ ٥).
(٢) «بيان تلبيس الجهمية»، لابن تيمية: (٣/ ٣١٢).
(٣) «بيان تلبيس الجهمية»، لابن تيمية: (٢/ ٢٣٢- ٢٣٣).
(٤) «إعلام الموقعين»، لابن القيم: (١/ ٢٣).
(٥) «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٢/ ٢٧).

وقال الذهبي: «شيخ الإسلام، وسيد المسلمين في عصره، الحافظ الحجة»[1].

وقال النووي: «الإمام البارع، المجمع على جلالته، وإمامته، وورعه، وزهادته، وحفظه، ووفور علمه، وسيادته»[2].

وقال ابن كثير: «أطبقت الأمة على تعظيمه وتوقيره، وإجلاله واحترامه، في علمه وزهده، وورعه وسعة فنونه، وصبره على المحنة، وقيامه لله بالسنة، فهو خير الأمة، وإمام الأئمة في زمانه، والمبرز على سائر أهل عصره وأقرانه»[3].

وقال ابن أبي يعلى: «لا يختلف العلماء الأوائل والأواخر أنه في السنة الإمام الفاخر، والبحر الزاخر، أوذي في اللّه عزّ وجلّ فصبر، ولكتابه نصر، ولسنة رسول اللّه ﷺ انتصر، أفصح اللّه فيها لسانه، وأوضح بيانه، وأرجح ميزانه، لا رهب ما حذّر، ولا جبن حين أنذر، أبان حقاً، وقال صدقاً، وزان نطقاً وسبقاً، ظهر على العلماء، وقهر العظماء، ففي الصادقين ما أوجهه، وبالسابقين ما أشبهه، وعن الدنيا وأسبابها ما كان أنزهه، جزاه اللّه خيراً عن الإسلام والمسلمين»[4].

وقال يحيى بن معين: «كان في أحمد بن حنبل خصال ما رأيتها في

---

(١) «تذكرة الحفّاظ»، للذهبي: (٢/ ١٥).

(٢) «تهذيب الأسماء واللغات»، للنووي: (١/ ١١٠).

(٣) «طبقات الشافعيين»، لابن كثير، (ص: ١٠٦).

(٤) «طبقات الحنابلة»، لابن أبي يعلى: (١/ ١٢ - ١٣).

عالم قط: كان محدثاً، وكان حافظاً، وكان عالماً، وكان ورعاً، وكان زاهداً، وكان عاقلاً»[١].

وقال أيضاً: «أراد الناس منّا أن نكون مثل أحمد بن حنبل، والله ما نقوى أن نكون مثله ولا نطيق سلوك طريقه»[٢].

وقال إبراهيم الحربيّ: «رأيت أحمد كأن اللّه جمع له علم الأوّلين والآخرين»[٣].

وقال يحيى بن سعيد القطان: «أحمد بن حنبل خير من أخيار هذه الأمة، وإمام الأئمة في زمانه، والمبرز على سائر أهل عصره»[٤].

وقال إسحاق بن راهويه: «أحمد حجة بين الله وبين عبيده في أرضه»[٥]

وقال أيضاً: «لولا أحمد بن حنبل وبذل نفسه لما بذلها لذهب الإسلام»[٦].

وقال ابن المديني: «أعز الله الدين بالصديق يوم الردّة، وبأحمد يوم المحنة»[٧].

---

(١) «البداية والنهاية»، لابن كثير: ١٠/ ٣٧٠.

(٢) «البداية والنهاية»، لابن كثير: ١٠/ ٣٧٠، و«طبقات الحنابلة»، لابن أبي يعلى: ١/ ١٤.

(٣) «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: ٢/ ٢٨.

(٤) «طبقات الشافعيين»، لابن كثير، ص: ١٠٦.

(٥) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٠/ ٣٧٠)، و«سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (١١/ ١٩٦).

(٦) «طبقات الحنابلة»، لابن أبي يعلى: (١/ ١٣)، و«تاريخ دمشق»، لابن عساكر: (٥/ ٢٧٨).

(٧) «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (١١/ ١٩٦).

وقال قتيبة بن سعيد: «أحمد بن حنبل قام في الأمة مقام النبوة»[١].

وقال السفاريني: «انتصر للحقّ ونصره، وشدخ رأس أهل البدع وهصره، وبيّن الصّحيح من الفاسد، والغثّ من السّمين، والحقّ من الباطل، والصّدق من المين»[٢].

مؤلفاته:

لم يكن الإمام أحمد يرى كتابة كلامه، عدا كتابة الأحاديث والآثار، **قال ابن الجوزي:** «كان الإمام أحمد رضي الله عنه لا يرى وضع الكتب، وينهى أن يكتب عنه كلامه ومسائله، ولو رأى ذلك لكانت تصانيفه كثيرة، ولنقلت عنه كتب»[٣].

ولما علم الله حسن نيّته ألهم الله تعالى من العلماء من دوّن كلامه، **قال ابن القيم:** «علم الله حسن نيته وقصده فكتب من كلامه وفتواه أكثر من ثلاثين سفراً، ومنّ الله سبحانه علينا بأكثرها، فلم يفتنا منها إلا القليل، وجمع الخلال نصوصه في الجامع الكبير، فبلغ نحو عشرين سفراً أو أكثر، ورويت فتاويه ومسائله، وحدّث بها قرناً بعد قرن»[٤].

وقال ابن الجوزي: «نظر الله تعالى إلى حسن قصده فنقلت ألفاظه

---

(١) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٠/ ٣٦٩ - ٣٧٠).

(٢) «لوامع الأنوار البهية»، للسفاريني: (١/ ٦٦).

(٣) «مناقب الإمام أحمد»، لابن الجوزي، (ص: ٢٦١).

(٤) «أعلام الموقعين»، لابن القيم: (١/ ٢٣).

وحفظت، فقلّ أن تقع مسألة إلا وله فيها نص من الفروع والأصول، وربما عدمت في تلك المسألة نصوص الفقهاء الذين صنّفوا وجمّعوا»[١].

وإذا ما قورنت مؤلفاته بمكانته العلميّة فإنها تعدّ قليلة، ومن هذه المؤلفات:

١- **مسند الإمام أحمد بن حنبل**: قال الإمام أحمد لابنه عبد الله: «احتفظ بهذا المسند فإنه سيكون للناس إماماً»[٢]، وقال: «هذا الكتاب جمعته وانتقيته من أكثر من سبعمائة ألف وخمسين ألفاً»[٣]، فهو أحد دواوين الحديث العظيمة، وهو أشهر مؤلفات الإمام أحمد وأنفعها وأكثرها انتشاراً، قال محمّد بن أبي بكر المدينيّ عن المسند: «أصل كبير ومرجع وثيق لأصحاب الحديث، انتقي من أحاديث كثيرة ومسموعات وافرة، فجعل إماماً ومعتمداً، وعند التّنازع ملجأ ومستنداً»[٤].

٢- **الناسخ والمنسوخ.**

٣- **الفضائل.**

٤- **طاعة الرسول.**

٥- **الرد على الجهمية.**

٦- **جوابات القرآن.**

٧- **نفي التشبيه.**

---

(١) «مناقب الإمام أحمد»، لابن الجوزي، (ص: ٢٦١).

(٢) «مناقب الإمام أحمد»، لابن الجوزي، (ص: ٢٦١).

(٣) «طبقات الحنابلة»، لابن أبي يعلى: (١/ ١٤٣).

(٤) «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٢/ ٣١).

٨- الإمامة.

٩- رسالة في الصلاة.

١٠- رسالة كتبها إلى المتوكل في مسألة خلق القرآن[١].

محنته:

تعتبر المحنة التي تعرّض لها الإمام أحمد أشدّ محنة يتعرّض لها العلماء على الإطلاق؛ **فقد قال عنها السبكي** : «الداهية الدهياء، والمصيبة الصماء»[٢].

فهي أشدّ محنة من حيث نوعها (عقدية)، وزمانها (طويلة)، ومن حيث هول التعذيب وشدّته، يقول أحد جلاديه: «ضربت أحمد بن حنبل ثمانين سوطاً لو ضربته فيلاً لهدمته»[٣]، وأيضاً من حيث إنها محنة شملت جميع العلماء والقضاة والصلحاء، ولكنهم فشلوا جميعاً في هذه المحنة عدا إمام أهل الحق أحمد بن حنبل.

وحسبنا في هذه الأسطر أن نعرّج على الخيوط العامّة لهذه المحنة، وأن نشير إلى بعض مواقفها من البداية حتى النهاية، مراعين في الحديث عنها الترتيب الزمني للخلفاء الذين تداولوا على تعذيب الإمام أحمد، وماهية المحنة التي تعرّض لها الإمام أحمد في عهد كل خليفة، فنقول:

---

(١) ينظر: «مناقب الإمام أحمد»، لابن الجوزي، (ص: ٢٦١)، و«المعرفة».

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٢/ ٣٧).

(٣) «المنهج الأحمد»، لأبي اليمن العليمي: (١/ ٣٦).

أولاً: المأمون «عبد الله بن هارون الرشيد» (بداية المحنة ثم تقييده بالقيود والسلاسل):

يعتبر المأمون أول خليفة من خلفاء بني أمية وبني العباس يزيغ عن مذهب السلف، **قال البيهقي**: «لم يكن في الخلفاء قبله من بني أمية وبني العباس خليفة إلا على مذهب السلف ومنهاجهم»[١].

وقال ابن الجوزي: «لم يزل الناس على قانون السلف، وقولهم: إن القرآن كلام الله غير مخلوق؛ حتى نبغت المعتزلة فقالت بخلق القرآن، وكانت تستر ذلك... فلما توفى الرشيد كان الأمر كذلك في زمن الأمين»[٢].

والسبب في زيغه عن مذهب السلف استحواذ جماعة من المعتزلة عليه، **قال ابن كثير**: «استحوذ عليه جماعة من المعتزلة فأزاغوه عن طريق الحق إلى الباطل، وزينّوا له القول بخلق القرآن، ونفي الصفات عن الله عز وجل»[٣].

وقد كان في بداية الأمر متردداً في حمل الناس على ذلك، ثم قوى عزمه على ذلك في آخر سنة من ولايته، فقد أصدر مرسوماً إلى نائبه في بغداد: «إسحاق بن إبراهيم» يدعو الناس إلى القول بخلق القرآن، فمن

---

(١) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٠/ ٣٦٥).
(٢) «مناقب الإمام أحمد»، لابن الجوزي، (ص: ٤١٦ - ٤١٧).
(٣) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٠/ ٣٦٥).

أجاب شهر أمره بين الناس، ومن أبى يرسله إلى المأمون، وقد جاء في المرسوم الذي أصدره:

«فأجمع من بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك، فأبدأ بامتحانهم فيما يقولون، وتكشيفهم عمّا يعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ولا واثق فيمن قلّده واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه، وخلوص توحيده ويقينه، فإذا أقروا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس، ومساءلتهم عن علمهم في القرآن، وترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث ولم يره، والامتناع من توقيعها عنده، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك في مسألتهم، والأمر لهم بمثل ذلك، ثم أشرف عليهم وتفقّد آثارهم حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر في الدين، والإخلاص للتوحيد»[1].

فلما وصل الكتاب إلى نائبه سارع باستدعاء القضاة والمحدثين وكل من تصدّى للفتوى والتعليم والإرشاد فاختبرهم وامتحنهم؛ فامتنعوا، فتهددهم بالضرب، وقطع الأرزاق، فأجاب أغلبهم، إلا أربعة أصرّوا على موقفهم، وهم: أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح، والقواريري، وسجادة، فأمر النائب بشد وثاقهم، وتكبيلهم بالحديد، وباتوا ليلتهم مقيدين، فلما

(١) «تاريخ بغداد»، لأبي الفضل ابن طيفور، (ص: ١٨٢ - ١٨٣).

كان الغد أجاب سجادة إسحاق فيما يدعو إليه، فخلّوا عنه وفكّوا قيوده، واستمر الباقون على حالهم.

وفي اليوم التالي أعيد السؤال عليهم وطلب الجواب إليهم، فخارت نفس القواريري وأجابهم إلى ما طلبوا ففكّوا قيوده.

وبقي محمد بن نوح وأحمد بن حنبل مصممين، فسيقا في الحديد ليلتقيا بالمأمون في طرسوس، إلا أن محمد بن نوح توفي في الطريق[١].

وفي أثناء مسير الإمام مقيداً إلى المأمون في طرسوس جاء الى الإمام أحمد رجل وهو يمسح دموعه بطرف ثوبه، ويقول: «يعزّ علي يا أبا عبد الله أن المأمون قد سلّ سيفاً لم يسلّه قبل ذلك، وأنه يقسم بقرابته من رسول الله ﷺ لأن لم تجبه إلى القول بخلق القرآن ليقتلنك بذلك السيف؟»[٢].

فلما سمع الإمام أحمد هذه الكلمات توجّه بالدعاء إلى الله تعالى ألّا يجمع بينه وبينه، فاستجاب الله دعاءه فجاءهم الصارخ بموت المأمون قبل وصول الإمام أحمد إليه[٣]، فلله الحمد والمنّة.

فردّ الإمام أحمد إلى بغداد فسجن هناك أكثر من ثمانية وعشرين شهراً[٤].

---

(١) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٠/ ٣٦٦).

(٢) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٠/ ٣٦٦).

(٣) ينظر: «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (١١/ ٢٤١).

(٤) ينظر: «مناقب الإمام أحمد»، لابن الجوزي، (ص: ٤٢٧ - ٤٣١).

ثانيا: المعتصم «محمد بن هارون الرشيد» (السجن والتعذيب):

لم تنقطع المحنة بموت المأمون، بل استمرت أشد مما كانت عليه من قبل، ذلك أن المأمون قبل موته كان أوصى المعتصم بإشراك رأس الفتنة ابن أبي دؤاد معه في أمره[١]، والاستمرار بالقول بخلق القرآن، فنفّذ المعتصم وصية المأمون، وقام بدوره في المحنة، حيث عقد مجلساً حضره ابن أبي دؤاد، ثم استدعى الإمام أحمد من السجن، وأحضر المعتصم له الفقهاء من المتكلمين فناظروه بحضرته لمدة ثلاثة أيام، وهو يناظرهم، ويظهر عليهم بالحجج القاطعة، ويقول: «أنا رجل علمت علماً، ولم أعلم فيه بهذا، أعطوني شيئاً من كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ حتى أقول به»[٢].

ولما انقطعت حججهم، وأيسوا من إجابته لهم جعلوا يحرّضون المعتصم عليه، قائلين: يا أمير المؤمنين هذا كافر ضالّ مضلّ.

وقال له إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد: يا أمير المؤمنين ليس من تدبير الخلافة أن نخلي سبيله ويغلب خليفتين.

حينها اشتد غضب المعتصم، وكان ألينهم عريكة، وهو يظن أنهم على شيء، **قال الإمام أحمد:** فعند ذلك قال لي: لعنك الله طمعت فيك أن تجيبني فلم تجبني، ثم قال: خذوه واخلعوه، واسحبوه.

قال الإمام أحمد: فأخذت وسحبت، وخلعت وجيء بالعاقبين

(١) ينظر: «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٠/ ٣٦٦).

(٢) ينظر: «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٠/ ٣٦٧).

والسياط، وأنا أنظر... فقلت: يا أمير المؤمنين الله الله؛ إن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله إلا بإحدى ثلاث**»[١] وتلوت الحديث، وإن رسول الله ﷺ قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منّى دماءهم وأموالهم**»[٢].

فبم تستحلّ دمي، ولم آت شيئاً من هذا؟

يا أمير المؤمنين: اذكر وقوفك بين يدي الله كوقوفي بين يديك**!** فكأنه أمسك.

ثم لم يزالوا يقولون له: يا أمير المؤمنين**!** إنه ضالّ مضلّ كافر**!**...

ثم جيء بالضرابين ومعهم السياط فجعل أحدهم يضرب الإمام أحمد سوطين، والمعتصم يقول للجلاد: شدّ قطع الله يديك، ثم يجيء الآخر فيضربه سوطين، ثمّ الآخر كذلك، فضربوه أسواطاً حتى أغمي عليه، وذهب عقله[٣]، فلمّا سكن الضرب عاد إليه عقله، فأعادوا عليه الضرب، حتى صار لم يحس بالضرب، حتى أن أحد جلاديه قال: «والله الذي لا إله إلاّ هو: لقد جلدت الإمام أحمد بن حنبل جلداً لو جلدته بعيراً لمات».

فلما رأى المعتصم شدّة الضرب، وسيلان دم الإمام أحمد على الأرض هاله الأمر، وأصيب بالرعب، وخشي أن الإمام أحمد قد مات

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٠/ ٣٤٨)، و«سير أعلام النبلاء»: (١١/ ٢٥١ – ٢٥٢).

فأمر بإطلاق سراحه، **قال الإمام أحمد:** «لم أشعر إلا وأنا في حجرة من بيت، وقد أطلقت الأقياد من رجلي»[١].

وأمر المعتصم عمّ الإمام، إسحاق بن حنبل أن يشيع في الناس أن الإمام بخير، **قال الذهبي:** «كأنّه خاف أن يموت من الضرب، فتخرج عليه العامة ولو خرج عليه عامة بغداد لربما عجز عنهم»[٢].

ولما رجع الإمام أحمد إلى منزله جاءه الجرايحي فقطع لحماً ميتاً من جسده، وجعل يداويه، والنائب في كل وقت يسأل عنه، وذلك أن المعتصم ندم على ما كان منه إلى أحمد ندماً كثيراً، وجعل يسأل النائب عنه، والنائب يستعلم خبره، فلما عوفي فرح المعتصم والمسلمون بذلك[٣].

ثالثاً: الواثق «هارون بن المعتصم» (المنع والتضييق):

بعد موت المعتصم تولّى الخلافة بعده ابنه: «الواثق» (هارون بن المعتصم) إلا أنه لم يتعرّض للإمام، حيث رأى أن التعذيب لا يفيد مع الإمام أحمد، وأنه عرف فيه أنه عن الحق لا ولن يحيد، ورأى أتباعه في مزيد، فأمر أن يكون الإمام تحت الإقامة الجبرية في بيته، وألّا يجتمع بالناس، ولا يساكنه بأرض ولا مدينة هو فيها[٤].

فبقي الإمام أحمد مختفياً، حتى مات الواثق.

---

(١) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٠/ ٣٤٨).

(٢) «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (١١/ ٢٦٠).

(٣) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٠/ ٣٦٩).

(٤) ينظر: «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (١١/ ٢٦٤).

رابعا: المتوكل: «جعفر بن المعتصم» (محنة السراء):

بعد موت «الواثق» تولّى الخلافة بعده المتوكل، فحصل للناس خيراً كثيراً؛ فقد انتصر أهل الحق، واندحر أهل البدع، حيث «أطفأ المتوكل نيران البدعة، وأوقد مصابيح السّنّة»(١).

وفي عصر المتوكل ازداد الإمام أحمد رفعة عند العامة والخاصة، حيث أكرم المتوكل الإمام أحمد، وأرسل إليه العطايا، ولكن الإمام رفض قبول عطايا الخليفة، معتبراً أن محنة السراء لا تقلّ خطراً عن محنة الضراء التي تعرّض لها في عهد الخلفاء السابقين.

وقد عظمت مكانة الإمام أحمد لدى الخليفة المتوكل؛ فكان لا يولّي أحداً إلا بمشورته، **قال ابن كثير**: «مكث إلى سنة وفاته وكل يوم إلا ويسأل عنه المتوكل ويوفد إليه في أمور يشاوره فيها، ويستشيره في أشياء تقع له»(٢).

فهذه خيوط عامة في محنة الإمام أحمد، وقد واجه الإمام أحمد هذه المحنة بأمور عدة؛ منها:

أولاً: الصدع بكلمة الحق، وعدم الأخذ بالرخصة أو التقية، قال أحمد شاكر في موقف الإمام أحمد: «أما أولو العزم من الأئمة الهداة فإنهم يأخذون بالعزيمة، ويحتملون الأذى ويثبتون، وفي سبيل الله ما يلقون، ولو أنهم أخذوا بالتقية، واستساغوا الرخصة لضلّ النّاس من

---

(١) «مناقب الإمام أحمد»، لابن الجوزي، (ص: ٤٨٣ - ٤٨٤).

(٢) ينظر: «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٠/ ٣٧٤).

ورائهم يقتدون بهم ولا يعلمون أنّ هذه تقية، وقد أتي المسلمون من ضعف علمائهم في مواقف الحق.. لا يجاملون الملوك والحكام فقط، بل يجاملون كل من طلبوا منه نفعاً أو خافوا ضراً في الحقير والجليل من أمر الدنيا».[1]

وقال أبو زهرة: «ولأن التقية لا تجوز من الأئمة الذين يقتدى بهم ويهتدى بهديهم، حتى لا يضل الناس؛ لأنهم إن نطقوا بغير ما يعتقدون وليس للناس علم ما في الصدر، اتبعوهم في مظهرهم، وظنّوا أنه الحق الذي ارتضوه ديناً، وبذلك يكون الفساد عاماً ولا يخصّ، وحقٌّ على الإمام أن يكون الممتحن المبتلى، فتنشر الفكرة السليمة ويكون الابتلاء سبيل نشرها وذيوعها»[2].

ثانياً: الثبات على الحق في عسره ويسره، ومنشطه مكرهه: ذلك أن الإمام أحمد -كما سبق- قد تنوّعت عليه المحن، فقد اختبره المأمون بالقيد، فساقه إليه مقيّداً مغلولاً يثقله الحديد، واختبره المعتصم بالحبس والضرب والتعذيب، واختبره الواثق بالمنع والتضييق، وابتلي في عهد المتوكل بالنّعم، فرفضها وردّها، رغم عوزه وفقره، وشدّة حاجته، قال أبوالبركات الآلوسي: «وقد تداولته أربعة خلفاء: بعضهم بالضراء، وبعضهم بالسراء، فكان فيها معتصماً بالله عز وجل. تداوله المأمون، والمعتصم، والواثق بعضهم بالضرب والحبس، وبعضهم بالإخافة والترهيب، فما كان في هذه الحال إلا سليم الدين، غير تارك له من أجل ضرب ولا حبس. ثم امتحن

---

(١) مقدمة مسند الإمام أحمد بتحقيق الشيخ أحمد شاكر (١/ ١٣).

(٢) «أحمد بن حنبل»، لأبي زهرة، (ص: ٦٧).

أيام المتوكل بالتكريم والتعظيم، وبسطت الدنيا عليه فما ركن إليها، ولا انتقل عن حالته الأولى رغبة في الدنيا»[١].

ثم ابتلي بعد كل هذه المحن بأعظم بلاء، وهو: إعجاب الناس به، فما أورثه ذلك عجباً ولا غروراً، فنجح - رحمه الله - في كل هذه الامتحانات والابتلاءات.

ثالثا: العفو والصفح عمّن كانوا سبباً في تعذيبه مبتغياً بذلك وجه الله، قال ابن كثير: «وجعل كل من آذاه في حلّ إلا أهل البدعة، وكان يتلو في ذلك قوله تعالى:

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢)﴾[٢]

وكان يقول: «ماذا ينفعك أن يعذّب أخوك المسلم بسببك؟

وقد قال تعالى:

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠)﴾[٣] [٤].

وأما من تسبّبوا في هذه المحنة فقد عاقبهم الله في الدنيا قبل الآخرة، فأحمد بن أبي دؤاد الذي أفتى بضرب العلماء وسجنهم وقتلهم، فقد عاقبه الله بالفالج (أي الشلل)، فمكث أربع سنوات قبل موته طريحاً في فراشه، وعزله المتوكل من وظيفته، بل أمر المتوكل بمصادرة جميع أمواله.

---

(١) «جلاء العينين»، لأبي البركات خير الدين الآلوسي، (ص: ٢١٥).

(٢) سورة النور، آية: ٢٢.

(٣) سورة الشورى، آية: ٤٠.

(٤) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٠/ ٣٦٩).

وأما نهاية الجلادين، فقد أصيب أبو ذر بالبرص والمرض، وتقطّع جسمه، وأهلكه الله بسوء عمله.

وأما أبو العروق فمكث خمسة وأربعين يوماً ينبح كما ينبح الكلب، ابتلاه الله بمرض فصار ينبح كالكلاب(١).

وأما المأمون الذي يعدّ أوّل من أدخل علم المنطق وسائر العلوم اليونانيّة في الملّة الإسلاميّة، وكان السبب في هذه المحنة العظيمة، فقد قال ابن تيمية عنه: «ما أظنّ أنّ الله تعالى يغفل المأمون على ما أدخل على المسلمين».

وفاته:

توفي الإمام أحمد بن حنبل في وقت الضحى من يوم الجمعة، في الثاني عشر من شهر ربيع الأول، سنة ٢٤١هـ، وهو ابن سبع وسبعين سنة، ودفن بعد العصر(٢)

وقد اجتمع الناس في الشوارع عقب معرفتهم بوفاته.

وحضر غسله نحو من مائة من بيت الخلافة من بني هاشم، فجعلوا يقبّلون بين عينيه، ويدعون له، ويترحّمون عليه.

وخرج الناس بنعشه والخلائق حوله من الرجال والنساء ما لا يعلم عددهم إلا الله، ونائب البلد محمد بن عبدالله بن طاهر واقف في الناس،

---

(١) ينظر: «المنهج الأحمد»، لأبي اليمن العليمي: (١/ ٣٩ - ٤٠).

(٢) ينظر: «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٠/ ٣٧٥)، و«مناقب الإمام أحمد»، لابن الجوزي، (ص: ٥٤٩).

فتقدّم خطوات، فعزى أولاد الإمام أحمد فيه، وكان هو الذي أمّ الناس في الصلاة عليه، وقد أعاد جماعة من الناس الصلاة على القبر بعد الدفن من أجل ذلك، ولم يستقر في قبره - رحمه الله - إلا بعد صلاة العصر؛ وذلك لكثرة الناس.

قال أبو زرعة: «بلغني أن المتوكل أمر أن يمسح الموضع الذي وقف الناس عليه حيث صلّي على أحمد بن حنبل، فبلغ مقام ألفي ألف وخمسمائة ألف».

قال عبدالوهاب الوراق: «أظهر الناس في جنازة أحمد بن حنبل السّنّة والطعن على أهل البدع، فسرّ الله المسلمين بذلك على ما عندهم من المصيبة، لما رأوا من العز وعلو الإسلام وكبت أهل الزيغ، ولزم بعض الناس القبر، وباتوا عنده، وجعل النساء يأتين حتى منعن».

وقال عبدالوهاب الوراق أيضاً: «ما بلغنا أن جمعاً في الجاهلية والإسلام كان أكثر من الجمع على جنازة أبي عبدالله»[١].

وقد رآه بعض العلماء في المنام بعد موته في هيئة حسنة، ونعيم مقيم، ومن ذلك: قال أحمد بن محمد الكندي: «رأيت أحمد بن حنبل في المنام، فقلت: يا أبا عبد الله، ما صنع الله بك؟ قال: غفر لي، وقال لي: يا أحمد، ضربت فيّ قال: قلت: نعم يا ربّ، قال: هذا وجهي فانظر إليه، فقد أبحتك النظر إليه»[٢].

---

(١) ينظر: «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (١١/ ٣٣٢ - ٣٣٤).

(٢) «مناقب الإمام أحمد»، لابن الجوزي، (ص: ٥٩٣).

وقال أبا يحيى السّمسار البغدادي: «رأيت أحمد بن حنبل في المنام وعلى رأسه تاجٌ مرصّع بالجوهر، وإذا هو يخطر خطرة لم أعرفها له في دار الدنيا، فقلت له: يا أبا عبد الله، ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وأدناني وتوّجني التاج، فقال: هذا بقولك: القرآن كلام الله غير مخلوق، وهذه مشية الخدّام في دار السلام»[١].

(١) «مناقب الإمام أحمد»، لابن الجوزي، (ص: ٥٨٦ – ٥٨٧).

(٣) البويطيّ

اسمه ونسبه:

ابو يعقوب يوسف بن يحيى البويطيّ. الإمام، العلّامة، سيد الفقهاء، أخصّ تلاميذ الإمام الشافعي[١].

وأما نسب البويطيّ فيعود نسبه إلى قرية: «بويط»، وهي قرية من قرى الصعيد الأدنى في مصر[٢].

مولده ونشأته:

لم يذكر علماء التاريخ والسير التراجم الذين ترجموا للبويطيّ تاريخ ولادته، وأما مكان ولادته فقد ولد بقرية: «بويط» وهي قرية من قرى صعيد مصر -كما سبق-.

وأما نشأته فقد نشأ البويطيّ في قريته: «بويط»، وترعرع فيها، وتلقى العلم على يد شيوخها منذ صغره، ثم انتقل مع والده إلى مدينة: «الفسطاط» حيث كانت وقتئذ أحد قلاع العلم في العالم، فجلس البويطيّ إلى شيخ المالكية عبد الله بن وهب، وأخذ عنه علماً كثيراً[٣].

ولما دخل الشافعي مصر سنة ١٩٨ هـ في رحلته العلمية الشهيرة جلس إليه «البويطيّ»، ولزم حلقته.

---

(١) ينظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي: (١٢/ ٥٨)، و«طبقات الفقهاء»، للشيرازي، (ص: ٩٨).

(٢) ينظر: «وفيات الأعيان»، لابن خلكان: (٧/ ٦٤).

(٣) «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (١٢/ ٥٩).

وقد تميّز البويطيّ منذ صباه بحرصه على طلب العلم، وذكائه الحاد، وفهمه الثاقب؛ حتى أن الشافعي أعجب به، قال الربيع بن سليمان (وهو نظيره وقرينه في حلقة الشافعي): «كان أبو يعقوب من الشافعي بمكان مكين»(١).

وقد تأهّل البويطيّ للفتوى وهو في شرخ الشباب على مرأى ومسمع من الشافعي، فقد ذكر علماء التراجم الذين ترجموا للبويطي: أن الشافعي ربما سئل عن المسألة، فيقول: سل أبا يعقوب، فإذا أجاب أخبره، فيقول: «هو كما قال»(٢).

وقال أبو عاصم: «كان الشافعي - رضي الله عنه - يعتمد البويطيّ في الفتيا، ويحيل عليه إذا جاءته مسألة... واستخلفه على أصحابه بعد موته، فتخرّجت على يديه أئمة تفرقوا في البلاد، ونشروا علم الشافعي في الآفاق»(٣).

وقد لازم البويطيّ الشافعي حتى صار أكبر أصحابه، وأكثرهم فهماً لدقائق مذهبه ومسائله، قال الإمام الشافعي: «ليس أحد أحق بمجلسي من يوسف بن يحيى، وليس من أصحابي أعلم منه»(٤).

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٢/ ١٦٣).

(٢) «طبقات الشافعيين»، لابن كثير، (ص: ١٦٠).

(٣) «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٢/ ١٦٣).

(٤) «الجوهرة»، للتلمساني: (١/ ٤٥٦).

ثناء العلماء عليه:

أصدق ثناء على الإنسان: أفعاله ومواقفه وخلاله.

ثم يأتي بعد ذلك: ثناء الملازمين أو المجالسين أو المجاورين له.

ثم يأتي بعد ذلك: ثناء القارئين لسيرته أو المطّلعين على أخباره.

وللبويطي في كل ما سبق أصدق ثناء وأعظم مدح.

أما أصدق الأفعال والمواقف التي تدلّ على الثناء عليه فصدعه بالحق، ونصرته له، وثباته عليه، كما سيأتي الحديث عن ذلك في محنته.

أما ثناء الملازمين والمجالسين المجاورين للبويطي، فقد أثنى عليه شيخه الإمام الشافعي، حيث قال عنه: «ليس في أصحابي أحد أعلم من البويطيّ»(١).

وقال أيضا عنه الشافعي: «البويطيّ لساني الذي أتكلم به»(٢).

وأثنى عليه قرينه ونظيره في طلب العلم الربيع بن سليمان، قال الربيع ابن سليمان: «كان أبو يعقوب البويطي يصوم ويقرأ القرآن، لا يكاد يمر يوم وليلة إلا ختمه، مع صنائع المعروف إلى الناس»(٣).

وقال الربيع أيضاً: «كان البويطيّ أبداً يحرك شفتيه بذكر الله، وما أبصرت أحداً أنزع (أبرع) بحجّة من كتاب الله من البويطيّ»(٤).

---

(١) «سير أعلام النبلاء» للذهبي: (١٢/ ٥٩)، و«طبقات الفقهاء»، للشيرازي، (ص: ٩٨).

(٢) «وفيات الأعيان»، لابن خلكان: (٧/ ٦٣)، و«طبقات الشافعيين»، لابن كثير، (ص: ١٦٠).

(٣) «طبقات الشافعيين»، لابن كثير، (ص: ١٦١).

(٤) «وفيات الأعيان»، لابن خلكان: (٧/ ٦٢).

وأثنى على البويطي جيرانه، حيث قال عنه ابن أبي الجارود: «كان البويطيّ جاري فما كنت أنتبه ساعة من الليل إلا سمعته يقرأ ويصلي»[١].

وأما ثناء القارئين لسيرته والمطّلعين على أخباره من العلماء، فأقوالهم في ذلك كثيرة جداً، ومنها:

قال الذهبي: «الإمام، العلامة، سيد الفقهاء، المصري، البويطي، صاحب الإمام الشافعي، لازمه مدة، وتخرّج به، وفاق الأقران... وكان إماماً في العلم، قدوة في العمل، زاهداً ربانياً، متهجّداً، دائم الذكر والعكوف على الفقه»[٢].

وقال أيضاً: «الإمام... الفقيه... كان صالحاً عابداً متهجّداً، دائم الذكر والتشاغل بالعلم»[٣].

وقال أيضاً: «كان البويطيّ يصوم، ويتلو غالباً في اليوم والليلة ختمة مع صنائع المعروف إلى الناس»[٤].

وقال ابن خلكان: «صاحب الشافعي - رضي الله عنه - كان واسطة عقد جماعته وأظهرهم نجابةً، اختص به في حياته، وقام مقامه في الدرس والفتوى بعد وفاته... وكان صالحاً متنسكاً عابداً زاهداً»[٥].

(١) «طبقات الفقهاء» للشيرازي، (ص: ٩٨)، و«تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي: (١٦/ ٤٣٩).

(٢) «سير أعلام النبلاء» للذهبي: (١٢/ ٥٨ - ٥٩).

(٣) «تاريخ الإسلام»، للذهبي: (١٧/ ٤٢٢).

(٤) «سير أعلام النبلاء» للذهبي: (١٢/ ٦٠).

(٥) «وفيات الأعيان»، لابن خلكان: (٧/ ٦١ - ٦٢).

وقال ابن قاضي شهبة: «الفقيه، أحد الأعلام من أصحاب الشّافعي، وأئمة الإسلام»(١).

وقال ابن الجوزي: «ثقة فقيه، من أهل السنة»(٢).

وقال أيضاً: «جمع بين الفقه والتقوى وامتحن فلم يجب»(٣).

وقال ابن العماد الحنبلي: «العلّامة.. الفقيه.. وكان عابداً مجتهداً، دائم الذّكر، كبير القدر»(٤).

وقال المزي: «وكان صالحاً، متعبّداً، زاهداً»(٥).

وقال السبكي: «الإمام الجليل... كان إماماً جليلاً عابداً زاهداً فقيهاً عظيماً مناظراً جبلاً من جبال العلم والدين، غالب أوقاته الذكر والتشاغل بالعلم، غالب ليله التهجد والتلاوة، سريع الدمعة»(٦).

وقال أيضاً: «وكانت الفتاوى ترد على البويطيّ من السلطان فمن دونه، وهو متنوّع في صنائع المعروف، كثير التلاوة لا يمر يوم وليلة غالباً حتى يختم»(٧).

---

(١) «طبقات الشافعية»، لابن قاضي شهبة: (١/ ٧٠).

(٢) «صفة الصفوة»، لابن الجوزي: (٢/ ٤٤٣).

(٣) «صفة الصفوة»، لابن الجوزي: (٢/ ٤٤٣).

(٤) «شذرات الذهب»، لابن العماد الحنبلي: (٣/ ١٤٣).

(٥) «تهذيب الكمال»، للمزي: (٣٢/ ٤٧٣).

(٦) «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٢/ ١٦٢).

(٧) «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٢/ ١٦٤).

وقال أيضاً: «يرحم الله أبا يعقوب لقد قام مقام الصديقين»[١].

وقال ابن عبد البر: «كان من أهل الدين والعلم والفهم والثقة، صلباً في السّنّة، فيرد على أهل البدع، وكان حسن النظر»[٢].

وقال أيضاً: «استخلفه (أي الشافعي مع جلالة قدره وفضله ونبله) في حلقته، وكان عالماً فقيهاً لطيفاً في أسبابه، يدني الغرباء ويقرّبهم إذا قدموا للطلب»[٣].

مؤلفاته:

لم يعرف البويطيّ بمؤلفات كثيرة، إنما عرف بعلمه الغزير، وأيضاً عرف بأنه من العلماء الذين ترجموا علمهم على أرض الواقع كما سيأتي شاهد ذلك عند الحديث عنه محنته.

ومن مؤلفات البويطي التي ذكرها أغلب العلماء الذين ترجموا له:

١ - كتاب: «**المختصر**» المشهور في الفقه الشافعي، اختصره من كلام الشافعي، **قال أبو عاصم عنه:** «هو في غاية الحسن على نظم أبواب المبسوط»[٤].

وأضاف ابن النديم[٥] **على ذلك:**

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٢/ ١٦٥).

(٢) «طبقات الشافعيين»، لابن كثير، (ص: ١٦٠).

(٣) «الانتقاء»، لابن عبد البر، (ص: ١٠٩).

(٤) «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٢/ ١٦٣).

(٥) «الفهرست»، لابن النديم، (ص: ٢٦٢).

٢- كتاب الفرائض.

وأضاف البغدادي[١] إلى ما سبق:

٣- مختصر في الفروع.

٤- النزهة الزهية.

محنته:

تعدّ محنة «القول بخلق القرآن» أشد محنة تعرّض لها العلماء والفقهاء، وذلك من خلال حيثيات عدة؛ منها:

الأولى: من حيث نوعيتها: فهي محنة عقديّة، تتعلّق بصفات الله، وتمسّ أهم مصدر من مصادر التشريع الإسلامي «القرآن».

الثانية: من حيث مدتها: حيث طال ليلها حتى جاوز عشرين سنة (٢١٢هـ - ٢٣٢هـ).

الثالثة: من حيث المتبنين لها والقائمين عليها: حيث تبنّاها وأشرف عليها كبار أمراء الدولة آنذاك: «المأمون، والمعتصم، والواثق»، مسخرين في سبيلها كافة أجهزة الدولة وإمكانياتها، مستخدمين كافة وسائل الترغيب والإغراء والترهيب والتخويف والتعذيب في حق من يرفض القول بخلق القرآن.

الرابعة: من حيث شموليتها: فقد شملت فئات المجتمع، وفي مقدمتهم العلماء والفقهاء، بل شملت حتى أسرى المسلمين لدى الروم؛ كما حدث

(١) «هدية العارفين»، للباباني البغدادي: (٢/ ٥٤٩).

ذلك في ولاية الواثق؛ فمن قال منهم بخلق القرآن افتكه، ومن رفض تركه أسيراً لدى الروم في سابقة لم يعرف التاريخ مثلها من قبل[١].

ولم تقتصر هذه المحنة على علماء وفقهاء العراق فقط، بل شملت كافة المدن التابعة للخلافة العباسية، ومن المدن التي شملتها المحنة: «مصر»، حيث كان لعلمائها وفقهائها نصيباً منها، فمنهم من امتحن في مصر نفسها من قبل ولاتها وقضاتها، ومنهم من حمل إلى الرقة بسوريا، ومنهم من حمل إلى بغداد العراق.

ومن أبرز علماء مصر الذين امتحنوا بسبب فتنة القول بخلق القرآن ثم حملوا إلى العراق: «البويطيّ»، حيث كانت محنته أثناء ولاية «الواثق»، ذلك أن الواثق كان أشد أمراء الدولة العباسية حملاً للناس على القول بخلق القرآن.

قال ابن كثير: «وكان الواثق من أشد الناس في القول بخلق القرآن، يدعو إليه ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، اعتماداً على ما كان عليه أبوه قبله وعمه المأمون، من غير دليل ولا برهان ولا حجة ولا بيان ولا سنّة ولا قرآن»[٢].

بل بلغ الأمر بالواثق مبلغاً سيّئاً، حيث اتّخذ إجراءات عدّة في سبيل نشر عقيدة المعتزلة، ومنها: تعيين قضاة من المعتزلة المعتنقين لعقيدة المعتزلة المنحرفة في كافة الأمصار التابعة للخلافة العباسية، ومنها مصر، حيث تم

---

(١) ينظر: «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٠/ ٣٣٦- ٣٣٧).

(٢) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٠/ ٣٣٤).

تعيين محمد بن أبي الليث الأصم الحنفي المعتزلي قاضياً عليها؛ كما ذكر ذلك الكندي بقوله: «قدم أبو الوزير والياً على خراج مصر، وقدم معه بكتاب ولاية ابن أبي الليث على القضاء»[١].

وذكر الذهبي[٢] أن ولاية محمد بن أبي الليث الأصم لقضاء مصر كانت أيام المعتصم والواثق.

وقد كان محمد بن أبي الليث الأصم رجل سوء، حيث شدّد على الناس بسبب هذه العقيدة المنحرفة، فلم يترك فقيهاً في مصر ولا متحدثاً ولا مؤذناً حتّى أخذه بالمحنة، وملأ السجون ممّن لم يجب، وهرب كثير من الناس، وأمر بأن يكتب على المساجد: لا إله إلاّ الله رب القرآن المخلوق، ومنع الفقهاء من أصحاب مالك من الجلوس في المسجد الجامع[٣].

وكان البويطي من أبرز ضحايا: محمد بن أبي الليث الأصم، حيث سعى به[٤] [٥] إلى قاضي المحنة ابن أبي دؤاد، لما ما له من المكانة لدى العامة

---

(١) «أخبار القضاة»، للكندي: (٣/ ٢٤٠).

(٢) «تاريخ الإسلام»، للذهبي: (١٨/ ٤٢٣).

(٣) ينظر: «رفع الإصر عن قضاة مصر»، لابن حجر العسقلاني، (ص: ٤٠٤).

(٤) ينظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي»: (١٢/ ٦٠).

(٥) وقد ذكر بعض علماء التراجم: أنه شارك في السعي في محنة البويطي (إضافة إلى أبي بكر الأصم): ابن الشافعي، وكان مخالفاً للشافعي -للأسف-، ولم يكن على طريقته، وشارك أيضاً في السعي به: المزني، وحرملة [ينظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي»: (١٢/ ٦١)، و«طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٢/ ١٦٤) والله أعلم.

والخاصة، فقد كتب إلى ابن أبي دؤاد ما مضمونه: أن البويطيّ يحول بين نشر العقيدة في الديار المصرية، فكتب أحمد بن أبي دؤاد إلى والي مصر آمراً إيّاه بامتحان البويطيّ على خلق القرآن[١].

فاستدعى والي مصر آنذاك: «البويطيّ» للامتحان، فلما مثل البويطيّ أمام والي مصر أمر الوالي بإخلاء المجلس، ثم تحدّث مع البويطيّ بالأمر سراً، ذلك أن والي مصر كان محباً للبويطي، معظّماً لعلمه وورعه، وكارهاً أن يكون سبباً في أذية البويطيّ بأي نوع من أنواع الأذى، فقال الوالي للبويطي: «قل فيما بيني وبينك»، فرد عليه البويطيّ: «إنه يقتدي بي مائة ألف، ولا يدرون المعنى»[٢].

وكان قاضي الفتنة ابن أبي دؤاد قد أمر بحمل البويطيّ من مصر إلى بغداد إن هو لم يجب، قال الربيع بن سليمان حاكياً قصة حمله من مصر إلى بغداد (وهي مسافة طويلة تستغرق عدة أسابيع): «رأيت البويطيّ على بغل في عنقه غل، وفي رجليه قيد، وبين الغل والقيد سلسلة من حديد، فيها طوبة (لبنة) وزنها أربعون رطلاً»[٣].

وأثناء مسير «البويطيّ» من مصر إلى بغداد في القيود والأغلال كان آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، مرشداً واعظاً لكل من مرّ عليه من المسلمين، صابراً محتسباً موطناً نفسه على الثبات، قال الربيع بن سليمان

(١) ينظر: «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (١٢/ ٦٠).
(٢) «سير أعلام النبلاء» للذهبي: (١٢/ ٦١).
(٣) ينظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي»: (١٢/ ٥٩).

حاكياً ما سمعه من البويطيّ أثناء حمله: «... وهو يقول (أي البويطيّ): إنما خلق الله سبحانه الخلق بـ«كن»، فإذا كانت «كن» مخلوقة فكأن مخلوقاً خلق مخلوقاً، فوالله لأموتن في حديدي حتى يأتي من بعدي قوم يعلمون: أنه مات في هذا الشأن قوم في حديدهم، ولئن أدخلت عليه لأصدقنه، يعني الواثق»[1]. فلما وصل البويطيّ بغداد ألقي في السجن مباشرة مكبلاً بالأغلال والقيود.

وقد جرى للبويطي أثناء محنته مواقف عدة؛ منها:

١- محاولة إغرائه بالمال لعلّه يتراجع: قال أبو بكر بن ثابت: «بعث ابن أبى دؤاد إلى البويطيّ بعض أصحابه إلى السجن، وهو يقول له: إنه يسلّم عليك - وكانت بينهما صداقة - وإذا كان الغد وأحضرت بين يدى أمير المؤمنين وسألك عن خلق القرآن فقل به، ولك علي أربعون حملاً محمّلة ممّا تريد تعود بها إلى مصر، فقال للرسول: «نعم في غد نتكلم إن شاء الله تعالى. فلما أحضر جلس الخليفة، وجلس ابن أبى دؤاد، فقال له البويطى: والله لا أقول بخلق القرآن ولو أعطيت وزن جبل تهامة ذهباً، فضرب، فكان إذا شرب الماء خرج من بين أضلاعه»[2].

٢- امتحانه وضربه كل يوم: قال مكي بن إبراهيم: «وكان في كل يوم يخرج من السجن مع الأعيان يرفل في قيده فيسأل، فيقول: هو كلام ربّى ليس بمخلوق، فيضرب ويعاد إلى السجن»[3].

(١) ينظر: «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (١٢/ ٥٩).

(٢) «مرشد الزوّار» لمكي بن عثمان الشارعي: (١/ ٤٤١- ٤٤٢).

(٣) «مرشد الزوّار» لمكي بن عثمان الشارعي: (١/ ٤٤١).

٣- قوّة تعلّقه بالله، وقيامه بالعبادة الواجبة والمستحبّة: فقد حكى الساجي قصة تدل على تعظيم البويطيّ لأوامر الله، وبذله وسعه في الاستجابة لنداء الله، قال الساجي: «كان أبو يعقوب إذا سمع المؤذن وهو في السجن يوم الجمعة اغتسل ولبس ثيابه، ومشى حتى يبلغ باب الحبس، فيقول له السجان: أين تريد؟ فيقول: حيث داعي الله، فيقول: ارجع عافاك الله، فيقول أبو يعقوب: اللهم إنك تعلم أني قد أجبت داعيك؛ فمنعوني»(١).

٤- تشديد الأغلال والقيود عليه حتى وصلت القيود إلى أنصاف ساقيه: «وذلك بعد أن فشلت جميع محاولتهم في سبيل محاولة كسر إرادته، وتصلّبه في الثبات على مواقفه حيث حاولوا إغرائه بالمال، ثم امتحانه وضربه كل يوم، فوجدوه ثابتاً ثبوت الجبال، قائماً بأوامر ربه المتعال، باذلاً وسعه في سبيل حضور صلاة الجمعة»، قال الربيع: «دخلت على البويطيّ أيام المحنة فرأيته مقيداً إلى أنصاف ساقيه مغلولة يداه إلى عنقه»(٢).

وبتشديد الأغلال والقيود عليه حتى وصلت القيود إلى أنصاف ساقيه لكثرتها كان البويطيّ لا يستطيع الحركة، ودخول الخلاء، والتطهّر للصلاة إلا بصعوبة بالغة، وقد عبّر البويطيّ عن ذلك برسالة بعث بها من محبسه إلى الإمام الذهلي.

---

(١) «طبقات الفقهاء» للشيرازي، (ص: ٩٨).

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٢/ ١٦٥).

قال أبو عمرو المستملى: «حضرنا مجلس محمد بن يحيى الذهلي فقرأ علينا كتاب البويطيّ إليه وإذا فيه: والذى أسألك أن تعرض حالي على إخواننا أهل الحديث لعل الله يخلّصني بدعائهم فإني في الحديد، وقد عجزت عن أداء الفرائض من الطهارة والصلاة؛ فضجّ الناس بالبكاء، والدعاء له»[١].

قال السبكي معلقاً: «انظر إلى هذا الحبر - رحمه الله - لم يكن أسفه إلا على أداء الفرائض، ولم يتأثر بالقيد ولا بالسجن، فرضي الله عنه وجزاه عن صبره خيراً»[٢].

٥- عناية الله به: فعلى الرغم من كثرة القيود وثقل الحديد إلا أنه كانت تمر عليه أوقات لا يحسّ بها، قال الربيع بن سليمان: «وكتب إليّ (أي البويطيّ) من السجن: أنّه ليأتي عليّ أوقات ما أحس بالحديد أنّه على بدني حتى تمسّه يدي»[٣].

٦- لقاء البويطيّ لربه في السجن مكبّلاً بالقيود والحديد، ثابتاً على الحق، باراً بقسمه، ذلك أنه قد قال أثناء حمله من مصر إلى بغداد: «فوالله لأموتن في حديدي حتى يأتي من بعدي قوم يعلمون: أنه مات في هذا الشأن قوم في حديدهم»[٤].

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٢/ ١٦٥).
(٢) «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٢/ ١٦٥).
(٣) «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي: (١٦/ ٤٣٩).
(٤) ينظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي: (١٢/ ٥٩).

وبموت البويطيّ في حديده يكون قد تحقق فيه ما تفرّس فيه الإمام الشافعي، حيث قال عنه: «أنت تموت في الحديد»[١].

وقد واجه البويطيّ هذه المحنة بأمور عدة، منها:

أولاً: الجرأة في الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى فيه.

ثانياً: رفض الإغراءات المالية وعدم الالتفات إليها -كما سبق-.

ثالثاً: التعلق بالله، والمحافظة على فرائضه، وبذل الوسع والاستطاعة في إجابة نداء الله، قال الساجي: «كان أبو يعقوب إذا سمع المؤذن وهو في السجن يوم الجمعة اغتسل ولبس ثيابه، ومشى حتى يبلغ باب الحبس، فيقول له السجان: أين تريد؟ فيقول: حيث داعي الله، فيقول: ارجع عافاك الله، فيقول أبو يعقوب: اللهم إنك تعلم أني قد أجبت داعيك؛ فمنعوني»[٢].

رابعاً: حزنه وأسفه على عدم تمكّنه من القيام بالطهارة والعبادة بيسر وسهولة؛ كما سبق في رسالته التي وجهها لأبي بكر الذهلي وهو في محبسه، وأيضاً تعليق السبكي عليها؛ فنتيجة لثقل القيود والحديد الذي لفّ به البويطيّ وجد صعوبة في الحركة أعاقته عن الطهارة والصلاة بيسر وسهولة.

---

(١) «حسن المحاضرة» للسيوطي: (١/ ٣٠٧).

(٢) «طبقات الفقهاء» للشيرازي، (ص: ٩٨).

خامساً: اللجوء إلى الله والتضرّع إليه، وطلب الدعاء من العلماء وطلبة العلم برفع المحنة، حتى يتمكّن من عبادة ربه بيسر وسهولة، كما سبق ذلك في رسالته للذهلي وتعليق السبكي عليها.

سادساً: تحمّله لثقل الحديد ومشقته، وما ذلك إلا لاستشعاره لثقل الحق، وعظم الأمانة الملقاة على عاتقه، فهان عليه تحمل ثقل الحديد والسجن حتى مات صابراً محتسباً.

وبموت البويطيّ على هذه الحال مكبلاً بقيوده في السجن ثابتاً على الحق، صابراً على الأذى، محتسباً للأجر نرجو من الله سبحانه أن يجعله في جواره في جنة عرضها السموات والأرض، ونسأله سبحانه أن ينتقم له من الظالمين.

وفاته:

توفي البويطيّ في خلافة الواثق بمدينة بغداد في السجن والقيد في رجله، يوم الجمعة قبل صلاة الجمعة، في شهر رجب، سنة إحدى وثلاثين ومائتين.

وقيل: توفي سنة اثنتين وثلاثين ومائتين [١].

وكان مما أوصى به البويطيّ قبل موته وهو في السجن: طلبة العلم، وخاصة الغرباء، قال الربيع بن سليمان: «كتب إليّ أبو يعقوب البويطيّ أن اصبر نفسك للغرباء، وأحسن خلقك لأهل حلقتك، فإني لم أزل أسمع الشافعي يكثر أن يتمثل بهذا البيت:

---

(١) ينظر: «المنتظم»، لابن الجوزي: (١١/ ١٧٥)، و«المختصر»، لابن شاهنشاه: (٢/ ٣٦).

أهين لهم نفسي لكي يكرمونها

ولن تكرم النفس التي لا تهينها[(١) ٢]

رحمه الله وجعله مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

(١) «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي: (١٦/ ٤٣٩)

(٢) للمزيد عن سيرة «البويطي» ينظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي: (١٢/ ٥٨)، و«طبقات الفقهاء»، للشيرازي، (ص: ٩٨)، و«الانتقاء»، لابن عبد البر، (ص: ١٠٩)، و«تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي: (١٦/ ٤٣٩)، و«طبقات الفقهاء الشافعية»، لابن الصلاح: ٢/ ٦٨١، و«وفيات الأعيان»، لابن خلكان: (٧/ ٦١).

(٤) أحمد بن نصر الخزاعي

اسمه ونسبه:

أبوعبدالله أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم بن عوف بن وهب بن عميرة الخزاعي، المروزي. الإمام، العالم، الشهيد(١).

أما نسبه: فيعود نسبه الأول إلى قبيلة خزاعة، وهي قبيلة كبيرة جداً، ذات تاريخ عريق، وهي من القبائل التي اختلف علماء الأنساب فيها، فمنهم من نسبها إلى الأزد، وهو رأي أكثر النسّابين، ومنهم من نسبها إلى مضر(٢).

مولده ونشأته:

ولد أحمد بن نصر ببغداد، ولم اطّلع على تاريخ مولده في كتب علماء التراجم الذين ترجموا له، بخلاف تاريخ وفاته -كما سيأتي ذكر ذلك عند الحديث عن وفاته-.

أما نشأته، فقد نشأ أحمد بن نصر في بيت فضل وعلم ورئاسة، وعلائق مذكورة بالبيت العباسي، والدولة العباسية؛ حيث كان أبوه «نصر» من وجهاء الدولة ومن رجالاتها، ومن أهل الحديث وسماعه. وكان له رحبة (مكان متسع يشبه الأسواق) يسمّى: سويقة نصر بن مالك في بغداد.

---

(١) ينظر: «المنتظم»، لابن الجوزي: (١١/ ١٦٥)، و«الكامل في التاريخ»، لابن الأثير: (٦/ ٩٧).
(٢) ينظر: «الإنباه على قبائل الرواة»، لابن عبد البر، (ص: ٨١).

وأما جده «مالك بن الهيثم» فكان أحد نقباء بني العباس في ابتداء الدولة العباسية، وكان له عظيم الأثر في قيام دولة بني العباس(١).

ففي أسرة عريقة ميسورة، وفي مدينة العلم والعلماء آنذاك: «بغداد» نشأ «أحمد بن نصر» وشبّ وترعرع؛ حيث أقبل على حفظ القرآن منذ سن مبكرة من عمره، كما هي عادة أغلب العلماء القدماء.

ثم أقبل أحمد بن نصر على تلقي العلم من كبار العلماء، وسمع منهم الحديث وحمله عن كبارهم، كـ«حماد بن زيد، وآدم بن أبي إياس، وإسماعيل ابن أبي أويس، وإسماعيل بن علية، وسفيان بن عيينة، وسليمان ابن صالح المروزي، وعبد الله بن المبارك، وعبد الرزاق بن همام، وعلي ابن المديني، ووكيع بن الجراح، ويزيد بن هارون»(٢) وغيرهم.

ثناء العلماء عليه:

إن عالماً مثل «أحمد بن نصر» ليس بحاجة إلى ثناء أحد من العلماء، فأفعاله الحميدة، ومواقفه البطولية الخالدة أرفع وسام في مدحه، والثناء عليه.

وأحمد بن نصر الخزاعي ممن توّج علمه بعمله، فأنصت التاريخ لمواقفه، ودوّنها في أنصع صفحاته، وتناقلت مواقفه أجيال الأمة جيلاً بعد جيل، وسالت أقلام العلماء بتعطير كتبهم بالثناء عليه، ومن ذلك ما يلي:

---

(١) ينظر: «تاريخ الرسل والملوك»، لابن جرير الطبري: (٩/ ١٣٥).

(٢) «الأنساب»، للسمعاني: (٥/ ١١٦).

قال أحمد بن حنبل: «ما كان أسخاه بنفسه لله، لقد جاد بنفسه له»[١].

وذكره يحيى بن معين يوماً فترحّم عليه، وقال: «قد ختم الله له بالشهادة»[٢].

وقال الذهبي: «الإمام الكبير، الشهيد... وكان أحمد أمّاراً بالمعروف، قوّالاً بالحق»[٣].

وقال ابن كثير: «كان أحمد بن نصر هذا من أهل العلم والديانة والعمل الصالح والاجتهاد في الخير، وكان من أئمة السّنّة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وكان ممن يدعو إلى القول بأن القرآن كلام الله منزّل غير مخلوق، وكان الواثق من أشد الناس في القول بخلق القرآن، يدعو إليه ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، اعتماداً على ما كان عليه أبوه قبله وعمه المأمون، من غير دليل ولا برهان، ولا حجّة ولا بيان، ولا سنّة ولا قرآن؛ فقام أحمد بن نصر هذا يدعو إلى الله وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقول بأن القرآن كلام الله منزّل غير مخلوق، في أشياء كثيرة دعا الناس إليها»[٤].

وقال الخطيب البغدادي: «كان أحمد بن نصر من أهل الفضل والعلم، مشهوراً بالخير أمّاراً بالمعروف، قوّالاً بالحق»[٥].

---

(١) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٠/ ٣٣٦).

(٢) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٠/ ٣٣٦).

(٣) «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (١١/ ١٦٦).

(٤) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٠/ ٣٣٤).

(٥) «تاريخ بغداد وذيوله»، للخطيب البغدادي: (٥/ ٣٨٢).

وقال الحافظ أبو بكر: «لم يصبر في المحنة إلا أربعة كلهم من أهل مرو: أحمد بن حنبل أبو عبد اللّه، وأحمد بن نصر بن مالك الخزاعي، ومحمد بن نوح بن ميمون المضروب، ونعيم بن حمّاد»(١).

وقال السبكي: «الأستاذ... ذو الجنان واللسان والثبات وإن اضطرب المهنّد والسنان والوثبات، وإن ملأت نار الفتنة كل مكان فإنه كان شيخاً جليلاً قوّالاً بالحق أمّاراً بالمعروف نهّاء عن المنكر، وكان من أولاد الأمراء»(٢).

وقال ابن العماد الحنبلي: «الشهيد، كان من أولاد الأمراء فنشأ في علم وصلاح، وكتب عن مالك وجماعة، وحمل عن هشيم مصنفاته وما كان يحدّث. وكان يزري على نفسه... وكان رأساً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»(٣).

وقال الصفدي: «كان أحمد شيخاً جليلاً أمّاراً بالمعروف من أولاد الأمراء»(٤).

وقال ابن الجوزي: «كان من كبار العلماء الآمرين بالمعروف، وسمع الحديث من مالك بن أنس وحماد بن زيد وهشيم، وغيرهم»(٥).

---

(١) «تهذيب الكمال»، للمزي: ١/ ٥١٠، و«طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٢/ ٥٢).

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٢/ ٥١).

(٣) «شذرات الذهب»، لابن العماد الحنبلي: (٣/ ١٤٠).

(٤) «الوافي بالوفيات»، للصفدي: (٨/ ١٣٧).

(٥) «صفة الصفوة»، لابن الجوزي: (١/ ٤٩١).

محنته:

سبق أن بيّنا أثناء ترجمتنا للإمام أحمد بن حنبل المحنة التي تعرّض لها الإمام أحمد، وهي إلزام الناس وامتحانهم بالقول بخلق القرآن، وقد بيّنا أن هذه الفتنة بدأت في عهد المأمون، ثم عهد بمواصلة السير على هذه العقيدة المنحرفة إلى أخيه المعتصم، فقام المعتصم بتنفيذ وصية أخيه في بداية ولايته، ثم انشغل عنها بالأحداث الكبرى التي وقعت في الدولة الإسلامية؛ كثورة بابك الخرمي، واعتداء الدولة البيزنطية على حدود الدولة الإسلامية في الشمال، حيث قام المعتصم بالجهاد ضد أعداء الإسلام، وعمل على تثبيت دعائم الحكم، ثم تولى الحكم بعده ابنه: الواثق؛ الذي ورث ملكاً ثابتاً واستقراراً عن أبيه؛ جعله يتفرّغ لكلام المعتزلة بوجوب حمل الناس على القول بخلق القرآن.

قال عبيد الله بن عمر القواريري: «أقامت البدعة أيام المأمون كلها، ثم أيام أبي إسحاق المعتصم، ثم أيام الواثق، قال: وكان الواثق عجرفياً، قال: فكبر عليها الصغير، وشاب عليها الكبير»[١].

وقال ابن كثير: «وكان الواثق من أشد الناس في القول بخلق القرآن، يدعو إليه ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، اعتماداً على ما كان عليه أبوه قبله وعمه المأمون، من غير دليل ولا برهان ولا حجة ولا بيان ولا سنّة ولا قرآن»[٢].

---

(١) «المحن»، لأبي العرب التميمي، (ص: ٢٧٠).

(٢) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٠/ ٣٣٤).

بل لقد بلغ الأمر بالواثق مبلغاً فادحاً، حيث اتخذ إجراءات عدة في سبيل نشر العقيدة المنحرفة للمعتزلة، ومن هذه الإجراءات ما يلي:

١- عيّن كل قضاة الدولة من المعتزلة، وأبعد أي قاض يقول بأن القرآن كلام الله.

٢- ألزم المدرّسين والمعلّمين في الكتاتيب بتلقين الطلبة والأطفال عقيدة المعتزلة.

٣- اختبار الولاة وموظفي الدولة من محتسبين وأئمة ومؤذنين للتأكد من قولهم بخلق القرآن.

٤- قطع أرزاق كل العلماء الرافضين للقول بخلق القرآن، ومنعهم من التدريس والتحديث؛ حتى إنه ضيّق على الإمام أحمد بن حنبل، ومنعه من الالتقاء بالناس، وهو ما يشبه في الوقت الراهن بالإقامة الجبرية.

٥- اختبار أسرى المسلمين لدى الروم، فمن قال منهم بخلق القرآن فك أسره، ودفع ديته، ومن رفض تركه أسيراً لدى الروم[1].

فلما بلغ الواثق إلى هذا الحد انبرى أحمد بن نصر للصدع بالحق؛ معلناً رفضه لإجراءات الواثق، فما كان من أهل بغداد إلا أن اجتمعوا عليه، فبايعوه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكان من رؤساء أصحاب أحمد بن نصر رجلان: «أبو هارون السراج» في الجانب الشرقي من بغداد، و«طالب» في الجانب الغربي منها، وكانا من أنشط وأخلص أتباع أحمد بن نصر، فاجتهدا في الدعوة إلى بيعته، والانتظام

(١) ينظر: «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٠/ ٣٣٦- ٣٣٧).

في جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ حيث انتظم مع مرور الوقت عدة آلاف من أهل الحديث وأهل بغداد في بيعة «أحمد بن نصر» الخاصة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتصدي لفتنة القول بخلق القرآن، وكان رؤوس أصحاب «أحمد بن نصر» يجتمعون عنده بانتظام مما لفت الانتباه لدى شرطة بغداد التي دسّت على مجلس «أحمد بن نصر» من ينقل لها الأخبار، وكان «أحمد بن نصر» شديداً في الحق، لا يخاف من سلطان ولا طغيان، حيث كان يشتد في انتقاد الواثق، ويصفه بعبارات شديدة.

فتم رفع الأمر إلى رئيس شرطة بغداد آنذاك «إسحاق بن إبراهيم» الذي أسرع بإبلاغ الواثق، فأمر الواثق بالقبض على «أحمد بن نصر» ورؤوس أصحابه، فتم القبض عليهم، ثم كبلوا بالقيود، وأرسلوا إلى الواثق «بسّر من رأى» (أي سامراء)، وذلك في آخر شعبان، حيث أودعوا هناك في سجون مظلمة، حتى إن من ورّى وترخّص اعتذر عن نفسه بأنه وضع في مكان لا يرى فيه شمساً ولا قمراً؛ حتى خشي على بصره[1].

وأما أحمد بن نصر فقد سيق إلى الواثق مكبّلاً بالقيود المزدوجة، حيث كان الواثق قد جمع بعض الأعيان والقضاة في مجلسه، فلما أحضر أحمد ابن نصر أمام الواثق لم يتوجّه إليه بسؤال عن سبب إحضاره، ولا قصة مبايعة الناس له على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ بل أعرض عن ذلك كله، وتوجّه إليه بالسؤال التالي: ما تقول في القرآن؟

فقال أحمد بن نصر: هو كلام الله.

---

(١) ينظر: «تاريخ الرسل والملوك»، لابن جرير الطبري: (٩/ ١٣٩).

قال الواثق: أمخلوق هو؟!

قال: هو كلام الله.

وكان أحمد بن نصر -كما قال ابن كثير: «قد استقل وباع نفسه وحضر وقد تحنّط وتنور[١] وشد على عورته ما يسترها»[٢].

ثم قال له الواثق: فما تقول في ربك، أتراه يوم القيامة؟

فقال أحمد بن نصر: يا أمير المؤمنين[٣] قد جاء القرآن والأخبار بذلك[٤]، قال الله تعالى:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[٥].

وقال رسول الله ﷺ: «**إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لاتضامون في رؤيته**»[٦].

فنحن على الخبر.

زاد الخطيب -البغدادي- قال الواثق: ويحك! أيرى كما يرى المحدود المتجسّم؟ ويحويه مكان ويحصره الناظر؟ أنا أكفر برب هذه صفته![٧].

---

(١) أي أزال الشعر الذي دعت الفطرة والشرع إلى إزالته.

(٢) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٠/ ٣٣٥).

(٣) وهذا يدل على أن أحمد بن نصر لا يكفّر الواثق الذي يقول بخلق القرآن، بل وامتحن الناس بذلك.

(٤) بإثبات رؤية الله في الآخرة.

(٥) سورة القيامة، آية: ٢٢، ٢٣.

(٦) رواه البخاري ومسلم.

(٧) علق ابن كثير على كلام الواثق هذا بقوله: «وما قاله الواثق لا يجوز ولا يلزم ولا يرد به هذا الخبر الصحيح»، «البداية والنهاية»: (١٠/ ٣٣٥).

وأضاف أحمد بن نصر مخاطباً الواثق: وحدّثني سفيان بحديث يرفعه: «**إن قلب ابن آدم بأصبعين من أصابع الله يقلّبه كيف شاء**»(١).

وكان النبي ﷺ يقول: «**يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك**»(٢).

حينها دخل في الحوار إسحاق بن إبراهيم -قائد شرطة بغداد- قائلاً لأحمد بن نصر: ويحك! انظر ما تقول؟

فرد عليه أحمد بن نصر قائلاً: أنت أمرتني بذلك.

فأشفق إسحاق من ذلك، وقال: أنا أمرتك؟!

فرد عليه أحمد بن نصر قائلاً: نعم، أنت أمرتني أن أنصح له (أي للواثق).

فقال الواثق لمن حوله: ما تقولون في هذا الرجل؟ أي في أحمد بن نصر.

فأكثروا القول فيه، وكان مما قالوا فيه؛ ما قاله عبد الرحمن بن إسحاق -وكان قاضياً على الجانب الغربي من بغداد فعزل، وكان موادّاً لأحمد بن نصر قبل ذلك-: يا أمير المؤمنين هو حلال الدم!

وقال أبو عبد الله الأرمني صاحب أحمد بن أبي دؤاد: اسقني دمه يا أمير المؤمنين!

فأعجب الواثق بقول أبي عبد الله الأرمني حيث قال له: «**لا بد أن يأتي ما تريد!**».

---

(١) رواه الترمذي في سننه: (٤/ ٤٤٩)، وأحمد في مسنده: (١٩/ ١٦٠)، وصححه الألباني.

(٢) رواه الترمذي في سننه: (٤/ ٤٤٨)، وأحمد في مسنده: (١٩/ ١٦٠)، وصححه الألباني.

وأما ابن أبي دؤاد فقال عن أحمد بن نصر: «هو كافر يستتاب لعلّ به عاهة، أو نقص عقل»!

فما كان من الواثق إلا أن قال للحاضرين: إذا رأيتموني قمت إليه فلا يقومنّ أحد معي؛ فإني أحتسب خطاي!

ثم نهض الواثق إلى أحمد بن نصر بالصمصامة -وكانت سيفا لعمرو بن معد يكرب الزبيدي أهديت لموسى الهادي في أيام خلافته وكانت صفيحة مسحورة في أسفلها مسمورة بمسامير- فلما انتهى إليه ضربه بها على عاتقه وهو مربوط بحبل قد أوقف على نطع[١]، ثم ضربه أخرى على رأسه، ثم طعنه بالصمصامة في بطنه، فسقط صريعاً - رحمه الله - على النطع ميتاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون[٢].

ولم يكتف هؤلاء الظلمة العتاة بقتل أحمد بن نصر، بل قاموا بحز رأسه وفصله عن جسده، ثم حملوا جسده معترضاً إلى حضيرة بابك الخرمي، ثم صلبوه هناك، وفي رجليه زوج قيود (مضاعفة)، وعليه سراويل وقميص، حيث بقي مصلوبا ست سنوات؛ من سنة إحدى وثلاثين ومائتين إلى سنة سبع وثلاثين ومائتين.

وأما رأس أحمد بن نصر فحملوه إلى بغداد ثم نصبوه في الجانب الشرقي من المدينة أياماً، وفي الجانب الغربي أياماً، ووضعوا عنده الحرس ليلاً ونهاراً، وعلّقوا في أذنه رقعة[٣] كتبوا عليها:

---

(١) النطع الجلد، ثم وضعه عليه حتى لا يلوّث المكان بالدم!

(٢) ينظر: «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٠/ ٣٣٥ - ٣٣٦).

(٣) ولك أن تتخيّل إماماً من أئمة المسلمين أبيض اللحية والرأس ثم يصنع به هذا الصنيع؟!

«هذا رأس الكافر المشرك الضال أحمد بن نصر الخزاعي، ممن قتل على يدي عبد الله هارون الإمام الواثق بالله أمير المؤمنين، بعد أن أقام عليه الحجة في خلق القرآن، ونفي التشبيه، وعرض عليه التوبة، ومكّنه من الرجوع إلى الحق، فأبى إلا المعاندة والتصريح، فالحمد لله الذي عجّله إلى ناره، وأليم عقابه بالكفر، فاستحل بذلك أمير المؤمنين دمه ولعنه»(١).

ومن خلال استعراضنا لمحنة أحمد بن نصر مع الواثق يتضح لنا مدى شجاعة أحمد بن نصر وثباته؛ حيث ضحّى بأغلى ما يملك (نفسه) من أجل نصرة الحق؛ حتى أقدم الواثق على قتله بيده؛ وشاركه في ذلك بعض معاونيه، فباء الواثق وأعوانه بالإثم والخسران، وفاء أحمد بن نصر بأجر الشهادة في سبيل نصرة العقيدة.

وقد أكرم الله أحمد بن نصر بعدة كرامات بلغت من شهرتها حد التواتر بين المؤرخين، كلها تدلّ على حسن خاتمته، وإكرام الله له، وحفظه إياه، ومن أقوالهم في ذلك:

١ - قال جعفر بن محمد الصائغ: «بصرت عيناي وإلا فقئتا، وسمعت أذناي وإلا فصمّتا؛ أحمد بن نصر الخزاعي حين ضربت عنقه، يقول رأسه: «لا إله إلا الله»(٢).

٢- وقال أحمد بن كامل: «حمل أحمد بن نصر بن مالك الخزاعي من بغداد إلى سر من رأى (ساموراء)، ونصب رأسه ببغداد، على رأس

(١) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٠/ ٣٣٦)، و«المنتظم»، لابن الجوزي: (١١/ ١٦٧).
(٢) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٠/ ٣٣٦،)، و«سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (١١/ ١٦٨).

الجسر، وأخبرني أبي أنه رآه، وكان شيخاً أبيض الرأس واللحية، وأخبرني أنه وكّل برأسه من يحفظه بعد أن نصب برأس الجسر، وأن الموكّل به ذكر أنه يراه بالليل يستدير إلى القبلة بوجهه، فيقرأ: «سورة يس»، بلسان طلق، وأنه لما أخبر بذلك طلب، فخاف على نفسه فهرب»[١].

٣- رآه بعضهم في النوم، فقال له: ما فعل بك ربك؟ فقال: «ما كانت إلا غفوة حتى لقيت الله - عز وجل - فضحك إلي»[٢].

٤- وقال محمد بن عبيد -وكان من خيار الناس-: «رأيت أحمد بن نصر في المنام، فقلت: يا أبا عبد الله ما صنع بك ربك جل وعز؟ فقال: غضبت له فأباحني النظر إلى وجهه»[٣].

٥- وقال إبراهيم بن إسماعيل بن خلف: «كان أحمد بن نصر خالي، فلما قتل في المحنة، وصلب رأسه، أخبرت أن الرأس يقرأ القرآن، فمضيت، فبت بقرب من الرأس مشرفاً عليه، وكان عنده رجال وفرسان يحفظونه، فلما هدأت العيون، سمعت الرأس يقرأ:

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢﴾[٤]

فاقشعر جلدي، ثم رأيته بعد ذلك في المنام وعليه السندس والاستبرق، وعلى رأسه تاج، فقلت: ما فعل الله - عز وجل - بك يا

(١) «تاريخ بغداد وذيوله»، للخطيب البغدادي: (٥/ ٣٨٦ - ٣٨٧).
(٢) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٠/ ٣٣٦)، و«الوافي بالوفيات»، للصفدي: (٨/ ١٣٨).
(٣) «الرد على من يقول القرآن مخلوق»، لأحمد بن سلمان النجاد، (ص: ٦٨).
(٤) سورة العنكبوت، آية: ١، ٢.

خالي؟ قال: غفر لي، وأدخلني الجنة؛ إلا أني كنت مغموماً ثلاثة أيام؟ قلت: ولم؟ قال: رأيت رسول الله ﷺ مر بي، فلما بلغ خشبتي حوّل وجهه عنّي، فقلت له بعد ذلك: يا رسول الله قتلت على الحق أو على الباطل؟ فقال: أنت على الحق، ولكن قتلك رجل من أهل بيتي، فإذا بلغت إليك، أستحيى منك»[١].

وأما الواثق وأعوانه الذين أفتوا بقتل أحمد بن نصر، وحرّضوا على سفك دمه؛ وشجّعوا الواثق على ارتكاب هذه الجريمة الشنيعة، وشاركوه فيها فقد نزلت بهم عقوبة الله في الدنيا قبل الآخرة أثناء فترة ولاية حكم المتوكّل.

ومما يدل على ذلك ما ذكره علماء التراجم[٢]: أن عبد العزيز الكناني دخل على الخليفة العباسي المتوكل -وكان حسن العقيدة - فجرى ذكر «أحمد بن نصر» في ثنايا كلامه مع المتوكل، فكان مما قاله للمتوكل: يا أمير المؤمنين ما رأيت أعجب من أمر الواثق، قتل أحمد بن نصر وكان لسانه يقرأ القرآن إلى أن دفن؟

فوجل المتوكل من كلامه وساءه ما سمع في أخيه «الواثق».

فلما دخل عليه الوزير محمد بن عبد الملك بن الزيات، قال له المتوكل: «في قلبي شيء من قتل أحمد بن نصر!» فقال: «يا أمير المؤمنين أحرقني الله بالنار إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافراً؟».

---

(١) ينظر: «المنتظم»، لابن الجوزي: (١١/ ١٦٩).

(٢) «المنتظم»، لابن الجوزي: (١١/ ١٦٨)، وينظر: «تهذيب الكمال»، للمزي: (١/ ٥١١).

ودخل عليه هرثمة بن أشرس (من رؤوس المعتزلة) فقال له في ذلك، فقال: «قطعني الله إرباً إرباً إن قتله إلا كافراً!».

ودخل عليه قاضي المحنة أحمد بن أبي دؤاد، فقال له مثل ذلك، فقال: «ضربني الله بالفالج إن قتله الواثق إلا كافراً!».

فأنزل الله بهؤلاء جميعا عقوبته في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأنكى، أما ابن الزيات فقد كانت نهايته؛ كما ذكر ابن الأثير أنه: «لما ولي الخلافة المتوكل أمهل حتى كان صفر، فأمر إيتاخ بأخذ ابن الزيات وتعذيبه، فاستحضر، فركب يظن أن الخليفة يستدعيه، فلما حاذى منزل إيتاخ عدل به إليه، فخاف، فأدخله حجرة، ووكل عليه، وأرسل إلى منازله من أصحابه من هجم عليها، وأخذ كل ما فيها، واستصفى أمواله وأملاكه في جميع البلاد.

وكان شديد الجزع، كثير البكاء والفكر، ثم سوهر، (وكان ينخس بمسلة لئلا ينام، ثم ترك فنام يوماً وليلة)، ثم جعل في تنور عمله هو، وعذّب به ابن أسباط المصري، وأخذ ماله، فكان من خشب فيه مسامير من حديد أطرافها إلى داخل التنور، وتمنع من يكون فيه من الحركة، وكان ضيقاً بحيث إن الإنسان كان يمد يديه إلى فوق رأسه؛ ليقدر على دخوله لضيقه، ولا يقدر من يكون فيه يجلس، فبقي أياما، فمات.

(وكان حبسه لسبع خلون من صفر)، وموته إحدى عشرة بقيت من ربيع الأول، واختلف في سبب موته، فقيل كما ذكرناه، وقيل: بل ضرب فمات وهو يضرب، وقيل: مات بغير ضرب، وهو أصح.

فلما مات حضره ابناه سليمان، وعبيد الله، وكانا محبوسين، وطرح على الباب في قميصه الذي حبس فيه، فقالا: الحمد لله الذي أراح من هذا الفاسق! وغسّلاه على الباب، ودفناه، فقيل: إن الكلاب نبشته، وأكلت لحمه»[١].

وأما هرثمة فإنه هرب خوفاً من أن يكون مصيره كمصير ابن الزيات، فلما اجتاز بقبيلة خزاعة عرفه رجل من الحي، فقال: «يا معشر خزاعة هذا الذي قتل ابن عمكم أحمد بن نصر فقطعوه، فقطعوه إرباً إرباً، ثم أخرجوا جثته وألقوها في الخرابة، فنهشتها الكلاب»[٢].

وأما ابن أبي دؤاد (قاضي المحنة) فسجنه الله في جلده (أصابه الله بالفالج) ضربه الله قبل موته بأربع سنين، وصودر من صلب ماله بمال جزيل جداً[٣].

أما الواثق نفسه فقد مات في عنفوان شبابه بلا علّة ظاهرة، فما كان من أهله إلا أن تركوا جثته بلا تجهيز، وانشغلوا بأمور البيعة لأخيه المتوكل، فدخل جرذ كبير فنهش لحم خده، واستل عينه، ومضى بها، فلما دخلوا عليه لتجهيزه وجدوه بهذه الصورة المشوّهة![٤].

---

(١) «الكامل في التاريخ»، لابن الأثير: (٦/ ١١٣).

(٢) «المنتظم»، لابن الجوزي: (١١/ ١٦٩).

(٣) «المنتظم»، لابن الجوزي: (١١/ ١٦٩)، و«البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٠/ ٣٣٧).

(٤) ينظر: «الكامل في التاريخ»، لابن الأثير: (٦/ ١٠٧).

وفاته:

سبق أن ذكرت أن أحمد بن نصر قتله الواثق بيده وشاركه في ذلك بعض معاونيه.

وكان ذلك بمدينة «سامراء» سنة إحدى وثلاثين ومائتين باتفاق العلماء الذين ترجموا له.

ولكنهم اختلفوا في تحديد اليوم والشهر الذي قتل فيه، فقيل: يوم الخميس ليومين بقين من شهر شعبان. وقيل: في غرة رمضان[١]

وسبق أن ذكرت: أنه بعد قتل أحمد بن نصر حزوا رأسه، ثم حملوه من سامراء إلى بغداد حيث نصبوه هناك، وأما جثته فبقيت بسامراء حيث صلب على جسر فيها، حيث بقي مصلوباً ست سنين؛ من سنة إحدى وثلاثين ومائتين إلى سنة سبع وثلاثين ومائتين.

ثم جمع رأسه مع جثته بأمر من المتوكل يوم الثلاثاء بعد عيد الفطر بيوم أو يومين، أو ثلاث، ثم دفن بالجانب الشرقي من بغداد بالمقبرة المعروفة بالمالكية.

وقد حضر جنازته معظم أهل بغداد؛ حيث كانت جنازة مهيبة لكثرة من شيّعها من الخلق[٢].

---

(١) لعل الراجح في ذلك: أنه قتل يوم الخميس ليومين بقين من شهر شعبان، وأن نصب رأسه وصلبه في غرة رمضان، والله أعلم.

(٢) ينظر: «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (١١/ ١٦٨ - ١٦٩).

(٥) القاضي عياض

اسمه ونسبه:

أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى بن عياض بن محمّد ابن عبد الله بن موسى بن عياض، اليحصبي، السبتي، عالم المغرب، وأحد أبرز علماء المالكية.

وقد عرف واشتهر بـ«القاضي عياض»[١]، فلا يكاد يذكر بدون «القاضي».

وأما نسب القاضي عياض فيعود إلى «يحصب بن مالك» وهي قبيلة حميرية[٢] معروفة.

مولده ونشأته:

ولد القاضي عياض سنة ست وسبعين وأربعمائة؛ كما نص على ذلك أغلب علماء السير والتراجم الذين ترجموا له[٣] وعلى وجه التحديد بمنتصف شهر شعبان[٤].

وأما نشأة القاضي عياض فقد ولد ونشأ في مدينة سبتة المغربية، وشبّ فيها وترعرع.

وسبتة مدينة عريقة تقع «على زقاق بحر الأندلس، وهي أحد المعابر

(١) ينظر: «وفيات الأعيان»، لابن خلكان: (٣/ ٤٨٣).
(٢) ينظر: «جمهرة أنساب العرب»، لابن حزم، (ص: ٤٣٥).
(٣) ينظر: «أزهار الرياض»، للمقري: (٣/ ١٧).
(٤) ينظر: «النجوم الزاهرة»، لابن تغري بردي: (٥/ ٢٨٥).

المشهورة»[(١)] حيث كان الوافدون على الأندلس والعائدون منها يلتقون في سبتة، ويتبادلون الآراء والأفكار.

وأيضاً نشأ القاضي عياض في أسرة صالحة مصلحة، محبّة للخير، حيث كان «عمرون» والد جد القاضي عياض رجلاً خيّراً صالحاً من أهل القرآن، حجّ إحدى عشرة حجة، وغزا مع ابن أبي عامر غزوات كثيرة... وكان موسراً، فاشترى أرضاً بسبته، وهي المعروفة بالمنارة، فبنى في بعضها مسجداً، وفي بعضها داراً حبسها على المسجد، وهو حتى الآن منسوب إليه، وحبس الأرض للدفن، ولم يزل منقطعاً في ذلك المسجد إلى أن مات - رحمه الله - سنة سبع وتسعين وثلاثمائة[(٢)].

وقد كفانا عنت البحث عن نشأة القاضي أقرب الناس إليه، وأكثرهم معرفة بحاله، وهو ابن القاضي عياض، حيث يقول:

«نشأ أبي رحمه الله على عفّة وصيانة، مرضي الحال، محمود الأقوال والأفعال، موصوفاً بالنبل والفهم والحذق، طالباً للعلم، حريصاً عليه، مجتهداً فيه، معظماً عند الأشياخ من أهل العلم، كثير المجالسة لهم، والاختلاف إليهم إلى أن برع أهل زمانه، وساد جملة أقرانه، فكان من حفّاظ كتاب الله تعالى مع القراءة الحسنة والنغمة العذبة، والصوت الجهير، والحظ الوافر من تفسيره، وجميع علومه، وكان من أئمة الحديث في وقته، أصولياً متكلماً فقيهاً، حافظاً للمسائل، عاقداً للشروط، بصيراً بالأحكام، نحوياً

(١) ينظر: «أحسن التقاسيم»، لمحمد البشاري، (ص: ٢٢٩).

(٢) ينظر: «أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض»، للمقري: (١/ ٢٨).

ريان من الأدب، شاعراً مجيداً كاتباً خطيباً حافظاً للغة والأخبار والتواريخ، حسن المجلس، نبيل النادرة، حلو الدعابة، صبوراً حليماً، جميل العشرة، جواداً سمحاً، كثير الصداقة، دؤوباً على العمل، صلباً في الحق، وبلغ في التفنن في العلوم ما هو مشهور، وفي العالم معلوم»[(١)].

وأيضاً يحدثنا عن نشأة القاضي عياض المقري التلمساني حيث يقول: «جاء على القدر، وسبق إلى نيل المعالي وابتدر، فاستيقظ لها والناس نيام، وورد ماءها وهم حيام»[(٢)].

وقد ساعد القاضي على التميز والتفوق والنبوغ (إضافة إلى بلدته وأسرته) ما منحه الله من الذكاء المفرط، والذهن الوقّاد، حيث كان كما يقول المقري: «حاضر الجواب، حاد الذهن، متوقّد الذكاء، جامعاً للفنون، آخذاً منها بالحظ الأوفر»[(٣)].

ثناء العلماء عليه:

يعد القاضي عياض أحد كبار مشاهير علماء الأمة الذين استفاضت المعرفة بعلمهم وفضلهم، واشتهار ذكرهم، وسمو مكانتهم، حتى بلغت شهرته آفاق بلاد المغرب والمشرق، وعمّ الثناء عليه من كافة العلماء الذين عاصروه، والذين جاؤوا بعده، وأقوالهم في الثناء عليه كثيرة، منها ما يلي:

---

(١) «أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض»، للمقري: (٣/ ٧- ٨).
(٢) «أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض»، للمقري: (٣/ ١٨).
(٣) «أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض»، للمقري: (٣/ ٢١).

قال الذهبي: «الإمام، العلاّمة، الحافظ، الأوحد، شيخ الإسلام»[١].

وقال السيوطي: «العلاّمة عالم المغرب... الحافظ... صنف التصانيف التي سارت بها الركبان... إمام أهل الحديث في وقته، وأعلم الناس بعلومه وبالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم»[٢].

وقال ابن العماد: «كان عديم النظير، حسنة من حسنات الأيام، شديد التعصب للسّنّة والتمسك بها»[٣].

وقال النووي: «إمام بارع، متفنن، متمكّن في علم الحديث والأصولين، والفقه، والعربية، وله مصنفات فى كل نوع من العلوم المهمة، وكان من أصحاب الأفهام الثاقبة»[٤].

وقال ابن خلكان: «كان إمام وقته في الحديث وعلومه، والنحو واللغة، وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم، وصنّف التصانيف المفيدة»[٥].

وقال القنوجي: «كان إمام وقته في الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم له التصانيف المفيدة... وجمع من الحديث كثيراً وكان له عناية كثيرة به والاهتمام بجمعه وتقييده وهو من أهل اليقين في العلم والذكاء والفطنة والفهم»[٦].

---

(١) «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (٢٠/ ٢١٢).

(٢) «طبقات الحفّاظ»، للسيوطي، (ص: ٤٧٠).

(٣) «شذرات الذهب»، لابن العماد الحنبلي: (٦/ ٢٢٧).

(٤) «تهذيب الأسماء واللغات»، للنووي: (٢/ ٤٣).

(٥) «وفيات الأعيان»، لابن خلكان: (٣/ ٤٨٣).

(٦) «أبجد العلوم»، للقنوجي، (ص: ٦٥٢ - ٦٥٢).

وقال الحجوي: «كان مقدم وقته في الحديث والتفسير والأدب والشعر والأصول والفقه والعلوم العربية، مشاركاً له الرحلة من الأقطار، وله الرئاسة في بلده فتيا وقضاء، خطيباً بليغاً شاعراً مجيداً، كامل الأخلاق، حليماً كريماً، صلباً في الحق»(١).

قال المقري في مقدمة كتابه: «أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض»: «وماذا عسى أن أصف من جلالة يتهلل بشرها، وجزالة يتضوع نشرها؛ وبلاغة تبذ بلاغة سحبان، وبراعة تقاعس عن رتبتها الشيب والشبان، وعلم أظهر غوامض الحقائق وأبان، وحلم أرسخ من رضوى وأبان. ومحاسن ماؤها غير آسن، وحلى حازت مراتب العلى، ومصنفات مقرطات مشنفات، أعلاق لا تعدلها الأثمان، ولا تشد على مثلها الأيمان»(٢).

وقال المقري أيضاً: «كان - رحمه الله - علم الكمال، ورجل الحقيقة، وقاراً لا يخفي رأسه، ولا يعرى كاسيه، وسكوناً لا يطرق جانبه، ولا يرهب غالبه، وحلماً لا يزل حصاته، ولا تعمل وصاته، وإقباضاً لا يتعدّى رسمه، ولا يتجاوز حكمه، ونزاهة لا ترخص قيمتها، ولا تلين عزيمتها، وديانة لا تحسر أذيالها، ولا يشف سرباً لها، وإدراكًا لا يفل نصله، ولا يدرك خصله، وذهناً لا يخبأ نوره، ولا ينبو مطروره، وفهماً لا يخفى فلقه، ولا يلحق طلقه، وصدقاً لا يخلف موعده، ولا يأسن مورده،

(١) «الفكر السامي»، للحجوي: (٢/ ٢٦٠).
(٢) «أزهار الرياض»، للمقري: (١/ ١٢).

وحفظاً لا يسبر غوره، ولا يذبل نوره، بل لا يتوق بحره ولا يعطل نحره، وتحصيلا لا يفك قنيصه ولا يسأم حريصه، بل لا يحل عقاله، ولا يصدأ صقاله، وطلباً لا تنحد فنونه، ولا تتعين عيونه، بل لا تحصر معارفه، ولا تقصر مصارفه»[١].

وقال الفتح بن خاقان: «جاء على قدر وسبق إلى نيل المعالي وابتدار، واستيقظ لها والناس نيام، وورد ماؤها وهم حيام، وتلا من المعارف ما أشكل، وأقدم على ما أحجم عنه سواه ونكل فتحلت به العلوم نحور، وتجلت له منها حور:

﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ۝٥٨﴾.[٢]

﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ۝٥٦﴾.[٣]

قد ألحفته الأصالة رداءها، وسقته أنداءها، وألقت إليه الرئاسة أقاليدها، وملكته طريفها وتليدها، فبذ على فتائه الكهول سكوناً وحلماً، وسبقهم معرفة وعلماً، وأزرت محاسنه بالبدر اللياح، وسرت فضائله سري الريا، فتشوفت لعلاه الأقطار، ووكفت تحكي نداه المطار، وهو على اعتنائه بعلوم الشريعة، واختصاصه بهذه الرتبة الرفيعة»[٤].

وقال ابن خاتمة: «كان لا يبلغ شأوه، ولا يدرك مداه، في العناية

---

(١) «أزهار الرياض»، للمقري: (٣/ ٦ - ٧).

(٢) سورة الرحمن، آية: ٥٨.

(٣) سورة الرحمن، آية: ٥٦.

(٤) «قلائد العقيان»، للفتح بن خاقان، (ص: ٢٢١).

بصناعة الحديث، وتقييد الآثار، وخدمة العلم، مع حسن التفنن فيه، والتصرف الكامل في فهم معانيه، إلى اضطلاعه بالآداب، وتحققه بالنظم والنثر، ومهارته في الفقه، ومشاركته في اللغة العربية. وبالجملة فكان جمال العصر، مفخر الأفق، وينبوع المعرفة، ومعدن الإفادة، وإذا عدت رجالات المغرب، فضلاً عن الأندلس، حسب فيهم صدراً»[١].

وقال محمد بن حماده السبتي: «كان هيناً من غير ضعف، صلباً في الحق، حاز من الرئاسة في بلده، ومن الرفعة ما لم يصل إليه أحد قط من أهل بلده، وما زاده ذلك إلا تواضعاً وخشية لله»[٢].

وقال ابن فرحون: «كان القاضي أبو الفضل إمام وقته في الحديث وعلومه، عالماً بالتفسير وجميع علومه، فقيهاً أصوليا، عالماً بالنحو واللغة، وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم، بصيراً بالأحكام، عاقداً للشروط، بصيراً حافظاً لمذهب مالك رحمه الله تعالى، شاعراً مجيداً، ريّانا من علم الأدب، خطيباً بليغاً صبوراً حليماً، جميل العشرة، جواداً سمحاً كثير الصدقة، دؤوباً على العمل صلباً في الحق»[٣].

وقال ابن بشكوال: «جمع من الحديث كثيراً، له عناية كثيرة به، واهتمام بجمعه وتقييده، وهو من أهل اليقين في العلم والذكاء واليقظة والفهم، واستقضى ببلده مدة طويلة، حمدت سيرته فيها»[٤].

---

(١) «أزهار الرياض»، للمقري: (٣/ ٢٠ - ٢١).

(٢) «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (٢٠/ ٢١٥).

(٣) «الديباج المذهب»، لابن فرحون، (ص: ١٦٨ - ١٦٩).

(٤) ينظر: «الصلة»، لابن بشكوال، (ص: ٤٢٩ - ٤٣٠).

وقال عمر رضا كحالة: «محدّث، حافظ، مؤرّخ، ناقد، مفسّر، فقيه، أصولي، عالم بالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم، شاعر، خطيب»[١].

وقال محمد عنان: «وكان القاضي عياض من أكابر الحفّاظ، ومن أعظم أئمة عصره في الحديث، وفي فهم غريبه ومشكله ومختلفه، بارعاً في علم الأصول والكلام، حافظاً للمختصر والمدونة، متمكنًا من الشروط والأحكام، أبرع أهل زمانه في الفتيا، متقناً للنحو واللغة، أديباً كبيراً، وشاعراً مجيداً، حسن التصرّف في النظم، كاتباً بليغاً، وخطيباً مفوهاً، عالماً بالسير والأخبار، ولا سيما أخبار العرب وأيامها وحروبها، وكان حسن المجلس، ممتع المحاضرة، فصيح اللسان، حلو المداعبة، بسّاماً مشرقاً، جم التواضع، يمقت الإطراء والملق، معتزاً بنفسه ومكانته، محباً لأهل العلم، معاوناً لهم على طلبه، جواداً، سمحاً، من أكرم أهل زمانه، كثير الصدقة والمواساة»[٢].

وقال أمير دولة المرابطين علي بن تاشفين فيما كتبه إلى قاضي الجماعة بقرطبة في شأن القاضي عياض عندما عزم للرحلة بالأندلس: «... وعياض أعزّه الله بتقواه، وأعانه على ما نواه، ممن له في العلم حظّ وافر، وزوجه سافر، وعنده دواوين إغفال، ولم تفتح لها على الشيوخ إقفال، وقصد تلك الحضرة ليقيم أود متونها، ويعاني رمد عيونها، وله إلينا ماتة مرعية

(١) «معجم المؤلفين»، لعمر رضا كحالة: (٨/ ١٦).

(٢) «دولة الإسلام»، لمحمد عنان: (٣/ ٤٦٢ - ٤٦٣).

أوجبت الإشادة بذكره، والاعتناء بأمره، وله عندنا مكانة حفية تقضي مخاطبتك بخبره، وإنهاضك إلى قضاء وطره، وأنت إن شاء الله تسدد عمله، وتقرب أمله، وتصل أسباب العون له، إن شاء الله»[١].

وكتب وزير الدولة المرابطية بشأن هذه الرحلة مشيداً بفضل القاضي عياض قائلاً: «... وله الفصل مذاهب يبهرج عندها الذهب، وعنده من النبل ضرائب لا يفارق زندها اللهب، وستقربه، فتستغربه، وتخبره، فتكبره، إن شاء الله»[٢].

وقال عبد الرحمن بن أحمد الغرناطي المعروف بابن القصير: «لمّا ورد علينا القاضي عياض غرناطة خرج الناس للقائه، وبرزوا تبريزاً، ما رأيت لأمير مثله، وحزرت أعيان البلد الذين خرجوا إليه ركاباً نيفاً على مائتي راكب، ومن سواد العامة ما لا يحصى كثرة... ولمّا استقر عندنا كان مثل التمرة كلما ليكت زاد حلاوة، ولفظه عذب في كل ما صرف من الكلام، للنفس إليه تتوق وله طلاوة، وكان برا بلسانه، جوادا ببنانه، كثير التخشع في صلاته، مواصلا لصلاته... وكان مع براعته في علوم الشريعة خطيبا في تحبير الخطب، وفي لفظه ظاهر الخشوع عند التلاوة، وفي لحظه سريع العبرة، مديماً للتفكير والعبرة، كاتباً إذا نثر، ناظماً إذا شعر»[٣].

وغير ذلك من أقوال العلماء في الثناء عليه.

(١) «قلائد العقيان»، للفتح بن خاقان، (ص: ١١١).
(٢) «قلائد العقيان»، للفتح بن خاقان، (ص: ١١١).
(٣) «أزهار الرياض»، للمقري: (٣/ ١١ - ١٢).

مؤلفاته:

يعدّ القاضي عياض من أكثر علماء المغرب تأليفاً في عصره إن لم يكن أكثرهم تأليفاً.

وقد ذكر بعض العلماء أن مؤلفاته تزيد على ثلاثين مؤلفاً في شتى الفنون، ومن مؤلفاته نذكر ما يلي[1]:

١- الشفا بتعريف حقوق المصطفى.

٢- الإلماع في ضبط الرواية وتقييد السماع.

٣- مشارق الأنوار على صحاح الآثار.

٤- إكمال المعلم بفوائد مسلم شرح على صحيح الإمام مسلم.

٥- بغية الرائد على ما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد.

٦- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك.

٧- الإعلام بحدود قواعد الإسلام.

٨- جامع التاريخ.

٩- أخبار العلويين، وأخبار سبتة، وأخبار القرطبيين.

١٠- معجم شيوخ ابن سكرة في سفر، وفهرسته المسماة بالغنية.

وغير ذلك من مؤلفاته التي أشاد بنفاستها العلماء قديماً وحديثاً.

---

(١) ينظر: «وفيات الأعيان»، لابن خلكان: (٣/ ٤٨٣).

محنته:

عاصر القاضي عياض منذ نشأته دولتين: دولة المرابطين وحكامها آل تاشفين، ودولة الموحّدين بقيادة: «محمد بن تومرت»، و«عبد المؤمن بن علي».

وقد ذكر علماء التاريخ: أن دولة المرابطين تحقق فيها شروط الولاية الشرعية، واتّصف قادتها بالانقياد للشرع، والعناية بالعلم، وتقديم أهله، فكان موقف القاضي عياض منها ومن حكامها: التأييد والنصرة.

إلا أن هذه الدولة أصابها الضعف والوهن لعدة أسباب ليس المقام مقام ذكرها، حيث قامت على إثرها دولة الموحّدين، بعد حروب طويلة شنها قادة دولة الموحدين ضد المدن المهمة الخاضعة لسيطرة دولة المرابطين؛ كما سيتضح ذلك من خلال حديثنا عن الحملات العسكرية التي قادها أمراء دولة الموحّدين ضد مدينة «سبته» مسقط رأس الإمام القاضي عياض وموطنه الذي نشأ فيه وترعرع.

فما كان من القاضي عياض إلا أن عارض حكام «الموحّدين» بزعامة: «محمد بن تومرت»، و«عبد المؤمن بن علي» لعدة أسباب ذكرها علماء التاريخ، ومنها: أن دولة الموحّدين قامت وسارت على منهج منحرف في العقائد، إضافة إلى انتهاكها للحرمات

قال ابن القيم واصفاً حال مؤسس دولة الموحّدين: «أما مهدي المغاربة «محمد بن تومرت» -مؤسس دولة الموحّدين- فإنه رجل كذّاب ظالم

متغلّب بالباطل، ملك بالظلم والتغلّب والتحيّل فقتل النفوس، وأباح حريم المسلمين، وسبى ذراريهم، وأخذ أموالهم، وكان شراً على الملة من الحجاج بن يوسف بكثير.

وكان يودع بطن الأرض في القبور جماعة من أصحابه أحياء يأمرهم أن يقولوا للناس: إنه المهدي الذي بشّر به النبي ﷺ ثم يردم عليهم ليلاً لئلا يكذّبوه بعد ذلك، وسمّي أصحابه الجهمية الموحّدين، نفاة صفات الرب وكلامه وعلوه على خلقه، واستوائه على عرشه، ورؤية المؤمنين له بالأبصار يوم القيامة، واستباح قتل من خالفهم من أهل العلم والإيمان وتسمّى بالمهدي المعصوم»[١].

وقال الذهبي عن «محمد بن تومرت» أيضاً: «ألّف عقيدة لقبها بـ«المرشدة»، فيها توحيد وخير بانحراف، فحمل عليها أتباعه، وسمّاهم الموحدين، ونبز من خالف «المرشدة» بالتجسيم، وأباح دمه نعوذ بالله من الغي والهوى»[٢].

فلهذا وغيره كان موقف القاضي عياض من دولة الموحدين: رفضها ومقاومتها؛ حيث عمل القاضي عياض على صد الحملات العسكرية التي شنها أمراء دولة الموحدين للسيطرة على المدن الهامة التي كانت تحت سيطرة دولة المرابطين؛ حيث قد دامت هذه الحملات العسكرية سبع سنوات، من سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، إلى إحدى وأربعين وخمسمائة[٣].

---

(١) «المنار المنيف»، لابن القيم، (ص: ١٥٣).

(٢) «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (١٩/ ٥٤٠ - ٥٤١).

(٣) ينظر: «تاريخ ابن خلدون»: (٦/ ٣٠٦).

ولما بدأت الحملات العسكرية الموحدية تسيطر على مختلف مدن المغرب في غزواتهم الطويلة والمتعددة، حتى وصلت تلك الجيوش الزاحفة إلى مشارف مدينة «سبتة» لمحاصرتها في بداية الأمر حتى تذعن وتدخل تحت طاعة الموحدين، فقاومت سبتة الجيوش الموحدية مقاومة ضارية بزعامة القاضي عياض، كما ذكر ذلك ابن خلدون حيث يقول:

«واستمر عبدالمؤمن على حاله، فنازل سبتة فامتنعت عليه، وتولى كبر دفاعه عنها: القاضي أبو الفضل عياض بن موسى الشهير الذكر، وكان رئيسها يومئذ بأبوته ومنصبه وعلمه ودينه»[١].

وبفضل الله تمكن القاضي عياض مع أهل «سبتة» من التغلب على جيوش الموحدين وردّها على أعقابها خاسئة، إلا أن هذه الجيوش عاودت الهجوم على سبتة مرة أخرى، وذلك بعد أن استطاعت جيوش الموحّدين من القضاء على معظم مدن المغرب الإسلامي كـ«فاس» و«تلمسان» وغيرهما، مما أدى إلى ارتفاع شأن أمير جيش الموحّدين «عبد المؤمن بن علي»، حيث عاود بجيشه الهجوم مرة أخرى على «سبتة» (بعد أن استعصت عليهم من قبل) فما كان من أهل سبتة إلا دخلوا تحت إمرة الدولة الموحدية المتغلّبة على الحكم بالقوة[٢].

إلا أن فترة استقرار «سبتة» لـ«عبد المؤمن» لم تدم طويلاً، حيث انتفضت ضده، وكان في مقدمة المنتفضين القاضي عياض؛ كما ذكر ذلك

(١) «تاريخ ابن خلدون»: (٦/ ٣٠٧).

(٢) ينظر: «الكامل في التاريخ»، لابن الأثير: (٨/ ٦٦٤).

البيذق صاحب أخبار المهدي حيث قال: «إن عياضاً كان من أوائل الثائرين على دولة الموحّدين، وأن ثورته هي الثورة الثلاثون في سلسلة الثورات التي قامت ضدها»[١].

وفي هذه الأثناء حاول القاضي عياض مكاتبة يحيى بن علي المسوفي المعروف بـ «ابن غانية» ليقدم بجيشه إلى «سبتة» إلا أنه تباطأ؛ حيث عاود جيش «عبدالمؤمن» الهجوم على «سبتة» مرة ثالثة، فدمرت الممتلكات، وارتكبت جرائم فظيعة بحق أهل «سبتة» فما كان من أهل «سبتة» إلا أن خضعوا مرة أخرى لحكم الموحدين[٢]، حفاظاً على ما تبقّى من أرواحهم وممتلكاتهم.

ولما تمكنت جيوش الموحّدين من بسط نفوذهم على «سبتة» أمر «عبدالمؤمن» بهدم سور «سبتة»، ومنع القاضي عياض من العودة إليها، وأمره بملازمته، (ذلك أن القاضي كان قد خرج مع وفد من وجهاء أهل سبته لمفاوضة عبدالمؤمن ليوقف جيشه عن قتال أهل سبتة)، وسبب منع القاضي عياض من العودة إلى سبتة؛ حتى لا يقود أهل سبته لثورة جديدة ضد الموحدين، فأقام القاضي عياض مع عبدالمؤمن والحال متغيرة عليه، وتعرّض لكثير من الإيذاء النفسي، فإن الموحدين لم يكونوا لينسوا الضربات الموجعة التي تلقوها على يديه وعلى أيدي أهل سبتة.

---

(١) «أخبار المهدي»، للبيذق، (ص ٦٨).

(٢) ينظر: «الاستقصاء»، للسلاوي: (٣/ ٥٩)، و«دولة الإسلام»، لمحمد عنان: (٣/ ٢٧٣).

وأيضاً قام «عبدالمؤمن» بنفي وتغريب القاضي عياض إلى قرية نائية تقع بالبادية المغربية، وهي قرية: «داي» [١].

وفاته:

أمر أمير الموحدين القاضي عياض بالخروج معه الى غزوة «دكالة» فخرج معهم ومرض في الطريق فعاد إلى مراكش وتوفي بعدها بأسبوع.

وقد توفي القاضي عياض -رحمه الله - سنة أربع وأربعين وخمسمائة، يوم الجمعة في السابع من جماد الآخر، ودفن بباب أيلان داخل مدينة مراكش.

وقد اختلف علماء التراجم في سبب وفاة القاضي عياض على أقوال عدة[٢] أرجحها: أنه قتل بأمر أمير الموحدين مسموماً، أو مخنوقاً، لمعارضته لهذه الدولة، وإنكاره عصمة إمامها.

ويبدو أن الموحدين قد دسّوا له السّم أثناء رحلة دكالة، وذلك سبب مرضه، فأعادوه إلى مراكش حيث توفي بسبب السّم، أو يكون خنق أثناء مرضه ذلك، فقد قال صاحب «المرقبة العليا»: فجرت عليهما - يريد

(١) ينظر: «معجم أصحاب القاضي أبي علي الصدفي»، لابن الآبار، (ص: ٢٩٦).

(٢) وهذه الأقوال هي: أنه مات موتة طبيعية، ولم يذكر أصحاب هذا القول سبباً لوفاته، وقيل: إنه مات فجأة بالحمام يوم دعا عليه الإمام الغزالي لما بلغه أنه أفتى بحرق كتابه: «إحياء علوم الدين»، وقيل غير ذلك، وهذه الأقوال فيما نعلم لا دليل علمي عليها، بل هي ضعيفة، وإنما نقلناها للأمانة العلمية.

عياضاً وابن العربي- وأصابتهما فتن، ومات كل واحد منهما مغرباً عن أوطانه، محمولاً عليه من سلطانه.

وقال بعضهم: سمّ ابن العربي، وخنق اليحصبي[(١) (٢)].

رحم الله القاضي عياض فقد ترجم علمه إلى واقع عملي، حيث قضى حياته في العلم والعمل به، والدعوة إليه، والصبر على الأذى فيه، ونصرة الحق، ومقاومة الباطل، بل ضحّى بنفسه لله؛ حيث رحل إلى ربه شهيداً (فيما نحسب).

رفع الله درجته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

---

(١) ينظر: «تاريخ ابن خلدون»: (٦/ ٢٣٠)، و«التعريف بالقاضي عياض»، لمحمد بن القاضي عياض، (ص: ١٣، ٩٨).

(٢) للمزيد عن سيرة القاضي عياض ينظر: «وفيات الأعيان»، لابن خلكان: (٣/ ٤٨٣)، و«النجوم الزاهرة»، لابن تغري بردي: (٥/ ٢٨٥)، و«معجم أصحاب القاضي الصدفي»، لابن الآبار، ص: ٢٩٤، و«سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (٢٠/ ٢١٢ - ٢١٣)، و«البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٢/ ٢٨٠).

(٦) أبو بكر الرّملي
(المعروف بابن النابلسي)

اسمه ونسبه:

أبو بكر محمد بن أحمد بن سهل بن نصر الرّملي (المعروف بابن النابلسي)[١].

الإمام، الأمير، القدوة، الشهيد[٢].

وأما نسب أبي بكر الرّملي (المعروف بابن النابلسي)، فيعود نسبه إلى بلدة من بلاد فلسطين، يقال لها: «نابلس»[٣].

مولده ونشأته:

لم يذكر علماء التاريخ والسير التراجم الذين تعرّضوا لقصة استشهاد أبي بكر الرّملي (المعروف بابن النابلسي) تاريخ ولادته، ولا مكانها.

وأما نشأته، فقد نشأ أبو بكر الرّملي (المعروف بابن النابلسي) في مدينة الرملة[٤] وترعرع، وطلب العلم على يد شيوخها؛ كأبي جعفر محمد بن أحمد بن شيبان الرّملي، وسعيد بن هاشم بن مرثد الطبراني،

---

(١) وقيل اسمه: أبوبكر، محمد بن علي النابلسي، ينظر: «ترتيب المدارك»، للقاضي عياض: (٥/ ٢٨٤).

(٢) ينظر: «تاريخ دمشق»، لابن عساكر: (٥١/ ٤٩)، و«الوافي بالوفيات» للصفدي: (٢/ ٣٣).

(٣) ينظر: «الأنساب»، للسمعاني: (١٣/ ٣)، و«معجم البلدان» لياقوت الحموي: (٥/ ٢٤٨).

(٤) مدينة من مدن الشام.

وعمر بن محمد بن سليمان العطار، وعثمان بن محمد بن علي بن جعفر الذهبي، ومحمد بن الحسن بن قتيبة، وأحمد بن ريحان، وأبي الفضل العباس ابن الوليد القاضي، وأبي عبدالله جعفر بن أحمد بن إدريس القزويني، وإسماعيل بن محمد بن محفوظ، وأبي سعيد بن الأعرابي، وأبي منصور محمد بن سعد[١].

حتى صار يقصده طلبة العلم من أبناء تلك المدينة وخارجها، فقد ذكر ابن عساكر في تاريخه من جملة من سمع منه بالرملة، وروى عنه تمام بن محمد، وعبد الوهاب الميداني، وأبو الحسن الدارقطني، وأبو مسلم محمد ابن عبد الله بن محمد بن عمر الأصبهاني، وأبوالقاسم علي بن عمر بن جعفر الحلبي، وبشرى بن عبد الله مولى فلفل[٢].

ومما يدل أيضاً على أنه نشأ في الرملة، وطلب العلم على يد شويخها، حتى صار قبلة للطلاب العلم؛ ما ذكره علماء التاريخ والسير والتراجم الذين ترجموا له، أو تعرّضوا لقصة استشهاده على يد المدعو المعز في كتبهم؛ حيث ذكر العلماء: أنه كان في «الرملة» أثناء استيلاء قادة وعساكر المدعو بـ«المعز»، ثم خرج منها بعد ذلك إلى «دمشق»، وفيها تم القبض عليه أسيراً من قبل قادة وعساكر المدعو «المعز»، ثم أرسل إلى مصر[٣].

(١) «تاريخ دمشق»، لابن عساكر: (٥١/ ٤٩ - ٥٠).
(٢) «تاريخ دمشق»، لابن عساكر: (٥١/ ٥٠).
(٣) ينظر: «ترتيب المدارك»، للقاضي عياض: (٥/ ٢٨٥).

ثناء العلماء عليه:

مما يحزن فؤاد الباحث في كتب التراجم ندرة الكتابة عن أبي بكر الرّملي (المعروف بابن النابلسي) رغم جلالة قدره، وسمو مكانته، ونبل أخلاقه، وكثرة تضحياته في مناصرة الحق وأهله، ودحض الباطل وبيان أهله، كما سيأتي ذلك أثناء الحديث عن محنته.

ومع ندرة الكتابة عن أبي الرّملي (المعروف بابن النابلسي) إلا أننا نجد بعض العلماء الذين كتبوا عنه، وسطّروا شيئاً يسيراً عن حياته، وتعداد مناقبه وخصاله، ومن أقوالهم في الثناء عليه ما يلي:

قال الذهبي: «كان إماماً في الحديث والفقه، صائم الدهر، كبير الصولة عند العامة والخاصة... وكان نبيلاً رئيس الرملة»[١].

وقال أيضاً: «الإمام، القدوة، الشهيد»[٢].

وقال أيضاً: «الشهيد؛ سلخه صاحب مصر، المعزّ لدين الله، وكان قد قال: لو كان معي عشرة أسهم، لرميت الروم سهماً، ورميت بني عبيد تسعة، فبلغت القائد جوهر، فلما قرّره، اعترف وأغلظ لهم، فقتلوه، وكان عابداً صالحاً زاهداً، قوّالاً بالحق»[٣].

وقال ابن كثير: «الزاهد، العابد، الورع، الناسك، التقي»[٤].

---

(١) «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (١٦/ ١٤٩)، و«تاريخ الإسلام»، للذهبي: (٢٦/ ٢٢٤).
(٢) «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (١٦/ ١٤٨).
(٣) «العبر في خبر من غبر»، للذهبي: (٢/ ١١٦).
(٤) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١١/ ٣٢٢).

وقال هبة الله بن الأكفاني: «العبد، الصالح، الزاهد»[١].

وقال ابن تغري بردي: «الزاهد... بعث (كافور الأخشيدي) إليه بمال فرده، وقال للرسول، قل له: قال الله:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[٢]

والاستعانة به تكفي»[٣].

وقال القاضي عياض: «كبير أهل مدينة الرملة، وفقيه مطاع في بلده، مسموعاً فيه، يتبع الرأي، وكان فقيهاً زاهداً، مالكي المذهب، ذا رئاسة وظهور، وكان شديداً على بني عبيد، حين ملكوا مصر والشام، ذامّاً لهم، منفّراً للعامة عنهم»[٤].

وقال ابن سعدون: «كان شيخاً صالحاً»[٥].

وقال أبو إسحاق الرقيق في تاريخه: «رجل معروف بالعلم»[٦].

وقال الزركلي: «شاعر... له اشتغال في الحديث»[٧].

---

(١) «تاريخ الإسلام»، للذهبي: (٢٦/ ٢٢٢).

(٢) سورة الفاتحة: ١، ٥.

(٣) «النجوم الزاهرة»، لابن تغري بردي: (٤/ ١٠٦).

(٤) «ترتيب المدارك»، للقاضي عياض: (٥/ ٢٨٤).

(٥) «ترتيب المدارك»، للقاضي عياض: (٥/ ٢٨٤).

(٦) «ترتيب المدارك»، للقاضي عياض: (٥/ ٢٨٤).

(٧) «الأعلام»، للزركلي: (٥/ ٣١١.).

مؤلفاته:

حسب اطلاعي على كتب التراجم التي بين أيدينا لم أرَ أحداً من العلماء الذين ترجموا لأبي بكر الرملي(المعروف بابن النابلسي) ذكر له مؤلفات. ويغنيه عن ذلك مواقفه الصادقة في الذبّ عن الحق، والوقوف في وجه الباطل.

محنته:

قبل الحديث عن محنة أبي بكر الرملي (المعروف بابن النابلسي) لا بد من إعطاء لمحة عن تاريخ أمراء الدولة العبيدية.

فقد تأسست الدولة العبيدية في المغرب العربي سنة ٢٩٧ هـ، ثم انتقلت قيادتها إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ، ثم توسّعت حتى شملت الشام، والجزيرة العربية، وسقطت سنة (٥٦٧هـ)[١].

وقد تعاقب على ولاية الدولة العبيدية أربعة عشر حاكماً: ثلاثة بالمغرب (المهدي، والقائم، والمنصور)، وأحد عشر بمصر: (المعز، والعزيز، والحاكم، والظاهر، والمستنصر والمستعلي، والآمر، والحافظ، والظافر، والفائز، والعاضد)[٢].

وقد كانت الدولة العبيدية على المسلمين شراً وبلاء، **قال الذهبي عن عبيد الله مؤسس الدولة العبيدية:** «كان زنديقًا خبيثاً، عدوّاً للإسلام.

---

(١) «تاريخ الخلفاء»، للسيوطي، (ص: ٣٦٨).

(٢) «عيون الروضتين»، لأبي شامة: (٢/ ٢١٥)، و«تاريخ الخلفاء»، للسيوطي، (ص: ٢٥).

قتل من الفقهاء، والمحدّثين، والصّالحين جماعة كبيرة، ونشأت ذرّيته على ذلك، وبقي هذا البلاء على الإسلام من أوّل دولتهم إلى آخرها، وذلك في ذي الحجّة سنة تسع وتسعين ومائتين، إلى سنة سبع وستّين وخمسمائة»[١].

وقال الذهبي أيضاً: «لا يوصف ما قلب هؤلاء العبيدية الدين ظهراً لبطن، واستولوا على المغرب، ثم على مصر والشام، وسبّوا الصحابة»[٢].

وقد انتسب أمراء الدولة العبيدية إلى فاطمة (زوراً وبهتاناً)؛ كما بيّن ذلك علماء التاريخ والتراجم والأنساب[٣].

وأيضاً أجمع (من يعتدّ به من العلماء) على كفر أمراء الدولة العبيدية وزندقتهم[٤]، وهذه بعض أقوالهم في ذلك:

قال أبو يوسف الرعيني: «أجمع العلماء بالقيروان: أن حال بني عبيد حال المرتدين والزنادقة»[٥].

وقال ابن تيمية: «العبيديون كانوا يتظاهرون بالإسلام، ويقولون: إنهم شيعة، فالظاهر عنهم الرفض، لكن كان باطنهم الإلحاد والزندقة، كما قال أبو حامد الغزالي في كتاب: «المستظهري»: ظاهرهم الرفض،

---

(١) «تاريخ الإسلام»، للذهبي: (٣٩/ ٢٧٦).

(٢) «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (١٦/ ١٤٩).

(٣) ينظر: «حسن المحاضرة»، للسيوطي: (٢/ ٢٨٢ - ٢٨٣).

(٤) ينظر: «تاريخ الخلفاء»، للسيوطي، (ص: ٣٦٧).

(٥) «تاريخ الإسلام»، للذهبي: (٢٨/ ٥١٢)، و«سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (١٥/ ١٥١).

وباطنهم الكفر المحض. وهذا الذي قاله أبو حامد فيهم هو متفق عليه بين علماء المسلمين»[١].

وقال ابن تيمية أيضاً: «العبيديون الذين اتفق المسلمون على أنهم خارجون عن الشريعة وأنهم كانوا إسماعيلية كما قال الغزالي: ظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض، واتفقوا على أن قتلهم كان جائزاً، وهم الذين أحدثوا للنصارى هذه الكنائس، وصنّف العلماء في كفرهم وزندقتهم، مثل القدروى والشيخ أبي حامد الإسفرائيني والقاضي أبي يعلى وأبي محمد بن أبي زيد وأبي بكر ابن الطيب الباقلاني. والذين يوجدون في بلاد الإسلام من الإسماعيلية والنصيرية والدرزية هم من أتباعهم، وكان وزيرهم بالقاهرة مرة يهودياً، فقويت اليهودية بسببه، ومرة نصرانياً أرمنياً، وقويت النصارى بسبب ذلك النصراني الأرمني، وبنوا كنائس كثيرة بأرض مصر في دولة أولئك الرافضة المنافقين، وكانوا ينادون بين القصرين من لعن وسب فله دينار وأردب»[٢].

قال ابن تيمية أيضاً: «بقي ولاة أمورها (أي القاهرة) نحو مائتي سنة على غير شريعة الإسلام؛ وكانوا يظهرون أنهم رافضة وهم في الباطن إسماعيلية ونصيرية وقرامطة باطنية، كما قال فيهم الغزالي - رحمه الله تعالى - في كتابه الذي صنّفه في الرد عليهم: ظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض. واتفق طوائف المسلمين... علماؤهم

---

(١) «الرد على المنطقيين»، لابن تيمية، (ص: ٢٨٠).

(٢) «مختصر الفتاوى المصرية»، لابن تيمية، (ص: ٥١٣).

وملوكهم وعامتهم من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة وغيرهم على أنهم كانوا خارجين عن شريعة الإسلام، وأن قتالهم كان جائزاً؛ بل نصّوا على أن نسبهم كان باطلاً، وأن جدهم كان عبيد الله بن ميمون القداح لم يكن من آل بيت رسول الله ﷺ.

وصنّف العلماء في ذلك مصنفات، وشهد بذلك مثل الشيخ أبي الحسن القدوري إمام الحنفية، والشيخ أبي حامد الإسفرائيني إمام الشافعية، ومثل القاضي أبي يعلى إمام الحنبلية، ومثل أبي محمد بن أبي زيد إمام المالكية. وصنف القاضي أبو بكر ابن الطيب فيهم كتاباً في كشف أسرارهم وسماه: «كشف الأسرار وهتك الأستار» في مذهب القرامطة الباطنية. والذين يوجدون في بلاد الإسلام من الإسماعيلية والنصيرية والدرزية وأمثالهم من أتباعهم. وهم الذين أعانوا التتار على قتال المسلمين، وكان وزير «هولاكو» النصير الطوسي من أئمتهم. وهؤلاء أعظم الناس عداوة للمسلمين وملوكهم، ثم الرافضة بعدهم. فالرافضة يوالون من حارب أهل السّنّة والجماعة ويوالون التتار ويوالون النصارى. وقد كان بالساحل بين الرافضة وبين الفرنج مهادنة حتى صارت الرافضة تحمل إلى قبرص خيل المسلمين وسلاحهم وغلمان السلطان وغيرهم من الجند والصبيان. وإذا انتصر المسلمون على التتار أقاموا المآتم والحزن وإذا انتصر التتار على المسلمين أقاموا والسرور، وهم الذين أشاروا على التتار بقتل الخليفة وقتل أهل بغداد»[١].

---

(١) «مجموع الفتاوى»، لابن تيمية: (٢٨/ ٦٣٥ - ٦٣٦).

وقد وقع أمراء الدولة العبيدية في أمور مناقضة للإسلام، ومنها ما يلي:

أولاً: ادعاء الألوهية والربوبية: كما هو حال الحاكم العبيدي؛ قال الذهبي عنه: «الإسماعيلي، الزنديق، المدّعي الربوبية»[١].

وقد حرّضه على ادعاء الربوبية: «حمزة بن علي الزوزني» وهو من دعاة تأليه الحاكم، ومؤسس المذهب الدرزي ببلاد الشام، قال الذهبي عنه: «وقد قتل الدرزي الزنديق؛ لادعائه ربوبية الحاكم... وكان قوم من الجهلة الغوغاء إذا رأوا «الحاكم» يقولون: يا واحد يا أحد، يا محيي يا مميت»[٢].

وقال الذهبي أيضاً: «إن الحاكم قال لداعيه: كم في جريدتك؟ قال: ستة عشر ألفاً يعتقدون أنّك الإله! قال شاعرهم:

فاحكم فأنت الواحد القهار

ما شئت لا ما شاءت الأقدار!

وقد علّق الذهبي على ذلك بقوله: «فلعن الله المادح والممدوح، فليس هذا في القبح إلا كقول فرعون:

﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾»[٣].

وقال بعض شعرائهم في المهديّ برقّادة:

(١) «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (١٥/ ١٧٣).
(٢) «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (١٥/ ١٨٠ - ١٨١).
(٣) سورة النازعات، آية: ٢٤.

حـــــل بـــهـــا آدم ونـــــوح
فـمـا ســوى الـلـه فـهـو ريـح
حـــــلّ بــــرقـــــادة المـســيـــح
حـــلّ بـــهـــا الـــلـــه فـــي عـــلاه

قال الذهبي معلقاً: «وهذا أعظم كفراً من النّصارى؛ لأن النّصارى يزعمون أن الجزء الإلهيّ حلّ بناسوت عيسى فقط، وهؤلاء يعتقدون حلوله في جسد آدم، ونوح، والأنبياء، وجميع الأئمة، هذا اعتقادهم لعنهم الله»[(١)].

ثانياً: ادعاء علم الغيب: قال ابن خلّكان: «كانوا يدّعون علم المغيبات، ولهم في ذلك أخبار مشهورة»[(٢)].

ثالثاً: أمر الناس بالسجود لهم: قال ابن كثير: «كان إذا ذكر الخطيب الحاكم يقوم الناس كلهم إجلالاً له، وكذلك فعلوا بديار مصر مع زيادة السجود له، وكانوا يسجدون عند ذكره، يسجد من هو في الصلاة ومن هو في الأسواق يسجدون لسجودهم، لعنه الله وقبحه»[(٣)].

قال الذهبي: «في سنة ٣٩٦ هـ خطب بالحرمين لصاحب مصر «الحاكم»، وأمر الناس عند ذكره بالقيام، وأن يسجدوا له، فإنا لله وإنا إليه راجعون»[(٤)].

---

(١) «تاريخ الإسلام»، للذهبي: (٣٩/ ٢٧٦ - ٢٧٧).
(٢) «وفيات الأعيان»، لابن خلكان: (٥/ ٣٧٤).
(٣) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١١/ ٣٨٦).
(٤) «دول الإسلام» للذهبي: (١/ ٣٥٠).

رابعاً: مشاركتهم للقرامطة في جرائمهم: قال الذهبي: «ففي أيام المهدي عاثت القرامطة بالبحرين، وأخذوا الحجيج، وقتلوا، وسبوا، واستباحوا حرم الله، وقلعوا الحجر الأسود، وكان عبيد الله يكاتبهم، ويحرّضهم، قاتله الله»(١).

خامساً: سب الصحابة: قال الذهبي: «وفي أيامه (العزيز) أظهر سبّ الصحابة جهاراً»(٢)، وأمر بكتب سبّ الصّحابة على أبواب المساجد والشّوارع، وأمر العمال بالسب في سنة خمس وتسعين وثلاث مائة(٣).

وقال الذهبي: «وكان سبّ الصحابة فاشياً في أيامه (أي: المستنصر)، والسنّة غريبة مكتومة»(٤).

وغير ذلك من الأمور المناقضة للإسلام، ناهيك عن استحلالهم للمحرّمات، وسفكهم للدماء المعصومة، ونشرهم للفساد والانحلال الأخلاقي.

فلذلك وقف علماء الإسلام الذين عاصروا هذه الدولة، وشاهدوا انحرافها، وعايشوا جرائمها ضد هذه الدولة، وانبروا لبيان خطرها على أمة الإسلام، وكان ممن وقف ضدها: كبير علماء الرملة، وأميرها المطاع فيها أنذاك: أبو بكر الرّملي، حيث كان يفتي في المحافل العامة بقتالها،

---

(١) «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (١٥/ ١٤٧).

(٢) «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (١٥/ ١٧٠).

(٣) «تاريخ الإسلام»، للذهبي: (٢٨/ ٢٨٣).

(٤) «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (١٥/ ١٩٦).

ويحفّز العامة والخاصة على ذلك[١]، حتى ذاع عنه واشتهر قوله عنها: «من كان معه عشرة أسهم يجب عليه أن يرميكم بتسعة، وأن يرميكم بعد التسعة بالعاشر أيضاً».

فلما كان موقف أبي بكر الرّملي من أمراء الدولة العبيدية (القادمين من المغرب إلى مصر والشام) بهذه الصلابة والقوة فإنه وبدون شك سينتقم منه قادة هذه الدولة متى ما ظفروا، وهو ما حصل فعلاً على يد الأمير الرابع للدولة العبيدية (المدعو بالمعز)؛ فإنه لما استولى على حكم مصر بعد معارك طاحنة بقيادة قائده جوهر، ثم توسعت دولته حتى شملت مدن الشام؛ كالرملة (مكان إقامة أبي بكر الرّملي (المعروف بابن النابلسي) بعد معارك شرسة مع أهلها كانت نهايتا السيطرة عليها، مما اضطر أبا بكر الرّملي من الخروج منها إلى دمشق، وفيها تم القبض على أبي بكر الرّملي (المعروف بابن النابلسي) في رمضان سنة ثلاث وستين، ثم كبّل ووضع في قفص خشب، وأرسل إلى مصر[٢].

ولما أحضر بين يدي المدعو بالمعز (رابع أمراء الدولة العبيدية) واسمه (معد بن إسماعيل) قال له المعز: بلغني عنك أنك قلت: لو أن معي عشرة

---

(١) «ترتيب المدارك»، للقاضي عياض: (٥/ ٢٨٤).

(٢) ونقل القاضي عياض في [«ترتيب المدارك»، للقاضي عياض»: (٥/ ٢٨٥ - ٢٨٦)، عن ابن سعدون: أن أبا بكر الرملي، الشهير بابن النابلسي: أسر في دمشق معه ابنه، ثم حمل معه إلى مصر، حيث قتل ابنه أمامه، ثم قتل الأب بعده، وذكر القاضي عياض أن أبا بكر الشهير بابن النابلسي دعا على المدعو المعز بأن يفجعه الله بابنه، فقبل الله دعاءه، وأماته في حياة أبيه، وأفجعه به.

أسهم لرميت الروم بتسعة ورميت المصريين بسهم؟ فقال: ما قلت هذا؟ (ظن المعز أنه أصابه الرعب! وأنه قد تراجع)، فرد عليه أبوبكر الرّملي بلهجة الواثق قائلاً: قلت: «من كان معه عشرة أسهم يجب عليه أن يرميكم بتسعة وأن يرميكم بعد التسعة بالعاشر أيضاً»، فأصيب المدعو بالمعز بالدهشة! فسأله عن السبب، قائلاً له: ولم؟ فقال أبو بكر الرّملي: «لأنكم غيّرتم دين الأمة، وقتلتم الصالحين، وأطفأتم نور الإلهية، وادّعيتم ما ليس لكم»[1].

فما كان من المدعو «المعز» إلا أن أمر بقتله قتلة تبكي لهولها الحجارة الصمّاء، والجبال الشمّاء، ورقّت لها حتى قلوب الأعداء، حيث «أمر (المعز) بإشهاره في أول يوم! ثم ضربه في اليوم الثاني بالسياط ضرباً شديداً مبرحاً! ثم أمر في اليوم الثالث بسلخ جلده عن جسده وهو حي (وهذه فعلة رفض القيام بها أهل الإسلام آنذاك)، وإنما أوكل المعز للقيام بها يهودياً، فجعل اليهودي يسلخه، وأبو بكر الرّملي صابر محتسب يذكر الله، ويقرأ القرآن، وكان مما قرأه وهو يسلخ:

﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ ﴾

حتى أن اليهودي لهول هذه الحادثة أخذته رقّة (كما حكى ذلك اليهودي عن نفسه) بقوله: «فأخذتني رقة عليه! فلما بلغت تلقاء قلبه طعنته بالسكين! فمات.

ومع هذا كله لم يشف ذلك غليل المدعو بالمعز، بل أمر بنفخ جلده

(١) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١١/ ٣٢٢).

كما تنفخ الشاة، ثم أمر بحشوه تبنا، ثم صلب جسده في ناحية، وجلده بعد أن حشي في ناحية أخرى[١].

وذكر المقريزي (وهو ممن يرى خلافة أمراء الدولة الفاطمية، ويثني عليهم): أن ابن النابلسي حمل ببرنس على جمل وهو مقيّد، والناس يسبّونه ويشتمونه ويجرّون برجله من فوق الجمل... ثم سيق إلى المنظر ليسلخ... فسلخ، وحشي جلده تبناً، ونصبت جثته وجلده على الخشب عند المنظر[٢].

ومن خلال قصة أبي بكر الرّملي (المعروف بابن النابلسي) مع المدعو «المعز» نستخلص أموراً عدة؛ منها:

أولاً: مدى الوحشية التي وصل إليها أمراء الدولة العبيدية، وعلى رأسهم المدعو المعز ضد المسلمين، قال القاضي عبد الجبار الهمذاني معلقاً على قصة استشهاد أبي بكر الرّملي وسلخه وهي وحي: «وهذه عادة لهم في سلخ المسلمين أحياء»[٣].

قال القاضي عياض أثناء حديثه عن محنة أبي بكر: «حمل (أي أبابكر الرّملي) إلى مصر مع ابنه، في جملة الأسرى الذين قبض عليهم في الهزيمة، وكانوا نحو ثلاثمائة، فشهّروا على الجمال، وأمر بضرب

---

(١) ينظر: «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١١/ ٣٢٢)، و«ترتيب المدارك»، للقاضي عياض: (٥/ ٢٨٥)، و«تاريخ دمشق»، لابن عساكر: (٥١/ ٥٠).

(٢) ينظر: «اتعاظ الحنفاء»، للمقريزي: (١/ ٢١٠ - ٢١١) بتصرف.

(٣) «تثبيت دلائل النبوة»، للقاضي عبد الجبار الهمذاني: (٢/ ٦٠٨).

أعناقهم على النيل، ورمي جثثهم به، إلا النابلسي؛ فإنه أمر أن يسلخ من جلده»[١].

ونقل الذهبي عن أبي الحسن القابسي صاحب «الملخص»: «إن الذين قتلهم عبيد الله وبنوه: أربعة آلاف في دار النحر في العذاب؛ من عالم وعابد»[٢].

ثانياً: مدى الغربة التي وصل إليها أهل السّنّة أثناء فترة حكم أمراء الدولة العبيدية: قال معمر بن أحمد بن زياد الصّوفي: «لو لم يكن من غربة السّنّة إلّا ما كان من أمر أبي بكر النابلسي لمّا ظهر المغربيّ بالشام واستولى عليها، فأظهر الدّعوة إلى نفسه»[٣].

ثالثاً: علاقة أمراء الدولة العبيدية باليهود، حيث نال اليهود مكانة مرموقة أثناء فترة حكم أمراء الدولة العبيدية، وأيضاً استعانتهم باليهود، حتى المدعو بالمعز استعان بيهودي ليقوم بسلخ أبي بكر الرّملي، المعروف بابن النابلسي.

ومن خلال قصة استشهاد أبي بكر الرّملي المعروف بابن النابلسي يتّضح لنا عظمته، وذلك من خلال الأمور التالية:

أولاً: صدعه بكلمة الحق أمام المدعو المعز، حيث قال له مبيناً له

---

(١) «ترتيب المدارك»، للقاضي عياض: (٥/ ٢٨٥).

(٢) «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (١٥/ ١٤٥).

(٣) «تاريخ الإسلام»، للذهبي: (٢٦/ ٢٢٣).

سبب وقوفه ضد أمراء الدولة العبيدية: «لأنكم غيّرتم دين الأمة، وقتلتم الصالحين، وأطفأتم نور الإلهية، وادّعيتم ما ليس لكم»[١].

ثانياً: ثباته وشجاعته ورباطة جأشه: ذلك أن المدعو المعز أمر بإشهاره في اليوم الأول، ثم أمر بضربه بالسياط في اليوم الثاني فثبت، ثم لما أمر بسلخ جلده في اليوم الثالث فرفض المسلمون فعل ذلك، فعرض المعز الأمر على يهودي فقبل، فجعل يسلخ جلده عن لحمه وهو صابر محتسب، ثم سلخه من مفرق رأسه حتى بلغ الوجه، فجعل النابلسي يذكر الله إلى أن بلغ عضده فرق لحاله، وطعنه في قلبه ففاضت روحه، ولم يكتف المعز بذلك، بل إنه أمر بحشو جسده تبناً وصلبه.

ثالثاً: أن محنته شملت جميع صنوف الأذى: ومنها: الملاحقة والمطاردة، والسجن والتكبيل بالقيود، والتشهير، والضرب والتعذيب، ثم سلخه وهو حي، ثم صلبه.

رابعاً: تعلّقه بالله، ورضاه بقدره: قال أبو ذر الهروي: «سمعت الدارقطني يذكره ويبكي، ويقول: كان يقول وهو يسلخ:

﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ۝٥٨﴾[٢].

خامسا: فاضت روحه إلى ربه شهيدا، ودعوات المؤمنين تصله إلى قبره؛ حتى أنه أطلق عليه لقب: «الشهيد»، وصار ينسب إليه بنو الشهيد من أهل نابلس إلى اليوم؛ كما ذكر ابن كثير[٣].

---

(١) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١١/ ٣٢٢).

(٢) سورة الإسراء، آية: ٥٨، ينظر: «تاريخ دمشق»، لابن عساكر: (٥١/ ٥٠).

(٣) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١١/ ٣٢٢).

وأما قاتلوه فقد رحلوا إلى مزبلة التاريخ، ولعنات المؤمنين تلاحقهم، وإن أفلتوا من العقوبة في الدنيا فإنهم لن يفلتوا من العقوبة في الآخرة.

وفاته:

استشهد أبوبكر الرّملي بمصر سنة ثلاثة وستين وثلاثمائة[١] [٢]. وقد رآه بعض العلماء بعد وفاته في المنام وهو في حالة حسنة؛ ومنها ما روي عن أبي الشعشاع المصري أنه قال: «رأيت أبا بكر النابلسي في المنام بعد ما قتل وهو في أحسن هيئة، فقلت له: ما فعل الله بك؟

فأنشد يقول:

حبـانـي مـالـكـي بــدوام عـزّ

وأوعــدنــي بـقـرب الانـتـصـار

وقــرّبــنــي وأدنـــانـــي إلـيـه

وقـال أنعم بعيش في جـواري[٣]

رحم الله أبا بكر الرّملي المعروف بابن النابلسي، وحشره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، آمين.

---

(١) ينظر: «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (١٦/ ١٤٩).

(٢) وشذ ابن قاضي شهبة في تحديد تاريخ وفاته حيث قال: «توفي في شعبان سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة» قتيلاً بظاهر القاهرة، ينظر: «طبقات الشافعية»، لابن قاضى شهبة: (٣/ ١٦٢).

(٣) ينظر: «تاريخ دمشق»، لابن عساكر: (٥١/ ٥١).

(٧) السرخسي

اسمه ونسبه:

أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي سهل السّرخسي، الملقب بـ«شمس الأئمة». وسبب تلقيبه بذلك أنه تفقّه على «شمس الأئمة» عبد العزيز بن أحمد الحلوائي، فلقّب بلقبه(١).

وأما نسب السرخسي، فيعود إلى بلدة من بلاد خرسان، يقال لها: «سرخس»، قال القرشي: «السّرخسيّ نسبة إلى مدينة سرخس من بلاد خراسان... وهى نسبة شمس الأئمّة محمّد بن أحمد بن أبي سهل، أبوبكر»(٢).

و «سرخس» مدينة افتتحها عبد الله بن حاتم السّلمي في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنهما(٣).

مولده ونشأته:

حسب اطلاعي على كتب تراجم العلماء الذين ترجموا للسرخسي لم أر أحداً منهم نص على تاريخ ولادته. غير أنهم ذكروا أنه ولد بمدينة: «سرخس»، وهي بلدة عظيمة بخراسان. ثم انتقل السرخسي إلى «أوزجند» (أوزكند)، وهي بلدة فيما وراء النهر من نواحي «فرغانة» (في أوزبكستان حاليّاً).

---

(١) ينظر: «الجواهر المضية» للقرشي: (٢/ ٢٨).

(٢) ينظر: «اللباب في تهذيب الأنساب»، لابن الأثير: (٢/ ١١٢)، و«الأعلام»، للزركلي: (٥/ ٣١٥).

(٣) ينظر: «اللباب في تهذيب الأنساب»، لابن الأثير: (٢/ ١١٢).

وقيل: تقع «أوزجند» في منطقة «أوش» بجمهورية «قيرغيزستان».
وعليه فقد نشأ السرخسي أولاً في مدينة سرخس، ثم انتقل إلى «أوزجند».

وقد نشأ نشأة علمية، حيث تلقّى العلم على عدد من شيوخ عصره، ساعده على ذلك ذكاؤه الحاد، حتى صار إماماً فاضلاً، وفقيهاً أصوليّاً مناظراً.

وقد تتلمذ على يديه كثير من طلبة العلم الذين صاروا فيما بعد من أكابر علماء زمنهم[١].

ثناء العلماء عليه:

مما يؤسف له الباحث في كتب التراجم أنه لا يجد كتابة موسّعة عن السرخسي، رغم جلالة قدره، وغزارة علمه، وكثرة مصنفاته. ولكن السرخسي يكفيه في الثناء عليه مؤلفاته العلمية القيمة، ومواقفه البطولية الخالدة التي انتصر فيها للشريعة، وذبّ فيها عن حرمات الله، حتى ألقي في سجن في قاع جب مظلم خمس عشرة سنة؛ كما سيأتي بيانه في محنته.

ومما قاله العلماء في الثناء عليه ما يلي:

قال السمعاني: «إمام سرخس»[٢].

(١) ينظر: «الجواهر المضية»، للقرشي: (٢/ ٢٩).
(٢) «الأنساب»، للسمعاني: (٢/ ٤٠٥).

وقال القرشي: «الإمام الكبير شمس الأئمّة... أحد الفحول الأئمّة الكبار أصحاب الفنون، كان إماماً علامة حجّة متكلماً فقيهاً أصولياً مناظراً، لزم الإمام شمس الأئمّة أبا محمّد عبد العزيز الحلواني حتّى تخرّج به، وصار أنظر أهل زمانه، وأخذ في التصنيف وناظر الأقران، فظهر اسمه وشاع خبره»[١].

وقال الزركلي: «قاض، من كبار الأحناف، مجتهد»[٢].

وقال علي بن سلطان القارئ الهروي: «من كبار علمائنا (أي من كبار علماء الأحناف) بما وراء النهر، صاحب الأصول والفروع»[٣].

مؤلفاته:

ألّف السرخسي كتباً عدة، في علوم كثيرة متنوّعة، وغالب مؤلفاته مطبوعة متداولة، ومن مؤلفاته ما يلي[٤]:

١- المبسوط (في الفقه الحنفي) في نحو خمسة عشر مجلداً.

٢- كتاب في أصول الفقه.

٣- شرح السير الكبير.

٤- شرح مختصر الطحاوية.

---

(١) «الجواهر المضية»، للقرشي: (٢/ ٢٨).

(٢) «الأعلام»، للزركلي: (٥/ ٣١٥).

(٣) «الأثمار الجنية»، للقاري الهروي، (ص: ٢٦٩).

(٤) ينظر: «الأعلام»، للزركلي: (٥/ ٣١٥)، و«معجم المؤلفين»، لعمر رضا كحالة: (٨/ ٢٦٨).

٥- شرح الجامع الصغير للإمام محمد.

٦- شرح الجامع الكبير للإمام محمد.

٧- أشراط الساعة.

٨- الفوائد الفقهية.

٩- أصول السرخسي.

وغير ذلك.

وبعض مؤلفاته (كما سيأتي) أملاها من حفظه وذاكرته من غير نظر أو مطالعة في كتاب.

وقد لاقت أغلب كتبه - وعلى وجه الخصوص كتابه: «المبسوط» - قبولاً لدى الناس، حتى صار من أمّهات الكتب المعتمدة في الفقه الحنفي.

محنته:

تتفق محن العلماء (كما هي العادة) في سببها، وتختلف في ماهيتها.

فمحن العلماء كلهم سببها: الصدع بالحق، ومواجهة الظلم، ولكنها مختلفة في ماهيتها ما بين الأذى القولي كالسب والشتم، والإهانة، والتحقير، والازدراء، والإقامة الجبرية، والأذى الفعلي، كالسجن والقيود، والضرب والتعذيب، والقتل والصلب.

ومن هؤلاء العلماء الذين امتحنوا وأوذوا في سبيل الله: السرخسي، فقد كان معروفاً بالقوة في الحق، والثبات عليه، لا يخاف في الله لومة لائم.

ومحنة السرخسي حصلت له مع الخاقان[1]**، وسببها:** أن الخاقان عزم على أن يتزوج جارية كانت ملكاً له فأعتقها، ولم ينتظر حتى تنقضي عدتها بعد الإعتاق، فتصدّى السرخسيّ لذلك، حيث أفتى بأن زواج الخاقان بعتيقته قبل أن تمضي عدّتها حرام، وبيّن للخاقان بحزم وجرأة أن ذلك لا يجوز، وأن عليه أن ينتظر انتهاء المدة الشرعية، ولم يقم السرخسي أي اعتبار لبطش الملك وظلمه، كما لم يخف من تهديده بسفك دمه، بل أصرّ على زجره له وجرأته عليه، فغضب عليه الخاقان غضباً شديداً، وأمر به فألقي في السجن، سنة ٤٦٦ هـ/ ١٠٧٣م.

وقيل: إنه سجن في جبّ (بئر)[2].

وقد عبّر السرخسي عن محنته في أواخر عدد من أبواب كتابه: «المبسوط»، حيث يقول عند فراغه من شرح العبادات: «هذا آخر شرح العبادات بأوضح المعاني، وأوجز العبارات، إملاء المحبوس عن الجمعة والجماعات، مصلياً على سيد السادات محمد المبعوث بالرسالات وعلى أهله من المؤمنين والمؤمنات»[3].

وقال في آخر كتاب الطلاق: «هذا آخر شرح كتاب الطلاق بالمؤثرة من المعاني الدقاق، أملاه المحصور عن الانطلاق، المبتلى بوحشة الفراق،

(١) «الخاقان» لقب لكل ملك من ملوك التّرك [ينظر: «المعجم الوسيط»، لمجموعة من الباحثين: (١/ ٢٤٨).

(٢) ينظر: «الجواهر المضية»، للقرشي: (٢/ ٢٨ - ٢٩).

(٣) «المبسوط»، للسرخسي: ٤/ ١٩٢، وينظر: «الجواهر المضية»، للقرشي: (٢/ ٢٩).

مصلياً على صاحب البراق، وآله وصحبه أهل الخير والسباق، صلاة تتضاعف وتدوم إلى يوم التلاق»[١].

وقال في آخر كتاب العتاق: «انتهى شرح كتاب العتاق من مسائل الخلاف والوفاق، أملاه المستقبل للمحن بالإعتاق المحصور في طرف من الآفاق، حامداً للمهيمن الرزّاق، ومرتجياً إلى لقائه العزيز بالأشواق، ومصلياً على حبيب الخلاق، وعلى آله وأصحابه خير الصحب والرفاق»[٢].

وقال في آخر شرح كتاب المكاتب: «انتهى شرح كتاب المكاتب بإملاء المحصور المعاتب، والمحبوس المعاقب وهو منذ حولين على الصبر مواظب وللنجاة بلطيف صنع الله مراقب، والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم»[٣].

وقال في آخر شرح كتاب الولاء: «انتهى شرح كتاب الولاء بطريق الإملاء من الممتحن بأنواع البلاء، يسأل من الله تعالى تبديل البلاء والجلاء بالعز والعلاء، فإن ذلك عليه يسير وهو على ما يشاء قدير»[٤].

وقال في آخر شرح: «كتاب السير الصغير» وقد ضمّه إلى «المبسوط»: «انتهى شرح السير الصغير المشتمل على معنى أثير، بإملاء المتكلم بالحق

---

(١) «المبسوط» للسرخسي: (٧/ ٥٩، وينظر: «الجواهر المضية» للقرشي: ٢/ ٢٩).

(٢) «المبسوط» للسرخسي: (٧/ ٢٤١، وينظر: «الجواهر المضية» للقرشي: ٢/ ٢٩).

(٣) «المبسوط»، للسرخسي: (٨/ ٨٠).

(٤) «المبسوط» للسرخسي: (٨/ ١٢٥).

المنير، المحصور لأجله شبه الأسير، المنتظر للفرج من العالم القدير، السميع البصير، المصلي على البشير الشفيع لأمته النذير، وعلى كل صاحب له ووزير، والله هو اللطيف الخبير»(١).

وقال في آخر شرح الإقرار: «انتهى شرح كتاب الإقرار المشتمل من المعاني ما هو سر الأسرار، وأملأ المحبوس في موضع الأشرار، مصلياً على النّبي المختار»(٢).

وقد ذكر محنة السرخسي كل العلماء الذين ترجموا له، وممن ذكرها القرشي حيث قال بعد أن نقل مقتطفات من كتابه: «المبسوط» -والتي سبق أن نقلناها من كتاب المبسوط- قال القرشي مبيناً محنته وسببها: «أملى المبسوط نحو خمسة عشر مجلدًا وهو في السجن بـ «أوزجند» محبوس، وعن أسباب الخلاص في الدنيا مأيوس؛ بسبب كلمة كان فيها من الناصحين، سالكاً فيها طريق الراسخين، ليكون له ذخيرة إلى يوم الدّين، وإنما يتقبّل الله من المتقين، وهو يتولّى الصّالحين، ولا يهدي كيد الخائنين، ولا يضيع أجر المحسنين»(٣).

وقد واجه السرخسي هذه المحنة بثبات فريد رغم طول فترة السجن في قاع جب مظلم؛ راضياً بالله، وحامداً له على ما قدّره وقضاه وهو سبحانه اللطيف الخبير (كما يدلّ على ذلك بعض عباراته التي نقلناها آنفاً).

---

(١) «المبسوط»، للسرخسي: (١٠/ ١٤٤).

(٢) «الجواهر المضية»، للقرشي: (٢/ ٢٩).

(٣) «الجواهر المضية»، للقرشي: (٢/ ٢٨).

ولم يواجه السرخسي هذه المحنة بالحزن والعويل، بل واجهها بالصبر الجميل، والاستغلال الأمثل لوقته الثمين؛ مقتدياً ومتأسياً بمن سبقه من الأنبياء والعلماء، وعلى رأسهم: يوسف - عليه وعلى نبينا الصلاة السلام - حيث قام يوسف - عليه السلام - أثناء فترة سجنه بالدعوة إلى الله، ونشر العقيدة الصحيحة، قال تعالى حاكيا عنه أنه قال:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾[1].

فلقد قضى يوسف - عليه السلام - مدة سجنه الطويلة صابراً محتسباً، قائماً بالدعوة إلى الله، حتى تمّ تبرئة ساحته من التهم الزائفة التي دبّرت ضده، فلما تم تبرأته خرج من السجن رافعاً رأسه، بعد أن رفع الله ذكره، وأعلى شأنه، ومكّنه من حكم مصر، وجعله على خزائنها، قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾[2].

---

(١) سورة يوسف، آية: ٣٩، ٤١.

(٢) سورة يوسف، آية: ٥٦، ٥٧.

وهكذا نجد أيضا السرخسي لغزارة علمه، وحب طلابه له لم ينقطعوا عنه، بل أتوا إلى باب سجنه زرافات ووحداناً ليغترفوا من نبع علمه العذب الزلال، بطريقة علمية فريدة، حيث كانوا يقعدون عند بوابة السجن والسرخسي يصيح في أسفل الجب، فيكتبون عنه العلم؛ حتى أملى عليهم كتاب: «المبسوط» في نحو من خمسة عشر مجلداً، وأيضاً أملى عليهم كتاب: «الأصول» الذي يعد من أهم الكتب في أصول الفقه، وكذلك أملى كتاب: «زيادة الزيادات» شرح به كتاب «الزيادات» للإمام محمد الشيباني، صاحب الإمام أبي حنيفة النعمان.

ثم شرع في شرح كتاب: «السير الكبير» للإمام محمد الشيباني، فلما وصل في الإملاء إلى باب الشروط، جاءه الفرج بإطلاق سراحه، وإخلاء سبيله، فذهب إلى «فرغانة» في ربيع الأوّل سنة ٤٨٠ هـ/ ١٠٨٧م، وهناك أتم «شرح السير الكبير» في جمادى الأولى من السنة نفسها[(١)].

فخرج السرخسي من السجن رافعاً رأسه، قد حباه الله بمحبة في نفوس الخلق، حتى أنهم لقّبوه بـ «شمس الأئمة»؛ ذلك أنه كان من العلماء العاملين بعلمهم السالكين في فتاويهم طريق الراسخين، ليكون لهم ذخيرة إلى يوم الدّين، وإنما يتقبّل الله من المتقين، وهو يتولى الصّالحين، ولا يهدي كيد الخائنين، ولا يضيع أجر المحسنين.

وفعلاً لقد تولّى الله السرخسي أثناء فترة سجنه، حيث منّ عليه بطلاب علم نقلوا عنه العلم، حيث أملى عليهم كتباً علمية قيّمة، صارت

---

(١) ينظر: «الجواهر المضية»، للقرشي: (٢/ ٢٨ - ٢٢).

شهرتها فيما بعد في الأقطار، بل إنه لما أطلق من سجنه «خرج في آخر عمره إلى فرغانة، فأنزله الأمير حسن بمنزلة، فوصل إليه الطلبة؛ فأكمل الإملاء في دهليز الأمير»[١].

فيا لها من مكانة ورفعة أن يصبح دهليز الأمير ساحة لنشر العلم فيه.

وأما أمير خاقان وحاشيته وأعوانه الظلمة، فقد ذهبوا إلى مزبلة التاريخ غير مأسوف عليهم، ومع ذلك لن يفلتوا من عقوبة الله يوم القيامة.

وقد حكي أن الرشيد سجن أبي العتاهية، فكتب أبو العتاهية على حائط الحبس:

أما والله إن الظلم شؤم
وما زال المسيء هو الظلوم
إلى ديان يوم الدين نمضي
وعند الله تجتمع الخصوم
ستعلم في المعاد إن التقينا
غداً عند المليك من الظلوم[٢]

والقصاص من الظالم للمظلوم سيكون حتماً لا شك ولا ريب، وذلك موقف رهيب عصيب عبّر عنه حافظ حكمي بقوله:

في موقف يجلّ فيه الخطب
ويعظم الهول به والكرب

---

(١) «تاج التراجم»، لابن قطلوبغا: (٢/ ٤٥).

(٢) «أدب الدنيا والدين»، للماوردي، (ص: ١٣٨).

وأحـضـروا لـلعـرض والحـسـاب

وانـقـطـعـت عـلائـق الأنـسـاب

وارتـكـمـت سـحـائـب الأهــوال

وانــعــجـم الـبـلـيـغ فــي المـقـال

وعـــنـــت الـــوجـــوه لـلـقـيـوم

واقتص من ذي الظلم للمظلوم[١]

وفاته:

توفي السرخسي بمدينة «فرغانة».

وقد اختلف العلماء في تاريخ وفاته، فقال بعضهم: توفي في حدود التسعين والأربعمائة.

وقيل: سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة.

وقيل: في حدود الخمسمائة[٢].

وقيل غير ذلك.

رحم الله السرخسي وجعله مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

---

(١) «معارج القبول»، لحافظ حكمي: (١/ ٣٩).

(٢) ينظر: «الجواهر المضية»، للقرشي: (٢/ ٢٩)، و«هدية العارفين»، للباباني البغدادي: (٢/ ٧٦، و«أسماء الكتب»، لرياض زاده، (ص: ٤١).

(٨) العز بن عبد السلام

اسمه ونسبه:

أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن بن محمد بن مهذّب السلمي.

وقد لقّب بعدة ألقاب؛ من أشهرها: عز الدين، والإمام العز، وسلطان العلماء[١].

فالعز بن عبد السلام، الدمشقي مولداً، المصري داراً ووفاة، والشافعي مذهباً.

مولده ونشأته:

ولد العز بن عبد السلام بدمشق؛ سنة سبع وسبعين وخمسمائة، وقيل: سنة ثمان وسبعين وخمسمائة[٢].

وأما نشأة العز بن عبد السلام فقد نشأ بدمشق (مدينة العلم والمعرفة آنذاك) في أسرة فقيرة مغمورة، منشغلة بطلب الرزق عن طلب العلم، إلا أن العز بن عبد السلام كان على خلاف ذلك، فقد نشأ منذ الوهلة الأولى (على الرغم من شدة فقره) عفيفاً، شريفاً، متعلقاً بربه، مقبلاً على طاعة خالقه، ممتثلاً لأوامره؛ حتى أنه كان يبيت ليال عديدة في المسجد، كما أشار إلى ذلك السبكي حيث يقول:

---

(١) ينظر: «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٨/ ٢٠٩)، و«طبقات الشافعية»، لابن قاضي شهبة: (٢/ ١٠٩ - ١١٠).

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٨/ ٢٠٩).

«سمعت الشيخ الإمام يقول: كان الشيخ عزالدين في أول أمره فقيراً جداً، ولم يشتغل إلا على كبر. وسبب ذلك أنه كان يبيت في الكلاسة[١] من جامع دمشق، فبات بها ليلة ذات برد شديد فاحتلم فقام مسرعاً ونزل في بركة الكلاسة فحصل له ألم شديد من البرد، وعاد فنام فاحتلم ثانياً فعاد إلى البركة؛ لأن أبواب الجامع مغلقة وهو لايمكنه الخروج، فطلع فأغمي عليه من شدة البرد... ثم سمع النداء في المرة الأخيرة: يا ابن عبد السلام أتريد العلم أم العمل؟ فقال الشيخ عز الدين: العلم؛ لأنه يهدي إلى العمل.

فأصبح وأخذ التنبيه (في فقه الشافعي)، فحفظه في مدة يسيرة، وأقبل على العلم، فكان أعلم أهل زمانه، ومن أعبد خلق الله تعالى[٢].

فهذه الحادثة تدلّ على عبادته لربه منذ نشأته الأولى، وأيضاً تدلّ على تأخّره في طلب العلم نوعاً ما، وأنه لم يتفرّغ لطلب العلم إلا من بعد هذه الحادثة؛ حيث جلس إلى علماء دمشق؛ كفخر الدين بن عساكر، وسيف الدين الآمدي، وغيرهما؛ حتى برع في المذهب الشافعي، وفاق فيه الأقران، وجمع من فنون العلوم العجب العجاب، حتى بلغ رتبة الاجتهاد[٣].

---

(١) زاوية في الجانب الشمالي من جامع دمشق.
(٢) «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٨/ ٢١٢- ٢١٣).
(٣) ينظر: «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٨/ ٢٠٩ - ١١٠).

ثناء العلماء عليه:

عاش العز بن عبد السلام في عصر زاخر بالعلم والعلماء إلا أنه كان شامتهم ورأسهم ومقدمهم في كل فن؛ وقد أثنى عليه العلماء الذين عاصروه، ومن جاء بعده بإمامته وفضله وعلمه، ومن ذلك ما يلي:

قال ابن دقيق العيد: «كان ابن عبد السلام أحد سلاطين العلماء»[١].

وقال السبكي: «شيخ الإسلام والمسلمين، وأحد الأئمة الأعلام، سلطان العلماء، إمام عصره بلا مدافعة، القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه، المطّلع على حقائق الشريعة وغوامضها، العارف بمقاصدها»[٢].

وقال الذهبي: «برع في الفقه والأصول والعربية، ودرس وأفتى وصنّف، وبلغ رتبة الاجتهاد، وانتهت إليه رئاسة المذهب، مع الزهد والورع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصلابة في الدين»[٣].

وقال ابن كثير: «شيخ المذهب، ومفيد أهله، وله مصنفات حسان، وبرع في المذهب، وجمع علوماً كثيرة، وأفاد الطلبة، ودرّس بعدة مدارس، وانتهت إليه رئاسة الشافعية، وقصد بالفتاوى من الآفاق»[٤].

وقال اليافعي: «سلطان العلماء، وفحل النجباء، المقدم في عصره على سائر الأقران، بحر العلوم والمعارف، والمعظم في البلدان، ذو التحقيق

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٨/ ٢١٤).

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٨/ ٢٠٩).

(٣) «العبر في خبر من غبر»، للذهبي: (٣/ ٢٩٩).

(٤) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٣/ ٢٧٣).

والإتقان والعرفان والإيقان، وهو من الذين قيل فيهم: علمهم أكثر من تصانيفهم، لا من الذين عبارتهم دون درايتهم، ومرتبته في العلوم الظاهرة مع السابقين من الرعيل الأول»[١].

وقال السيوطي: «شيخ الإسلام، سلطان العلماء، أخذ الأصول، وسمع الحديث، وبرع في الفقه والأصول والعربية، وقدم مصر فأقام بها أكثر من عشرين عاماً ناشراً للعلم، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، يغلظ على الملوك فمن دونهم، وله من المصنّفات والكرامات الكثير، ثم كان في آخر عمره لا يتقيّد بالمذهب (يقصد الشافعي) بل اتسع نطاقه، وأفتى بما أدى إليه اجتهاده»[٢].

وقال أبو شامة: «كان أحق الناس بالخطابة والإمامة، وأزال كثيراً من البدع التي كان الخطباء يفعلونها؛ من دق السيف على المنبر، وأبطل صلاتي الرغائب، ونصف شعبان، ومنع منهما»[٣].

وقال الصفدي: «كان ناسكاً ورعاً، أمّاراً بالمعروف، نهّاء عن المنكر، لا يخاف في الله لومة لائم»[٤].

وقال ابن شهبة: «حكاياته في قيامه على الظّلمة وردعهم كثيرة مشهورة»[٥].

---

(١) «مرآة الجنان»، لليافعي: (٤/ ١١٦ - ١١٧).

(٢) «حسن المحاضرة»، للسيوطي: (١/ ٣١٥).

(٣) «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٨/ ٢١٠).

(٤) «الوافي بالوفيات»، للصفدي: (١٨/ ٣١٩).

(٥) «شذرات الذهب»، لابن العماد الحنبلي: (٧/ ٥٢٤).

وقال جمال الدين الحصري (شيخ الحنفية في زمانه مخاطباً سلطان دمشق عن العز بن عبد السلام): «هذا رجل لو كان في الهند، أو في أقصى الدنيا كان ينبغي للسلطان أن يسعى في حلوله في بلاده؛ لتتمّ بركته عليه وعلى بلاده، ويفتخر به على سائر الملوك»(١).

وقال عز الدين الحسيني: «حدّث ودرّس وأفتى، وصنّف وتولّى الحكم في مصر مدّة، والخطابة في جامعها العتيق، وكان علم عصره في العلم، جامعاً لفنون متعددة، عارفاً بالأصول والفروع والعربية، مضافاً إلى ما جبل عليه من ترك التكلّف مع الصلابة في الدين، وشهرته تغني عن الإطناب في وصفه»(٢).

وقال الصفدي: «كان ناسكاً ورعاً، أمّاراً بالمعروف، نهّاءً عن المنكر، لا يخاف في الله لومة لائم»(٣).

وقال الشريف عز الدّين: «كان علم عصره في العلم، جامعاً لفنون متعددة، مضافاً إلى ما جبل عليه من ترك التكلّف، مع الصّلابة في الدّين، وشهرته تغني عن الإطناب في وصفه»(٤).

---

(١) «طبقات الشافعية»، السبكي: (٨/ ٢٣٧).

(٢) «طبقات الشافعية»، لابن قاضى شهبة: (٢/ ١١٠).

(٣) «الوافي بالوفيات»، للصفدي: (١٨/ ٣١٨).

(٤) «شذرات الذهب»، لابن العماد الحنبلي: (٧/ ٥٢٤).

مؤلفاته:

تعدّ مؤلفات العز بن عبد السلام قليلة إذا ما قورنت بمكانته العلميّة، ومع قلّة مؤلّفاته إلا أنها ذات فوائد جمّة، ونفع عظيم، ومن مؤلفاته ما يلي[١]:

١- القواعد الكبرى: المشهور بـ «قواعد الأحكام».

٢- القواعد الصغرى.

٣- تفسير مختصر للقرآن.

٤- مختصر صحيح مسلم.

٥- الغاية في اختصار النهاية.

٦- بداية السول في تفضيل الرسول ﷺ.

٧- الفتاوى الموصلية والمصرية.

٨- بيان أحوال الناس يوم القيامة.

٩- شجرة المعارف.

١٠- الدلائل المتعلّقة بالملائكة والنبيين.

١١- الفرق بين الإيمان والإسلام.

١٢- فوائد البلوى والمحن.

١٣- الإمام في أدلّة الأحكام.

---

(١) ينظر: «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: ٨/ ٢٤٧ - ٢٤٨.

١٤- مجاز القرآن.

١٥- ترغيب أهل الإسلام في سكن الشام.

١٦- أحكام الجهاد.

١٧- الفوائد في اختصار المقاصد.

١٨- رسالة في ذم صلاة الرغائب.

وغير ذلك من المؤلفات البديعة النافعة.

محنته:

نشأ العز بن عبد السلام وترعرع في دمشق أيام العزة والكرامة والنصر، واسترجاع بيت المقدس على يد الناصر صلاح الدين الأيوبي، وشهد العز بن عبدالسلام انحسار الوجود الصليبي بالشام، وأيضاً شهد الحملة الصليبية الخامسة والسادسة على العالم الإسلامي، والبطولات العظيمة التي أبداها المسلمون في صد تلك الحملات البربرية.

ثم شهد العز بن عبد السلام التراجعات التي حصلت على مستوى القيادة في العالم الإسلامي، والصراع الشرس الذي حدث بين أمراء الأسرة الأيوبية على أماكن النفوذ في مصر والشام، وذلك مما زاد تحفيزه وتشجيعه على نصرة الحق، والذود عن حياضه، والوقوف في وجه الظلمة، ومناصرة قضايا الأمة.

ونتيجة لذلك تعرّض العز بن عبد السلام لمحنة شديدة: أثناء فترة حكم الصالح إسماعيل (المعروف بأبي الخيش): ذلك أن الصالح إسماعيل

تحالف مع النصارى الصليبيين، وسلّم لهم قلعة صفد[١]، وبلادها، وقلعة الشّقيف[٢] وبلادها، ومناصفة صيدا وطبرية وأعمالهما، وجبل عاملة، وسائر بلاد الساحل؛ مقابل أن يستعين بهم على قتال ابن أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب حاكم مصر آنذاك.

فلما تحالف الصالح إسماعيل مع النصارى الصليبيين دخلوا دمشق الشام لشراء السلاح ليقاتلوا به عباد الله المؤمنين، فتصدّى لذلك العز بن عبد السلام مفتياً بحرمة بيع السلاح للصلبيين، ومما جاء في فتواه (رداً على سؤال وجهه إليه أحد تجار بيع السلاح في دمشق الشام، مفاده: ما حكم بيع السلاح للصليبيين؟

فجاء جواب العز بن عبدالسلام رداً على السؤال: «يحرم عليكم مبايعتهم؛ لأنكم تتحققون أنهم يشترونه ليقاتلوا به إخوانكم المسلمين»[٣].

ولم يكتف العز بن عبد السلام بهذه الفتوى، بل صعد يوم الجمعة منبر الجامع الأموي، فخطب خطبة فريدة بيّن فيها حرمة بيع السلاح للصليبيين، ومشنعاً فيها ومستنكراً على أبي الخيش تحالفه مع الصليبيين، وتسليمه لهم بعض المدن والحصون.

---

(١) مدينة في جبال عاملة المطلّة على حمص بالشام، وهي من جبال لبنان «ينظر: «معجم البلدان»، لياقوت الحموي: (٣/ ٤١٢).

(٢) قلعة حصينة جداً في كهف من الجبل، قرب بانياس من أرض دمشق «ينظر: «معجم البلدان»، لياقوت الحموي: (٣/ ٣٥٦)».

(٣) ينظر: «طبقات الشافعية»، للسبكي: (٨/ ٢٤٣)، و«السلوك لمعرفة دول الملوك»، للمقريزي: (١/ ٤٠٧).

ثم امتنع عن الدعاء له في الخطبة، واستبدل ذلك بهذا الدعاء: «اللّهمّ أبرم لهذه الأمة إبرام رشد تعز فيه أولياءك، وتذل فيه أعداءك، ويعمل فيه بطاعتك، وينهي فيه معصيتك»، والنّاس يضجون بالتأمين[١].

فما كان من أعوان الشيطان إلا أن كاتبوا الملك الصالح إسماعيل بذلك (وكان حينها غائباً عن دمشق)، فأمر باعتقال العز بن عبدالسلام مدة من الزمن[٢].

ولما عاد الملك الصالح إلى دمشق أفرج عن العز بن عبد السلام، وجعله تحت الإقامة الجبرية، قال المقريزي: «وألزم (أي الملك الصالح) العز بن عبدالسلام بملازمة داره، وألا يفتي، ولا يجتمع بأحد ألبتة»[٣].

فبقي العز بن عبد السلام على هذه الحال مدة، ثم نزح عنها إلى بيت المقدس، وقد صادف ذلك مجيء الملك الصالح إسماعيل إلى بيت المقدس فأرسل إليه الملك الصالح إسماعيل بعض خواصه، قائلاً له: «تلطّف به غاية التلطّف، وتعده بالعودة إلى مناصبه على أحسن حال».

فلما اجتمع الرسول بالعز بن عبد السلام شرع في مسايسته وملاينته، ثم قال له: «بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وزيادة أن تنكسر للسلطان، وتقبّل يده لا غير».

---

(١) ينظر: «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٨/ ٢٤٣)، و«السلوك لمعرفة دول الملوك»، للمقريزي: (١/ ٤٠٧).

(٢) ينظر: «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٨/ ٢٤٣).

(٣) «السلوك لمعرفة دول الملوك»، للمقريزي: (١/ ٤٠٧).

فرد عليه: «والله يا مسكين ما أرضاه أن يقبّل يدي فضلاً أن أقبل يده، يا قوم أنتم في واد وأنا في واد، والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به».

فقال له: «قد رسم لي إن لم توافق على ما يطلب منك وإلا اعتقلتك؟».

فقال: «افعلوا ما بدا لكم».

فأخذه واعتقله في خيمة إلى جانب خيمة الملك الصالح إسماعيل (أبوالخيش).

فكان العز بن عبد السلام يقرأ القرآن، والملك الصالح إسماعيل يسمعه، فقال الملك يوماً لملوك الفرنج (ساخراً من العز بن عبد السلام، ومتودداً إلى الصليبين): «تسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن؟» قالوا: «نعم»، قال: «هذا أكبر قسوس المسلمين وقد حبسته لإنكاره عليّ تسليمي لكم حصون المسلمين وعزلته عن الخطابة بدمشق وعن مناصبه، ثم أخرجته، فجاء إلى القدس، وقد جدّدت حبسه واعتقاله لأجلكم» فقالت له ملوك الفرنج: «لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه، وشربنا مرقتها»[1].

فأصيب الملك إسماعيل بالصّغار والهوان والذّلة، وكانت هذه بداية هزيمته، حيث جاءت جنود المصريين، وانتصرت عليه، وعلى من كانوا متحالفين معه من الصليبيين، وأفرجت عن الإمام العز بن عبدالسلام[2].

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٨/ ٢٤٣ - ٢٤٤).

(٢) ينظر: «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٨/ ٢٤٤).

وقد واجه العز بن عبد السلام هذه المحنة بشجاعة فريدة، فانقلبت محنته إلى منحة؛ فإنه بعد هذه المنحة توجّه بعدها العز بن عبد السلام إلى مصر: «فتلقاه سلطانها الملك الصالح نجم الدين أيوب وأكرمه وولّاه خطابة جامع عمرو بن العاص بمصر، والقضاء بها»[١].

وأيضاً لما بنى السلطان مدرسة الصالحية المعروفة بين القصرين بالقاهرة فوّض تدريس الشافعية بها إلى العز بن عبد السلام.

ولما استقر مقام العز بن عبد السلام بمصر أكرمه حافظ الديار المصرية وزاهدها: «عبد العظيم المنذري» وامتنع من الفتيا، وقال: «كنا نفتي قبل حضور الشيخ عز الدين، وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعين فيه»[٢].

ومما يدل على منزلته الرفيعة عند العامة والخاصة: أن الملك الظاهر بيبرس لم يبايع واحداً من الخليفة المستنصر والخليفة الحاكم العباسيين إلا بعد أن تقدّمه الشيخ عز الدين للمبايعة، ثم بعده السلطان، ثم القضاة[٣].

ومما يدل أيضاً على رفعة العز بن عبد السلام وعلو مكانته هذه الحادثة التي حكاها السبكي بقوله: «اتفق أن أستاذ داره (أي دار السلطان نجم الدين أيوب) فخر الدين عثمان ابن شيخ الشيوخ، وهو الذي كان إليه أمر المملكة عمد إلى مسجد بمصر فعمل على ظهره بناء لطبل خانات، وبقيت تضرب هنالك، فلما ثبت هذا عند الشيخ عز الدين حكم بهدم

(١) ينظر: «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٨/ ٢١٠).
(٢) ينظر: «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٨/ ٢١١).
(٣) ينظر: «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٨/ ٢١٥).

ذلك البناء، وأسقط فخر الدين ابن الشيخ، وعزل نفسه من القضاء، ولم تسقط بذلك منزلة الشيخ عند السلطان، ولكنه لم يعده إلى الولاية.

وظن فخر الدين وغيره أن هذا الحكم لا يتأثر به فخر الدين في الخارج، فاتفق أن جهز السلطان الملك الصالح رسولاً من عنده إلى الخليفة المستعصم ببغداد، فلما وصل الرسول إلى الديوان ووقف بين يدي الخليفة، وأدى الرسالة؛ خرج إليه وسأله: هل سمعت هذه الرسالة من السلطان (مشافهة مباشرة)؟ فقال: لا، ولكن حملنيها عن السلطان فخر الدين ابن شيخ الشيوخ أستاذ داره، فقال الخليفة: «إن المذكور أسقطه ابن عبد السلام فنحن لا نقبل روايته». فرجع الرسول إلى السلطان حتى شافهه بالرسالة، ثم عاد إلى بغداد وأداها»[1] إلى الخليفة المستعصم.

وقد سطّر التاريخ مواقف خالدة للعز بن عبد السلام في الصدع بكلمة الحق، وقد تناقلت هذه المواقف الأجيال جيلا بعد جيل، ومنها ما يلي:

أولاً: موقفه مع أمراء الدولة (الذين كانوا أرقّاء عبيداً ثم صاروا أمراء يتصرّفون في شؤون الدولة): فتصدّى لهم العز بن عبد السلام، مفتياً بعدم صحة بيعهم وشرائهم، حتى أنها تعطّلت مصالحهم بسبب موقف العز بن عبد السلام من تصرفاتهم، وكان من جملتهم نائب السلطنة، فاستشاط غضباً فاجتمعوا، وأرسلوا إليه، فقال العز بن عبد السلام: «نعقد لكم مجلساً وينادى عليكم لبيت مال المسلمين ويحصل عتقكم بطريق شرعي؟

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٨/ ٢١٠ - ٢١١).

فرفعوا الأمر إلى السلطان فبعث إليه فلم يرجع.

فجرت من السلطان كلمة فيها غلظة حاصلها الإنكار على الشيخ في دخوله في هذا الأمر، وأنه لا يتعلّق به.

فغضب الشيخ وحمل حوائجه على حمار، وأركب عائلته على حمار آخر، ومشى خلفهم خارجاً من القاهرة قاصداً نحو الشام، فلم يصل إلى نحو نصف بريد إلا وقد لحقه غالب المسلمين، لم تكد امرأة ولا صبي ولا رجل لا يؤبه إليه يتخلّف، لا سيما العلماء والصلحاء والتجار وأنحاؤهم، فبلغ السلطان الخبر، وقيل له: متى راح ذهب ملكك؟

فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيّب قلبه، فرجع واتفقوا معهم على أنه ينادى على الأمراء، فأرسل إليه نائب السلطنة بالملاطفة فلم يفد فيه، فانزعج النائب وقال: كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض والله لأضربنه بسيفي هذا؟

فركب بنفسه في جماعته وجاء إلى بيت الشيخ والسيف مسلول في يده، فطرق الباب فخرج ولد الشيخ (عبد اللطيف) فرأى من نائب السلطنة ما رأى، فعاد إلى أبيه وشرح له الحال، فما اكترث لذلك ولا تغيّر، وقال: يا ولدي أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله.

ثم خرج كأنه قضاء الله قد نزل على نائب السلطنة، فحين وقع بصره على النائب يبست يد النائب، وسقط السيف منها، وأرعدت مفاصله، فبكى.

وسأل الشيخ أن يدعو له، وقال: يا سيدي خبر أيش تعمل؟ قال: أنادي

عليكم وأبيعكم، قال: ففيم تصرف ثمننا؟ قال: في مصالح المسلمين، قال: من يقبضه؟

قال: أنا.

فتم له ما أراد ونادى على الأمراء واحداً واحداً وغالى في ثمنهم وقبضه وصرفه في وجوه الخير[١].

وقد ذكر بعض المؤرخين: أنه لم يحدث مثل هذه الواقعة في تاريخ البشرية كلها[٢].

ثانياً: موقفه مع السلطان يوم العيد: كما يحكي ذلك السبكي نقلاً عن الباجي حيث يقول: «طلع شيخنا عز الدين مرة إلى السلطان في يوم عيد إلى القلعة، فشاهد العساكر مصطفين بين يديه، ومجلس المملكة، وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة، وقد خرج على قومه في زينته على عادة سلاطين الديار المصرية، وأخذت الأمراء تقبّل الأرض بين يدي السلطان، فالتفت الشيخ إلى السلطان، وناداه: يا أيوب ما حجتك عند الله إذا قال لك ألم أبوئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور؟

فقال: هل جرى هذا؟

فقال: نعم، الحانة الفلانية يباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلّب في نعمة هذه المملكة.

قال السبكي حاكياً القصة: «يناديه كذلك بأعلى صوته، والعساكر

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٨/ ٢١٦ - ٢١٧).

(٢) ينظر: «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٨/ ٢١٧).

واقفون! فقال: يا سيدي هذا أنا ما عملته هذا من زمان أبي؟ فقال: أنت من الذين يقولون:

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾[١].

فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة».

ولما عاد العز بن عبدالسلام من عند السلطان سأله أحد تلامذته عن هذا الموقف الذي شاع بين الناس، فقال العز بن عبدالسلام: «يا بني رأيته في تلك العظمة فأردت أن أهينه لئلا تكبر نفسه فتؤذيه».

فقال له: أما خفته؟ فقال العز بن عبد السلام: «والله يا بني استحضرت هيبة الله تعالى، فصار السلطان قدامي كالقط»[٢].

ثالثا: موقفه مع الظاهر بيبرس: حيث امتنع العز بن عبد السلام عن مبايعته بسبب أنه مملوك، ولم يبايعه حتى جاء من شهد له بالخروج من الرق؛ كما حكى ذلك الصفدي بقوله: «لما حضر بيعة الملك الظاهر قال له: «يا ركن الدين أنا أعرفك مملوك البندقدار» (أي لا تصح بيعته؛ لأنه ليس أهلاً للتصرف)، فما بايعه حتى جاء من شهد له بالخروج عن رقه إلى الصلاح وعتقه»[٣].

رابعاً: موقفه من قتال التتار وما كان منه فيها: يلخّص هذا الموقف

---

(١) سورة الزخرف، آية: ٢٢.

(٢) ينظر: «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٨/ ٢١١ - ٢١٢).

(٣) «الوافي بالوفيات»، للصفدي: (١٨/ ٣١٩)، وينظر: «المنهل الصافي»، لابن تغري بردي: (٧/ ٢٨٩).

السبكي بقوله: «حاصلها: أن التتار لما دهمت البلاد عقيب واقعة بغداد، وجبن أهل مصر عنهم، وضاقت بالسلطان وعساكره الأرض؛ استشاروا الشيخ عز الدين - رحمه الله - فقال: اخرجوا وأنا أضمن لكم على الله النصر؟ فقال السلطان له: «إن المال في خزانتي قليل وأنا أريد أن أقترض من أموال التجار؟» فقال له الشيخ عز الدين: «إذا أحضرت ما عندك وعند حريمك وأحضر الأمراء ما عندهم من الحلي الحرام اتخاذه وضربته سكة ونقداً، وفرّقته في الجيش ولم يقم بكفايتهم ذلك الوقت اطلب القرض، وأما قبل ذلك فلا»، فأحضر السلطان والعسكر كلهم ما عندهم من ذلك بين يدي الشيخ، وكان الشيخ له عظمة عندهم وهيبة بحيث لا يستطيعون مخالفته، فامتثلوا أمره فانتصروا»[1].

وغير ذلك من مواقف العز بن عبد السلام الجريئة والشجاعة في نصرة الحق، والذود عن حياضه.

وفاته:

توفي العز بن عبد السلام بمصر في العاشر من جمادى الأولى، سنة ستين وستمائة بالقاهرة.

وكان يوم دفنه مشهوداً، حيث حضر جنازته الخاصّ والعامّ من أهل مصر والقاهرة، وشارك في الجنازة خلائق لا تحصى، ومنهم الظاهر ببيرس فمن دونه. ودفن العز بن عبد السلام قبيل الظهر، في آخر القرافة، بسفح المقطم من ناحية البركة.

---

(١) ينظر: «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٨/ ٢١٥).

وقد تأثّر الظاهر بيبرس من وفاة العز بن عبد السلام (كما حكى ذلك السبكي)، وتأسّف على موته أثناء دولته، فقال: «لا إله إلا الله، ما اتّفقت وفاة الشيخ إلا في دولتي»، وخرج هو وأمراءه وخاصته وأجناده لتشييع جنازته، وحمل نعشه، وحضر دفنه.

وقد حكى بعض المؤرخين: أن الظاهر ببيرس لما استقر جسد العز بن عبد السلام في قبره تنفّس الصعداء، وقال لبعض خواصه: «اليوم استقر أمري في الملك؛ لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس: اخرجوا عليه لانتزع الملك مني».

وكان مما أوصى به العز بن عبد السلام قبل موته: تفويض مهمة الإشراف على المدرسة الصالحية للقاضي تاج الدين[١].

رحم الله العز بن عبد السلام ورفع درجته في المهديين.

(١) ينظر: «طبقات الشافعية الكبرى»، للسبكي: (٨/ ٢١٥، ٢٤٥، ٢٤٨).

(٩) ابن تيمية

اسمه ونسبه:

أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد، ابن تيمية، النميري، الحراني، الحنبلي، الدمشقي. الإمام، العلامة، الحافظ، الحجة، شيخ الإسلام(١).

وقد عرف واشتهر بـ «ابن تيمية»، وهو لقب جده «محمد»، والسبب في تسمية جده بذلك عدة أقوال(٢)، ومن أشهرها:

١- أن جده «محمد» حج وله امرأة حامل، وعندما كان على درب تيماء - مدينة بين المدينة وتبوك - رأى جارية طفلة خرجت من خباء، فلما رجع إلى حران وجد امرأته قد ولدت بنتاً، فلما رآها قال: يا تيمية يا تيمية، (يعني: أنها تشبه الطفلة التي رآها بتيماء)، فلقّب بذلك.

٢- أن جدّه «محمد» كانت أمّه تسمّى: «تيمية»، وكانت واعظةً، فعرف بها.

فابن تيمية عربي الأصل، حراني المولد، دمشقي النشأة والوفاة، حنبلي المذهب، ثم المجتهد المطلق فيما بعد.

---

(١) ينظر: «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٤/ ١٥٦)، و«طبقات الحفّاظ»، للذهبي: (٤/ ١٩٢).

(٢) ينظر: «تاريخ الإسلام»، للذهبي: (١٣/ ٧٢٣)، و«العقود الدرية»، لابن عبد الهادي، (ص: ١٨).

مولده ونشأته:

ولد ابن تيمية في مدينة حران يوم الاثنين العاشر من ربيع الأول، سنة إحدى وستين وستمائة من الهجرة[١].

وأما نشأة ابن تيمية، فقد نشأ نشأته الأولى في مدينة «حران» إلى أن بلغ السابعة من عمره، وعندما أغار عليها التتار هاجرت عائلته؛ منها سنة ٦٦٧هـ إلى دمشق الشام.

حيث نشأ في دمشق الشام في أسرة علمية حنبلية المذهب، راسخة الدعائم، قوية الأركان في الفقه والحديث، فوالده الشيخ عبد الحليم كان عالماً محدّثاً، وجدّه مجد الدين أبو البركات صاحب متن «منتقى الأخبار» والذي يعتبر كتاب نيل الأوطار للشوكاني أحد شروحه وأشهرها، وهذه البيئة العلمية ساهمت في نبوغ ابن تيمية؛ حيث أقبل منذ نعومة أظافره على العلم.

وقد نشأ ابن تيمية في تصون تامّ وعفاف وتألّه وتعبّد واقتصاد في الملبس والمأكل، وكان يحضر المدارس والمحافل في صغره ويناظر ويفحم الكبار، ويأتي بما يتحير منه أعيان البلد في العلم، فأفتى وله تسع عشرة سنة، بل أقل.

وفي نشأته حفظ المتون وحاز الفنون وحصل الأجزاء، وتفقّه وتمهّر وتقدّم وتميّز ودرس وأفتى وصنّف، وفاق الأقران، وصار أعجوبة

---

(١) ينظر: «العقود الدرية»، لابن عبد الهادي، (ص: ١٨)، و«البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٤/ ١٤٢).

الزمان، في سرعة الاستحضار وقوة الجنان، والتوسع في المنقول والمعقول، والتبحّر في مذاهب السلف والخلف، وصار علماً مقدماً وإماماً فرداً في علوم شتى خاصة علم التفسير والعقائد والأصول، حتى أنه جلس للتدريس بدار الحديث في دمشق سنة ٦٨٣هـ، أي وهو في الثانية والعشرين.

وكان يحضر درسه قاضي القضاة وشيوخ المذاهب على رأسهم الشيخ تاج الدين الفزاري شيخ الشافعية، ولبراعة إلقاء ابن تيمية للدرس، جعلوه يجلس في الجامع الأموي أكبر مساجد دمشق والشام وأشهرها لشرح التفسير وذلك في نفس السنة ٦٨٣هـ.

ثمّ لم يبرح ابن تيمية في ازدياد من العلوم وملازمة الاشتغال والإشغال وبث العلم ونشره والاجتهاد في سبل الخير حتّى انتهت إليه الإمامة في العلم والعمل والزهد والورع والشجاعة والكرم والتواضع والحلم والإنابة والجلالة والمهابة والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وسائر أنواع الجهاد، مع الصدق والعفّة والصيانة وحسن القصد، والإخلاص والابتهال إلى الله، وكثرة الخوف منه وكثرة المراقبة له، وشدّة التّمسّك بالأثر، والدّعاء إلى الله، وحسن الأخلاق، ونفع الخلق والإحسان إليهم، والصّبر على من آذاه، والصفح عنه، والدّعاء له، وسائر أنواع الخير[١].

---

(١) ينظر: «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٣/ ٣٢١)، و«العقود الدرية»، لابن عبدالهادي، (ص: ١٩)، وما بعدها، و«الأعلام العلية»، للبزار، (ص: ١٨)، وما بعدها.

ثناء العلماء عليه:

أثنى على ابن تيمية مخالفوه بتقدّمه في العلم والفقه، وقوّة الحجة، والشجاعة والسخاء والجهاد في سبيل الله، فضلاً عن علماء عصره ومحبيه وتلامذته.

وهو مع ذلك ليس بحاجة إلى ثناء أحد، فسيرته العلمية والعملية، ومواقفه التاريخية؛ أنصع ثناء، وأصدق تزكية، وأرفع وسام في الثناء عليه.

ومع ذلك لا بأس من تعطير هذه الصفحات، وتشنيف أذان السامع، ولفت وعي القارئ، بذكر بعض أقوال العلماء في الثناء عليه، ومن ذلك:

قال ابن كثير: «الشيخ، الإمام، العالم، العلم، العلّامة، الفقيه، الحافظ، الزاهد، العابد، القدوة، شيخ الإسلام»[١].

وقال أيضاً: «كان ذكيا كثير المحفوظ، فصار إماما في التفسير وما يتعلق به عارفا بالفقه، فيقال: أنه كان أعرف بفقه المذاهب من أهلها الذي كانوا في زمانه وغيره، وكان عالما باختلاف العلماء، عالما في الأصول والفروع والنحو واللغة، وغير ذلك من العلوم النقلية والعقلية، وما قطع في مجلس ولا تكلم معه فاضل في فن من الفنون إلا ظن أن ذلك الفن فنه، ورآه عارفا به متقنا له.

وأما الحديث فكان حامل رايته حافظا له مميزا بين صحيحه وسقيمه، عارفا برجاله متضلعا من ذلك»[٢].

---

(١) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٤/ ١٥٦).

(٢) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٤/ ١٥٧).

وقال ابن عبد الهادي: «الشيخ الإمام الرباني، إمام الأئمة، ومفتي الأمّة، وبحر العلوم، سيد الحفّاظ، وفارس المعاني والألفاظ، فريد العصر، شيخ الإسلام، بركة الأنام، وعلّامة الزمان، وترجمان القرآن، علم الزّهّاد، وأوحد العباد، قامع المبتدعين، وآخر المجتهدين، وصاحب التصانيف التي لم يسبق إلى مثلها»[١].

وقال الصفدي: «الشيخ، الإمام، العلامة، المفسّر، المحدّث، المجتهد، الحافظ، شيخ الإسلام، نادرة العصر، فريد الدهر»[٢].

وقال ابن مفلح: «الإمام، الفقيه، المجتهد، الحافظ، المفسّر، الزّاهد... شيخ الإسلام، وعلم الأعلام»[٣].

وقال ابن القيم: «شيخ الاسلام والمسلمين، القائم ببيان الحق ونصر الدّين الدّاعي إلى الله ورسوله المجاهد في سبيله الّذي أضحك الله به من الدّين ما كان عابساً، وأحيا من السّنّة ما كان دارساً، والنور الّذي أطلعه الله في ليل الشّبهات فكشف به غياهب الظّلمات وفتح به من القلوب مقفلها، وأزاح به عن النّفوس عللها فقمع به زيغ الزائغين، وشك الشاكين، وانتحال المبطلين، وصدقت به بشارة رسول رب العالمين بقوله ﷺ: **(إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)**، وبقوله ﷺ: **(يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين)**»[٤].

---

(١) «العقود الدرية»، لابن عبد الهادي، (ص: ١٨).

(٢) «أعيان العصر»، للصفدي: (١/ ٢٣٣).

(٣) «المقصد الأرشد»، لابن مفلح: (١/ ١٣٣).

(٤) «الرد الوافر»، لابن ناصر الدين، (ص: ٦٧ - ٦٦).

وقال ابن تغري بردي: «الإمام، العلامة، الحافظ، الحجة، فريد دهره، ووحيد عصره»[١].

وقال الشوكاني: «شيخ الإسلام، إمام الأئمّة، المجتهد المطلق»[٢].

وقال ابن الزملكاني (وهو من مخالفيه): «اجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها، وأن له اليد الطولى في حسن التصنيف، وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتدين»[٣].

وقال أيضاً: «كان ابن تيمية إذا سئل عن فنّ من العلم، ظنّ الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم بألّا يعرفه أحدٌ مثله، وكانت الفقهاء من سائر الطوائف إذا جالسوه استفادوا في مذاهبهم منه أشياء، قال: ولا يعرف أنه ناظر أحدًا فانقطع معه، ولا تكلّم في علم من العلوم؛ سواء كان علوم الشرع أو غيرها إلا فاق فيه أهله، واجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها»[٤].

وقال ابن العماد الحنبلي: «أمدّه الله بكثرة الكتب، وسرعة الحفظ، وقوة الإدراك والفهم، وبطء النسيان، حتّى قال غير واحد: إنه لم يكن يحفظ شيئاً فينساه»[٥].

---

(١) «المنهل الصافي»، لابن تغري بردي: (١/ ٣٥٨).

(٢) «البدر الطالع»، للشوكاني: (١/ ٦٣).

(٣) «العقود الدرية»، لابن عبد الهادي، (ص: ٣٨٩).

(٤) «تاريخ ابن الوردي»: (٢/ ٢٧٧).

(٥) «شذرات الذهب»، لابن العماد الحنبلي: (٨/ ١٤٣).

وقال ابن حجر: «نظر في الرجال والعلل وتفقه وتمهر وتميز وتقدم وصنف ودرس وأفتى وفاق الأقران وصار عجبا في سرعة الاستحضار وقوة الجنان والتوسع في المنقول والمعقول والإطالة على مذاهب السلف والخلف»[١].

وقال عماد الدين الواسطي: «فواللّه ثمّ والله ثمّ والله لم ير أديم تحت السّماء مثل شيخكم علما وعملا وحالا وخلفا واتباعا وكرما وحلما في حق نفسه، وقياما في حق الله عند انتهاك حرماته أصدق النّاس عقدا وأصحهم علما وعزما وأنفذهم وأعلاهم في انتصار الحق وقيامه همة وأسخاهم كفا وأكملهم اتباعا لنبيه محمّد صلى الله عليه وسلمما رأينا في عصرنا هذا من تستجلى النّبوّة المحمدية وسنتها من أقواله وأفعاله إلّا هذا الرجل بحيث يشهد القلب الصّحيح أن هذا هو الاتّباع حقيقة»[٢].

وقال السيوطي: «كان من بحور العلم ومن الأذكياء المعدودين والزهاد والأفراد ألف ثلاثمائة مجلدة، وامتحن وأوذي مرارا»[٣].

قال ابن فضل الله العمري: «كان ابن تيمية لا تأخذه في الحقّ لومة لائم، وليس عنده مداهنة، وكان مادحه وذامّه في الحقّ عنده سواء»[٤].

---

(١) «الدرر الكامنة»، لابن حجر: (١/ ١٦٨).

(٢) «شذرات الذهب»، لابن العماد الحنبلي: (٨/ ١٤٦).

(٣) «طبقات الحفاظ»، للسيوطي، (ص: ٥٢٠ - ٥٢١).

(٤) «الرد الوافر»، لابن ناصر الدين، (ص: ٦٦).

وقال ابن الوردي: «كانت لابن تيمية خبرةٌ تامّةٌ بالرجال، وجرحهم، وتعديلهم، وطبقاتهم، ومعرفةٌ بفنون الحديث، وبالعالي والنازل، والصحيح والسقيم، مع حفظه لمتونه الذي انفرد به، وهو عجيبٌ في استحضاره واستخراج الحجج منه، وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستة والمسند؛ بحيث تصدق عليه أن يقال: «كلّ حديث لا يعرفه ابن تيمية، فليس بحديث»، ولكن الإحاطة لله غير أنه يغترف فيه من بحر، وغيره من الأئمة يغترفون من السواقي.

وأما التفسير فسلم إليه، وله في استحضار الآيات للاستدلال قوةٌ عجيبةٌ، ولفرط إمامته في التفسير وعظمة اطّلاعه بيّن خطأ كثير من أقوال المفسّرين، وكان يكتب في اليوم والليلة من التفسير أو من الفقه أو من الأصلين، أو من الرد على الفلاسفة والأوائل - نحوًا من أربعة كراريس، وما يبعد أن تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلد»[١].

وقال ابن سيد الناس: «كان ابن تيمية ممّن أدرك من العلوم حظًّا، وكاد يستوعب السّنن والآثار حفظًا، إن تكلّم في التفسير فهو حامل رايته، أو أفتى في الفقه فهو مدركٌ غايته، أو ذاكر بالحديث فهو صاحب علمه، وذو روايته، أو حاضر بالنّحل والملل لم ير أوسع من نحلته في ذلك، ولا أرفع من درايته، برز في كل فنّ على أبناء جنسه، ولم تر عين من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه، كان يتكلّم في التفسير، فيحضر مجلسه الجمّ الغفير»[٢].

(١) «تاريخ ابن الوردي»: (٢/ ٢٧٨).

(٢) «العقود الدرية»، لابن عبد الهادي، (ص: ٢٥).

وقال المزي: «الشّيخ الإمام العالم المفسّر الفقيه المجتهد الحافظ، المحدث شيخ الإسلام نادرة العصر ذو التصانيف الباهرة والذكاء المفرط»[١].

وقال المقريزي: «تصدّى للانتصار لمذهب السلف، وبالغ في الردّ على مذهب الأشاعرة، وصدع بالنكير عليهم، وعلى الرافضة، وعلى الصوفية»[٢].

وقال ابن رجب: «الإمام الفقيه، المجتهد المحدّث، الحافظ المفسر، الأصولي الزاهد،... شيخ الإسلام، وعلم الأعلام، وشهرته تغني عن الإطناب في ذكره، والإسهاب في أمره»[٣].

مؤلفاته:

أثرى ابن تيمية بمؤلفاته ورسائله المكتبة الإسلامية، وسارت سير الشمس في الأقطار، وامتلأت بها البلاد والأمصار، حتى أن ابن عبدالهادي قال عن مؤلفاته: «ولا أعلم أحدا من متقدّمي الأمة ولا متأخريها جمع مثل ما جمع ولا صنف نحو ما صنف ولا قريباً من ذلك»[٤].

وقال البزار: «أما مؤلفاته ومصنفاته فإنها أكثر من أن أقدر على إحصائها أو يحضرني جملة أسمائها، بل هذا لا يقدر عليه غالباً أحد؛ لأنها كثيرة جداً، كباراً وصغاراً، أو هي منشورة في البلدان فقل بلد نزلته إلا ورأيت فيه من تصانيفه»[٥].

(١) «ثلاث تراجم نفيسة، للمزي، (ص: ٢١ – ٢٢).

(٢) «المواعظ والاعتبار»، للمقريزي: (٤/ ١٩٢).

(٣) «ذيل طبقات الحنابلة»، لابن رجب الحنبلي: (٤/ ٤٩٢ – ٤٩٣).

(٤) «العقود الدرية»، لابن عبد الهادي، (ص: ٤٢).

(٥) «الأعلام العلية» للبزار، (ص: ٢٣).

وقد شملت مؤلفات ابن تيمية أغلب الفنون، ومن مؤلفاته نذكر ما يلي[1]:

١- الإيمان.

٢- الاستقامة.

٣- تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية.

٤- درء تعارض العقل والنقل.

٥- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية.

٦- الجواب الصّحيح لمن بدل دين المسيح.

٧- التدمرية.

٨- الفتيا الحموية.

٩- الواسطية.

١٠- الفرقان بيان أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

١١- شرح العمدة.

١٢- شرح المحرر.

١٣- الصارم المسلول على شاتم الرسول.

١٤- اقتضاء الصراط المستقيم في الرد على أصحاب الجحيم.

١٥- دفع الملام عن الأئمة الأعلام.

---

(١) ينظر: «العقود الدرية»، لابن عبد الهادي، (ص: ٤٢)، وما بعدها، و«الأعلام العلية»، للبزار، (ص: ٢٠)، وما بعدها.

١٦- السياسة الشرعية لإصلاح الراعي والرعية.

١٧ التوسل والوسيلة.

١٨- الصفدية.

١٩- النبوات.

٢٠- مجموع الفتاوى.

٢١- التحفة العراقية في الأعمال القلبية.

٢٢- مقدمة في علم التفسير.

وأغلب مؤلفات ابن تيمية - بحمد الله - مطبوعة متداولة، وبعضها ما زال مخطوطاً لم يطبع، وبعضها في عداد المفقود.

محنته:

تعتبر المحنة التي تعرّض لها ابن تيمية محنة من طراز خاص، حيث لانظير لها في تاريخ محن علماء الأمة؛ ذلك أن حياة ابن تيمية بطولها من أولها لآخرها كانت عبارة عن محنة مستمرة، فقد ظل طوال حياته ينتقل من محنة لأخرى، ومن ابتلاء لآخر، ومن سجن لمعتقل، ومن الشام لمصر، ومن سلطان جائر لفقيه متعصب، ومن حاسد لحاقد.

وقد شملت محنته كافة صنوف الأذى، حيث منع من الإفتاء والتدريس، وشهّر به في كل مكان، ونفي، وعذّب، وسجن؛ حتى وصل الأمر بأهل الباطل إلى تكفيره، وحبك المؤامرات والدسائس لتصفيته، وسفك دمه، ولكن أنّى لهم ذلك؟ فإن عين الله تحرسه، ومعيته تحوطه.

وقد أشار ابن تيمية إلى أبرز المحن التي تعرّض لها؛ حيث قال: «ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري أين رحت: فجنتي معي لا تفارقني، إنّ حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة»[١].

وفيما يلي نلفت نظر القارئ إلى خطوط عريضة عن محنته:

المحنة الأولى: كانت في القاهرة: حيث تمّ استجوابه من دمشق إلى القاهرة بتآمر من قبل السلطات الحاكمة في الشام ومصر (عام ٧٠٥هـ)، ثم سجن في القاهرة (سنة ونصف).

والسبب وراء هذه المحنة: أهل الباطل من الصوفية الجهلاء؛ كما ذكر ذلك ابن كثير في حوادث عام ٧٠٥هـ ما معناه: أن السلطان بيبرس الجاشنكير طلب ابن تيمية إلى مصر يوم الخامس من رمضان عام ٧٠٥هـ، حيث توجّه إليها ابن تيمية فدخلها يوم ٢٢ رمضان، فعقد له مجلس بالقلعة، وقد اجتمع فيها القضاة وأكابر الدولة، وفي المجلس أراد ابن تيمية الكلام إلا أنه لم يسمح له، وادّعى عليه ابن مخلوف المالكي (قاضي المالكية وكان من أشد خصوم ابن تيمية، ونصر المنبجي (الصوفي الضال الحلولي الاتحادي، وكان صاحب حظوة ووجاهة عند أمير مصر بيبرس الجاشنكير) حيث ادّعى ابن مخلوف على ابن تيمية أنه يقول: «إن الله فوق العرش حقيقة، وأن الله يتكلم بحرف وصوت»، فسأله القاضي عن ذلك، فأخذ ابن تيمية يبدأ حديثه في حمد الله والثناء عليه، فقيل له: أجب، ما جئنا بك لتخطب، فعلم أنها المحاكمة لا المجادلة؟

---

(١) «الوابل الصيب»، لابن القيم، (ص: ٤٨).

فقال: ومن الحاكم في؟

قيل له: القاضي المالكي، فقال له الشيخ: كيف تحكم فيّ وأنت خصمي؟

فغضب غضباً شديداً وانزعج، فأصدر حكمه عليه، وحبس ابن تيمية في برج أياماً، ثم نقل مع أخويه شرف الدين عبد الله وزين الدين عبدالرحمن إلى الحبس المعروف باسم «الجبّ» في ليلة عيد الفطر[١].

وقد حاول بعض العلماء إخراج ابن تيمية من السجن مقابل أن يرجع عن بعض النقاط في العقيدة، ولكن ابن تيمية رفض، وآثر السجن على التنازل عما يعتقد، حيث بقي في سجن الجب ثمانية عشر شهراً، ثم خرج بشفاعة الأمير حسام الدين مهنا ملك العرب يوم الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الأول، سنة سبع وسبعمائة[٢].

المحنة الثانية: كانت في الإسكندرية: حيث تم نفي ابن تيمية من القاهرة إلى الإسكندرية (عام ٧٠٩هـ)، ثم سجن الإسكندرية (سبعة أشهر).

والسبب في ذلك: أن أهل الباطل من الأشاعرة ومعهم الصوفية ألّبوا عليه القاضي، وتقدّموا بشكاية ضده فحواها: أن ابن تيمية يتناول ابن عربي وغيره من أعلام التصوف، فقرر القاضي نفي ابن تيمية إلى الإسكندرية، وفيها سجن سبعة أشهر، حيث دخل السجن في شهر صفر عام ٧٠٩هـ، وخرج منه يوم عيد الفطر عام ٧٠٩هـ[٣].

---

(١) ينظر: «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٤/ ٤٣).

(٢) ينظر: «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٤/ ٥١).

(٣) ينظر: «العقود الدرية»، لابن عبد الهادي، (ص: ٢٨٣).

المحنة الثالثة: كانت في دمشق: حيث تم سجن ابن تيمية هناك عدة مرات:

المرة الأولى: كانت (عام ٧٢٠هـ) (لمدة ستة أشهر).

والسبب في ذلك: فتوى ابن تيمية بأن الطلاق البدعي لا يقع، وأن الطلاق بالثلاثة إنما يقع واحدة، وأن الحلف بالطلاق يقع يميناً إذا لم ينو به الطلاق، فثارت عليه ثورة عنيفة من أهل الباطل، حيث تم جمع علماء المذاهب لمناقشته ومناظرته، إلا أنه ألزمهم الحجة، وألزمهم المحجة، فلجأوا إلى تأليب الولاة والحكام عليه، حيث أمر نائب السلطنة بسجنه بسبب هذه الفتوى، حيث سجن في القلعة بدمشق، ولم يخرج منه إلا في العاشر من محرم سنة ٧٢١هـ بأمر من السلطان.

المرة الثانية: كانت عام ٧٢٦هـ حيث سجن في دمشق (لمدة سنتين وثلاثة أشهر)[(١)].

والسبب فتواه في مسألة: «شد الرحال وإعمال المطي إلى قبور الأنبياء والصالحين»، حيث تم العثور على جواب لابن تيمية كتبه قبل سبعة عشر عاماً، يتضمّن الجواب القولين الواردين في المسألة، وترجيحه لأحدهما.

إلا أن أهل الباطل -كعادتهم دائماً- حرّفوا فتواه وسعوا فيه إلى

(١) وقد اعتقل وسجن مع ابن تيمية في سجن القلعة في دمشق جماعة من أصحابه، ثم أطلقوا عدا ابن قيم الجوزية؛ فقد بقي محبوساً فيها حتى توفي ابن تيمية، ولم يفرج عنه إلا بعد وفاة ابن تيمية بشهر.

السلطان، حيث تم أمره باعتقاله وسجنه في سجن القلعة في دمشق في يوم ٦ شعبان سنة ٧٢٦هـ[١].

وقد أشار إلى ذلك العلماء الذين ترجموا لابن تيمية، ومن ذلك:
ابن كثير حيث قال في: «يوم الخميس دخل القاضي بدر الدين بن جملة وناصر الدين مشد الأوقاف، وسألاه عن مضمون قوله في مسألة الزيارة، فكتب ذلك في درج وكتب تحته قاضي الشافعية بدمشق: قابلت الجواب عن هذا السؤال المكتوب على خط ابن تيمية إلى أن قال: وإنما المحز جعله زيارة قبر النبي ﷺ، وقبور الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصية بالإجماع مقطوعاً بها»[٢].

قال ابن كثير معلّقاً على ذلك: «فانظر الآن هذا التحريف على شيخ الإسلام، فإن جوابه على هذه المسألة ليس فيه منع زيارة قبور الأنبياء والصالحين، وإنما فيه ذكر قولين في شد الرحل والسفر إلى مجرد زيارة القبور، وزيارة القبور من غير شد رحل إليها مسألة، وشد الرحل لمجرد الزيارة مسألة أخرى، والشيخ لم يمنع الزيارة الخالية عن شد رحل، بل يستحبها ويندب إليها، وكتبه ومناسكه تشهد بذلك، ولم يتعرّض إلى هذه الزيارة على هذا الوجه في الفتيا، ولا قال: إنها معصية، ولا حكى الإجماع على المنع منها... والله سبحانه لا يخفى عليه شيء، ولا يخفى عليه خافية:

---

(١) ينظر: «العقود الدرية»، لابن عبد الهادي، (ص: ٣٤٥).
(٢) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٤/ ١٤٣).

﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧﴾[١]،[٢].

وقبل السجن تعرّض ابن تيمية للمنع من التدريس والإفتاء والتشهير والضرب والتعذيب، وقد بلغ مجموع سنوات سجنه خلال الأربع المرات التي سبق ذكرها: خمس سنوات تقريباً.

وفي السجن ضيّق على ابن تيمية، ومنع من الكتابة، ولم يترك عنده دواة ولا قلم ولا ورق.

وقد أراد أهل الباطل من خلال التشهير بابن تيمية ومنعه من التدريس والإفتاء، ونفيه وتعذيبه وسجنه؛ تحجيم علمه، والفتك من إرادته وعزيمته، ولكن أنّى لهم ذلك أمام هذا الإمام الفذ الشجاع المقدام؟ فلقد استطاع ابن تيمية -بفضل الله- مواجهة هذه المحنة بوسائل عدة تمكن من خلالها تحويل محنته إلى منحة.

قال البزار: «ولقد سجن أزماناً وأعصاراً وسنين وشهوراً ولم يولّهم دبره فراراً، ولقد قصد أعداؤه الفتك به مراراً، وأوسعوا حيلهم عليه إعلاناً وإسراراً؛ فجعل الله حفظه منهم له شعاراً ودثاراً، ولقد ظنّوا أن في حبسه مشينة فجعله الله له فضيلة وزينة، وظهر له يوم موته ما لو رآه واده أقرّ به عينيه، فإن الله تعالى لعلمه بقرب أجله ألبسه الفراغ عن الخلق للقدوم على الحق أجمل حلله، كونه حبس على غير جريرة ولا جريمة، بل على قوّة في الحق وعزيمة. هذا مع ما نشر الله له من علومه في الآفاق وبهر

---

(١) سورة الشعراء، آية: ٢٢٧.

(٢) ينظر: «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٤/ ١٤٣).

بفنونه البصائر والأحداق، وملأ بمحاسن مؤلفاته الصّحف والأوراق كبتاً ورغماً للأعداء أهل البدع المضلة والأهواء، وصنعة عظيمة من رب السّماء لعوائده لخاصة الأولياء أهل المحبّة والولاء»[١].

وفيما يلي تلخيص لأبرز السبل التي سلكها ابن تيمية في محنته، وهي:

أولاً: العلم المستمد من الكتاب والسّنّة على فهم السلف.

ويظهر ذلك جلياً في مؤلفاته وفي رده على خصومه ومخالفيه.

ثانيا: الشجاعة، ورباطة الجأش، قال ابن عبد الهادي مبيناً حال ابن تيمية أثناء إحدى المحن التي تعرّض لها: «كان ثابت الجأش، قوي القلب، وظهر صدق توكّله، واعتماده على ربه»[٢].

ثالثاً: الثناء على الله، وشكره على نعمه، قال ابن القيم: «وكان في القلعة يقول: لو بذلت ملء هذه القلعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة، أو قال ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير.. ونحو هذا»[٣].

رابعاً: الرضا والطمأنينة، قال ابن القيم: «لما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه، وقال:

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾[٤]

(١) «الأعلام العلية»، للبزار، (ص: ٧٧).

(٢) «العقود الدرية»، لابن عبد الهادي، (ص: ٣٤٤).

(٣) «الوابل الصيب»، لابن القيم، (ص: ٤٨).

(٤) سورة الحديد، آية: ١٣.

وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً، وأسرّهم نفساً، تلوح نضرة النعيم على وجهه»[١].

خامساً: الانشغال بالقرآن تدبراً وتأملاً وتطبيقاً، وتلاوة، قال ابن عبدالهادي: «ختم ابن تيمية القرآن مدة إقامته بسجن القلعة ثمانين أو إحدى وثمانين ختمة انتهى في آخر ختمة إلى آخر سورة «اقتربت الساعة»:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾[٢]

وكان ابن تيمية يقرأ كل يوم ثلاثة أجزاء، ويختم في عشرة أيام»[٣].

سادساً: الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال ابن عبدالهادي: «لما دخل الحبس (في القاهرة) وجد المحابيس مشتغلين بأنواع من اللعب يلتهون بها عمّا هم فيه، كالشطرنج، والنرد، ونحو ذلك من تضييع الصلوات... فأنكر الشيخ عليهم ذلك أشدّ الإنكار، وأمرهم بملازمة الصلاة والتوجّه إلى الله بالأعمال الصالحة والتسبيح، والاستغفار، والدعاء، وعلّمهم من السّنّة ما يحتاجون إليه، ورغّبهم في أعمال الخير، وحضّهم على ذلك؛ حتى صار الحبس بما فيه من الاشتغال بالعلم والدّين خيراً من الزّوايا والرّبط والخوانق والمدارس، وصار خلقٌ

(١) «الوابل الصيب»، لابن القيم، (ص: ٤٨).

(٢) سورة القمر، آية: ٥٤، ٥٥.

(٣) «العقود الدرية»، لابن عبد الهادي، (ص: ٣٨٤).

من المحابيس إذا أطلقوا يختارون الإقامة عنده، وكثر المتردّدون إليه؛ حتى كان السجن يمتلئ بهم»[١].

وقد ذكر العلماء الذين ترجموا لابن تيمية أنه في سجنه، وعلى وجه التحديد في سجن القلعة بدمشق أرشد المساجين إلى المحافظة على الجماعة والجمعة، ورغّبهم في ذلك، فاستجابوا لذلك، وكان يقيم ابن تيمية بمن معه في السجن صلاة الجماعة والجمعة.

سابعاً: كتابة الكتب ونشر الرسائل العلمية، قال البزار: «في محنته الأولى بمصر صنّف عدة كتب صغاراً وكباراً»[٢].

ثامناً: العدل والإنصاف حتى مع خصومه وأعدائه، قال: «وأنا في سعة صدر لمن يخالفني فإنه وإن تعدّى حدود الله فيّ بتكفير أو تفسيق أو افتراء أو عصبية جاهلية، فأنا لا أتعدّى حدود الله فيه».

تاسعاً: العفو والصفح عمّن آذاه، وتسبب في محنته، فقد جاء في آخر كتاب بعث به ابن تيمية من مصر إلى دمشق: «لا أحب أن ينتصر من أحد بسبب كذبه عليّ أو ظلمه وعدوانه؛ فإني قد أحللت كل مسلم، وأنا أحب الخير لكل المسلمين، وأريد بكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي، والذين كذبوا وظلموا فهم في حل من جهتي، وأما ما يتعلّق بحقوق الله فإن تابوا أتاب الله عليهم وإلا فحكم الله نافذ فيهم»[٣].

---

(١) «العقود الدرّية»، لابن عبد الهادي، (ص: ٢٦٩).

(٢) «الأعلام العلية»، للبزار، (ص: ٢٢).

(٣) «العقود الدرية»، لابن عبد الهادي، (ص: ٢٨١).

وقال أيضاً: «وقد أحللت كل واحد مما كان بيني وبينه إلا من كان عدواً لله ورسوله»[١].

وقال ابن مخلوف (وهو ممن كانوا سبباً في محنة ابن تيمية): «ما رأينا أتقى من ابن تيمية، لم نبق ممكنا في السعي فيه، ولما قدر علينا عفا عنّا»[٢].

وقد زاد الله ابن تيمية بهذه المحنة رفعة ومكانة، وخلّد ذكره في الخالدين الصادقين، ونفع الله بعلمه ومؤلفاته المسلمين.

قال البزار: «لقد قصد أعداؤه الفتك به مراراً، وأوسعوا حيلهم عليه إعلاناً وإسراراً؛ فجعل الله حفظه منهم له شعاراً ودثاراً، ولقد ظنّوا أن في حبسه مشينة فجعله الله له فضيلة وزينة، وظهر له يوم موته ما لو رآه واده أقر به عينيه... مع ما نشر الله له من علومه في الآفاق، وبهر بفنونه البصائر والأحداق، وملأ بمحاسن مؤلفاته الصّحف والأوراق كبتاً ورغماً للأعداء»[٣].

وأما الذين تسبّبوا في محنة ابن تيمية وأذيته فقد نسيهم التاريخ، وإن ذكروا فعلى سبيل التعريف والذم والتوبيخ؛ جراء فعائلهم الشنيعة، وعقائدهم المنحرفة، وأخلاقهم السافلة، وتشجيعهم للظالمين على ظلم العلماء الصادقين.

---

(١) «الأعلام العلية»، للبزار، (ص: ٨٢).
(٢) «العقود الدرية»، لابن عبد الهادي، (ص: ٢٩٩).
(٣) «الأعلام العلية»، للبزار، (ص: ٧٧).

وفاته[1]:

توفي ابن تيمية في ٢٠ من ذي القعدة سنة ٧٢٨ هـ مظلوماً مضطهداً في سجن القلعة دمشق، وقد بلغ من العمر ٦٧ سنة، بعدما استمر به مرضه قرابة الثلاثة أسابيع. وكانت آخر آية قرأها ابن تيمة قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[2]

ثم فاضت روحه إلى بارئها.

وما أن وصل الخبر إلى أهالي دمشق، حتى اجتمع حشد كبير منهم حول القلعة، وفتح باب القلعة لمن يدخل من الخاصة والعامة.

وصلى عليه صلاة الجنازة بالقلعة «الشيخ محمد بن تمام»، وأخرجت الجنازة بعد الصلاة، وامتلأت الطرقات بين القلعة والمسجد بالناس، وحضرت الجنازة قبل الظهر للجامع، وصلي عليه عقب صلاة الظهر في الجامع الأموي، وقد صلى عليه «الشيخ علاء الدين الخراط».

وما وصل خبر موته إلى بلد إلا وصلي عليه في جميع جوامعه ومجامعه، خصوصاً أرض مصر والشّام والعراق وتبريز والبصرة وقراها وغيرها.

ووضعت الجنازة وهي في طريقها إلى المقبرة بسوق الخيل بسبب كثرة الناس فصلي عليه هناك، وتقدّم للصلاة عليه أخوه «زين الدين

---

(١) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٤/ ١٥٦).

(٢) سورة القمر، آية: ٥٤، ٥٥.

عبدالرحمن»، ثم حملت الجنازة إلى «مقبرة الصوفية»، ودفن بجانب أخيه «شرف الدين عبد الله»، وكان دفنه قبل العصر بقليل بسبب كثرة من يأتي ويصلي عليه.

ويقدّر عدد من حضر إلى جنازة ابن تيمية من الرجال من بين ستين ألفاً إلى مائة ألف، وقدرت أعداد النساء بخمسة عشر ألف امرأة عدا من كن على الأسطح، قال البزار: «ولم ير لجنازة أحد ما رئي لجنازته من الوقار والهيبة والعظمة والجلالة وتعظيم النّاس لها وتوقيرهم إيّاها وتفخيمهم أمر صاحبها وثنائهم عليه»[١].

وقد بكاه العلماء ورثاه الشعراء بقصائد شعرية تدمي القلوب، ومنها: قصيدة لرجل جندي من أهل مصر أرسلها، وذكر أنه عرضها على الإمام ابن حيان النحوي، ومنها:

خطب دنا فبكى له الإسلام

وبكت لعظم بكائه الأيام

بحر العلوم وكنز كل فضيلة

في الدهر فرد في الزمان إمام

ورثاه أبو الثناء الدقوقي بقصيدة مطلعها:

قف بالربوع الهامدات وعدد

وذر الدموع الجامدات وبدد

---

(١) «الأعلام العلية»، للبزار، (ص: ٨٤).

ورثاه الذهبي بقصيدة مطلعها:

يـا مـوت خـذ مـن أردت أو فدع

محوت من رسم العلوم والورع(١)

رحـم الله ابـن تيمية وجعله مـع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

آمين اللهم آمين.

(١) ينظر: «الأعـلام العلية»، للبزار، (ص: ٨١) وما بعدها، و«العقود الدرية»، لابن عبدالهادي، (ص: ٥٢٣)، وما بعدها، و«الرد الوافر»، لابن ناصر الدين، (ص: ٦٦).

(١٠) ابن قيم الجوزية

اسمه ونسبه:

أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز، الزّرعي الأصل، ثم الدمشقي، الحنبلي، العلامة الكبير، المجتهد المطلق، المصنف المشهور(١)، وقد اشتهر بين العلماء المتقدمين والمتأخرين بابن قيّم الجوزية، وسبب شهرته بذلك: أن أباه أبا بكر بن أيوب الزّرعي كان قيّما(٢) على المدرسة الجوزية بدمشق مدة من الزمن، فقيل له: «قيم الجوزية»(٣).

واشتهرت به ذريته وحفدته من بعده، فصار الواحد يدعى منهم بابن قيم الجوزية. وقد سمّيت هذه المدرسة بالجوزية نسبة إلى واقفها: «ابن الجوزي» عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي ابن الجوزي البكري(٤)، وتعتبر هذه المدرسة من أعظم مدارس الحنابلة بدمشق الشام.

مولده ونشأته:

ولد ابن قيم الجوزية في سنة إحدى وتسعين وستمائة للهجرة(٥)، وحدد الصّفدي اليوم والشهر الذي ولد فيه ابن قيم الجوزية، فقال:

---

(١) ينظر: «شذرات الذهب»، لابن العماد الحنبلي: (٨/ ٢٨٧).

(٢) القيّم هو الناظر أو الوصي، وهو ما يشبه المدير في زمننا.

(٣) ينظر: «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٤/ ٩٥)، و«الدرر الكامنة»، لابن حجر: (١/ ٤٧٢).

(٤) ينظر: «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: (٢٢/ ٣٥٢).

(٥) ينظر: «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٤/ ٢٧٠).

«مولده سابع صفر، سنة إحدى وتسعين وستمائة»[١]، وتابعه على ذلك السيوطي[٢].

وقد نص الزركلي[٣] على أنه ولد بدمشق.

وأما نشأة ابن قيم الجوزية، فقد نشأ في بيت علم وصلاح وتقى، فوالده أبو بكر بن أيوب، عالم جليل، ورجل عابد، وقد كان قيّما على المدرسة الجوزية بدمشق، قال ابن كثير عنه: «كان رجلاً صالحاً متعبداً، قليل التكلّف، وكان فاضلاً»[٤]. وكان لديه اليد الطولى في علم الفرائض[٥].

وأخوه زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي بكر؛ إمام عالم، تتلمذ على يديه كثير من العلماء منهم: الحافظ ابن رجب الحنبلي[٦].

ففي بيئة علمية خالصة نشأ ابن قيم الجوزية منذ صغره؛ حيث كان يتقلّب في رحاب العلم من دار أسرته، إلى المدرسة الجوزية، وبجو دمشق الذي كان يعجّ آنذاك بعشرات المدارس والجوامع، وفيها الدروس مفتوحة أمام كل طالب وسامع.

---

(١) «الوافي بالوفيات»، للصفدي: (٢/ ١٩٥).

(٢) «بغية الوعاة»، للسيوطي: (١/ ٦٢).

(٣) ينظر: «الأعلام»، للزركلي: (٦/ ٥٦)، و«معجم المؤلفين»، لعمر رضا كحالة: (٩/ ١٠٦).

(٤) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٤/ ١٢٦).

(٥) «الوافي بالوفيات»، للصفدي: (٢/ ١٩٥).

(٦) ينظر: «شذرات الذهب»، لابن العماد الحنبلي: (٨/ ٣٧٠).

وقد آتاه الله ألمعية نادرة، وذكاءً مفرطاً، وأريحية كريمة، حتى العلماء الذين ترجموا له أطبقوا على أنه كان حسن الخلق، لطيف المعاشرة، طيب السريرة، عالي الهمة، ثابت الجنان[١].

وقد عرف عن ابن قيم الجوزية الرغبة الصادقة الجامحة في طلب العلم، والجلد والتّفاني في البحث منذ نعومة أظفاره؛ فقد سمع من الشّهاب العابر؛ كما حكى ذلك بنفسه فقال: «وسمّعت عليه عدّة أجزاء، ولم يتفق لي قراءة هذا العلم عليه؛ لصغر السّنّ، واخترام المنية له»[٢].

وقد أقبل على تحصيل العلم منذ صغره بهمّة عالية، وحرص فريد، وذكاء حاد، فحصل علماً جماً في شتى العلوم النافعة.

ثناء العلماء عليه:

تشرّبت قلوب العلماء الصادقين بمحبة ابن قيم الجوزية، بل لقد كان «محبوباً عند الناس»[٣] عموماً، وقد فاحت ألسنة العلماء بالثناء عليه، وسالت أقلامهم بتدوين ذلك في كتبهم، وفي هذه الأسطر نقتطف شيئاً يسيراً من أقوال العلماء في الثناء عليه، ومن ذلك:

قال ابن رجب: «الفقيه الأصولي، المفسر النحوي، العارف»[٤].

---

(١) ينظر: «ابن قيم الجوزية»، لبكر بن عبد الله أبو زيد، (ص: ٤٤).

(٢) ينظر: «الوافي بالوفيات»، للصفدي: (٢/ ١٩٥- ١٩٦)، و«أعيان العصر»، للصفدي: (٤/ ٣٦٦).

(٣) «الأعلام»، للزركلي: (٦/ ٥٦).

(٤) «ذيل طبقات الحنابلة»، لابن رجب: (٥/ ١٧١).

وقال أيضاً: «تفقّه في المذهب، وبرع وأفتى، ولازم الشيخ تقي الدين، وأخذ عنه، وتفنن في علوم الإسلام، وكان عارفاً بالتفسير لا يجارى فيه، وبأصول الدين، وإليه فيهما المنتهى، والحديث ومعانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط منه، لا يلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله وبالعربية، وله فيها اليد الطولى، وتعلّم الكلام والنحو، وغير ذلك، وكان عالماً بعلم السلوك، وكلام أهل التصوف، وإشاراتهم، ودقائقهم؛ له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى»[١].

وقال أيضاً: «كان ذا عبادة وتهجّد وطول صلاة إلى الغاية القصوى، وتألّه ولهج بالذكر، وشغف بالمحبة والإنابة والاستغفار والافتقار إلى الله والانكسار له، والإطراح بين يديه على عتبة عبوديته، لم أشاهد مثله في ذلك، ولا رأيت أوسع منه علماً، ولا أعرف بمعاني القرآن والسّنّة وحقائق الإيمان منه، وليس هو بالمعصوم، ولكن لم أر في معناه مثله»[٢].

وقال الزركلي: «من أركان الإصلاح الإسلامي، وأحد كبار العلماء»[٣].

وقال ابن العماد الحنبلي: «الفقيه الحنبلي، بل المجتهد المطلق، المفسّر النّحويّ الأصولي، المتكلم»[٤].

---

(١) «ذيل طبقات الحنابلة»، لابن رجب: (٥/ ١٧١ - ١٧٢).

(٢) «ذيل طبقات الحنابلة»، لابن رجب: (٥/ ١٧٢- ١٧٣).

(٣) «الأعلام»، للزركلي: (٦/ ٥٦).

(٤) «شذرات الذهب»، لابن العماد الحنبلي: (٨/ ٢٨٧).

وقال عمر رضا كحالة: «فقيه، أصولي، مجتهد، مفسر، متكلم، نحوي، محدّث، مشارك في غير ذلك»[١].

وقال القاضي الزرعي: «ما تحت أديم السماء أوسع علماً منه»[٢].

وقال ابن ناصر الدين الدمشقي: «الشيخ الإمام العلامة شمس الدين، أحد المحققين علم المصنفين، نادرة المفسرين، له التصانيف الأنيقة، والتآليف التي فيها علوم الشريعة والحقيقة»[٣].

وقال الآلوسي: «النحوي الأصولي المتكلم»[٤].

وقال الصفدي: «وكان ذا ذهن سيّال، وفكر إلى حل الغوامض ميّال، قد أكبّ على الاشتغال، وطلب من العلوم كل ما هو نفيس غال، وناظر وجادل وجالد الخصوم وعادل، قد تبحر في العربية وأتقنها، وحرر قواعدها ومكنها، واستطال بالأصول، وأرهف منها الأسنة والنصول، وقام بالحديث وروى منه، وعرف الرجال وكل من أخذ عنه. وأما التفسير فكان يستحضر من بحاره الزخّارة كل فائدة مهمة، ومن كواكبه السيّارة كل نير يجلو حنادس الظلمة.

وأما الخلاف ومذاهب السلف فذاك عشه الذي منه درج، وغابه

---

(١) «معجم المؤلفين»، لعمر رضا كحالة: (٩/ ١٠٦).

(٢) «ذيل طبقات الحنابلة»، لابن رجب: (٥/ ١٧٤)، و«شذرات الذهب»، لابن العماد الحنبلي: (٨/ ٢٨٨)، و«المقصد الأرشد»، لابن مفلح: (٢/ ٣٨٥).

(٣) «الرد الوافر»، لابن ناصر الدين، (ص: ٦٨).

(٤) «جلاء العينين»، للألوسي، (ص: ٤٤).

الذي ألفه ليثه الخادر ودخل وخرج. وكان جريء الجنان، ثابت الجأش، لا يقعقع له بالشنان، وله إقدام وتمكن أقدام، وحظه موفور، وقبوله كل ذنب معه مغفور»[١].

وقال ابن تغري بردي: «وكان بارعا في عدّة علوم، ما بين تفسير وفقه وعربيّة ونحو وحديث وأصول وفروع، ولزم شيخ الإسلام تقي الدين بن تيميّة بعد عودته من القاهرة في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، وأخذ منه علماً كثيراً، حتّى صار أحد أفراد زمانه، وتصدّى للإقراء والإفتاء سنين، وانتفع به الناس قاطبة»[٢].

وقال ابن كثير: «كان حسن القراءة والخلق، كثير التودد، لا يحسد أحداً ولا يؤذيه ولا يستعيبه، ولا يحقد على أحد. وكان قليل النظر في مجموعه وأموره وأحواله، والغالب عليه الخير، والأخلاق الفاضلة»[٣].

وقال أيضاً: «لا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه، وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جداً، ويمد ركوعها وسجودها»[٤].

وقال السيوطي: «صنّف وناظر واجتهد، وصار من الأئمة الكبار في التفسير والحديث والفروع والأصلين، والعربية»[٥].

---

(١) «أعيان العصر»، للصفدي: (٤/ ٣٦٧ - ٣٦٨).
(٢) «النجوم الزاهرة»، لابن تغري بردي: (١٠/ ٢٤٩).
(٣) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٤/ ٢٧٠).
(٤) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٤/ ٢٧٠).
(٥) «بغية الوعاة»، للسيوطي: (١/ ٦٣).

وقال الشوكاني: «برع في شتى العلوم، وفاق الأقران، واشتهر في الآفاق، وتبحّر في معرفة مذاهب السلف»[1].

وقال أيضاً: «كان متقيداً بالأدلة الصحيحة، معجبا بالعمل بها، غير معول على الرأي، صادعاً بالحق لا يحابي فيه أحداً، ونعمت الجرأة»[2].

وقال أيضاً: «سرت إليه بركة ملازمته لشيخه ابن تيمية في السّرّاء والضّرّاء، والقيام معه في محنه ومؤاساته بنفسه، وطول تردده إليه»[3].

وقال أيضاً: «أحد من قام بنشر السنة، وجعلها بينه وبين الآراء المحدثة أعظم جنّة، فرحمه الله وجزاه عن المسلمين خيراً»[4].

وقال الحجوي: «عني بالحديث ورجاله، واشتغل بالفقه، ويجيده، والنحو والأصلين، وكان غاية في التفسير والأصول، نشر العلم والسّنّة... وكان على جانب عظيم في التعبّد، والتألّه، ولعظيم رتبته في العلوم وصف بأنه المجتهد المطلق، وأنه لحقيق بذلك، وأن تواليفه لشاهد عدل لا يقبل الرضا على فضله وعلمه يطول بنا ذكر أسمائها... وذوقه في الاستنباط، وفهم القرآن وحل المشكلات عجيب مع حفظ راسخ، ومجد شامخ»[5].

---

(١) «البدر الطالع»، للشوكاني: (٢/ ١٤٣).

(٢) «البدر الطالع»، للشوكاني: (٢/ ١٤٣).

(٣) «البدر الطالع»، للشوكاني: (٢/ ١٤٤ - ١٤٥).

(٤) «البدر الطالع»، للشوكاني: (٢/ ١٤٤ - ١٤٥).

(٥) «الفكر السامي»، للحجوي: (٢/ ٤٣٦).

مؤلفاته:

رزق ابن قيم الجوزية ذهناً سيالاً، وقلماً دفاقاً؛ كما تشير إلى ذلك مؤلفاته في شتى العلوم، والتي أثرى بها المكتبة الإسلامية، قال ابن رجب: «صنّف تصانيف كثيرة جداً في أنواع العلم»(١).

ومن مؤلفاته نذكر (على وجه الاختصار) ما يلي(٢):

١- اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطّلة والجهمية.

٢- أحكام أهل الذمة.

٣- إعلام الموقعين عن رب العالمين.

٤- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان.

٥- بدائع الفوائد.

٦- تحفة المودود في أحكام المولود.

٧- تهذيب مختصر سنن أبي داود.

٨- الجواب الكافي، المسمّى: «الداء والدواء».

٩- جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على محمد ﷺ خير الأنام.

١٠- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح.

١١- حكم تارك الصلاة.

١٢- الرسالة التبوكية.

---

(١) «ذيل طبقات الحنابلة»، لابن رجب: (٥/ ١٧٤).

(٢) ينظر: «شذرات الذهب»، لابن العماد: (٨/ ٢٨٩ - ٢٩١).

١٣- روضة المحبين ونزهة المشتاقين.

١٤- الروح.

١٥- زاد المعاد في هدي خير العباد.

١٦- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل.

١٧- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطّلة.

١٨- طريق الهجرتين وباب السعادتين.

١٩- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية.

٢٠- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين.

٢١- الفروسية.

٢٢- الفوائد.

٢٣- الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية «القصيدة النونية».

٢٤- الكلام على مسألة السماع.

٢٥- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين.

٢٦- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة.

٢٧- المنار المنيف في الصحيح والضعيف.

٢٨- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى.

٢٩- الوابل الصيب في الكلم الطيب.

وغير ذلك من مؤلفاته البديعة.

وقد أعجبت جميع الطوائف بمؤلفاته، قال ابن حجر: «وكل تصانيفه مرغوب فيها بين الطوائف»[١].

وتسابق العلماء وطلاب العلم لاقتناء مؤلفاته، وتدريسها، وشرحها، ومطالعتها، والاستشهاد بما تضمنته من علوم ومعارف.

محنته:

عاش ابن قيم الجوزية في عصر زاخر بالعلوم والمعارف، مليء بالخلاف العقدي، والاختلاف المذهبي، والتعصب المقيت، ولكنه تحرر من ذلك الواقع المرير منذ أن أخذ عن شيخه ابن تيمية: راية النصرة للكتاب والسنة[٢]، فقام بالصدع بالحق غير هيّاب ولا وجل، قال الشوكاني: «كان متقيداً بالأدلة الصحيحة معجباً بالعمل بها غير معوّل على الرأي صادعً بالحق، لا يحابي فيه أحداً، ونعمت الجرأة»[٣].

وقد ذكر علماء السير والتراجم الذين ترجموا له ثلاث فتاوى امتحن بسببها، وهي:

الأولى: المسابقة بغير محلّل:

حيث أفتى بجواز إجراء السباق بين الخيل بغير محلّل، وقد بيّن هذه المسألة في كثير من مؤلفاته، بل ألّف في هذه المسألة رسائل، ومنها: «بيان

(١) «الدرر الكامنة»، لابن حجر: (٥/ ١٣٩).
(٢) «البدر الطالع»، للشوكاني: (٢/ ١٤٥).
(٣) «البدر الطالع»، للشوكاني: (٢/ ١٤٣- ١٤٤).

الدليل على استغناء المسابقة عن التحليل»، أو «بيان الاستدلال على بطلان محلل السباق والنضال»، ورسالة: «الفروسية»[١].

وقد أشار ابن حجر إلى محنته هذه بقوله: «وجرت له محن مع القضاة؛ منها: في ربيع الأول (يعني سنة ٧٤٦هـ) طلبه السبكي بسبب فتواه بجواز المسابقة بغير محلّل»[٢].

وقد حكى ابن حجر أنه رجع عن هذه الفتوى[٣]، ولكن القول برجوعه عن هذه الفتوى محل نظر، بل الثابت عنه عدم رجوعه عنها كما تدل على ذلك مؤلفاته التي تطرق فيها لهذه المسألة، ومنها كتاب: «الفروسية».

الثانية: طلاق الثلاث بلفظ واحد:

أفتى ابن قيم الجوزية (تبعاً لشيخه ابن تيمية): أن طلاق الثلاث بلفظ واحد يعد طلقة واحدة؛ خلافاً لعامة العلماء الذي يعتبرون طلاق الثلاث بلفظ واحد ثلاثاً لا واحدة. **قال ابن كثير:** «كان متصدياً للإفتاء بمسألة الطلاق التي اختارها الشيخ تقي الدين ابن تيمية، وجرت بسببها فصولٌ يطول بسطها مع قاضي القضاة تقي الدين السبكي وغيره»[٤].

وقد حكى ابن كثير أنه حصل صلح بين قاضي القضاة تقي الدين

---

(١) «ذيل طبقات الحنابلة»، لابن رجب: (٥/ ١٧٥)، و«شذرات الذهب»، لابن العماد الحنبلي: (٨/ ٢٨٩)، و«الوافي بالوفيات»، للصفدي: (٢/ ١٩٦).

(٢) «الدرر الكامنة»، لابن حجر: (٥/ ١٤٠).

(٣) «الدرر الكامنة»، لابن حجر: (٥/ ١٤٠).

(٤) «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٤/ ٢٧٠).

السبكي وبين الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية، على يدي الأمير سيف الدين بن فضل ملك العرب، في بستان قاضي القضاة، وكان قد نقم عليه إكثاره من الفتيا بمسألة الطلاق[1].

ولم يبين ابن حجر ولا غيره من العلماء المتقدمين الذين ترجموا لابن قيم الجوزية (حسب اطلاعنا) ماهية المحنة التي تعرّض لها بسبب هذه الفتوى، وكذلك فتوى: «المسابقة بغير محلّل»، والظاهر أنه تعرّض بسبب هذه الفتاوى للاستجواب من قبل القضاة، وأيضاً جرت بينه وبين القضاة والعلماء آنذاك حوارات ومناظرات بسبب هذه الفتاوى، ولكنه لم يضرب ويحبس بسببهما، والله أعلم.

بخلاف فتواه بتحريم شد الرحال إلى قبر الخليل، فإنه تعرّض بسببها إلى الضرب والسجن الانفرادي كما سيأتي بيان ذلك.

الثالثة: شدّ الرّحال إلى قبر الخليل عليه السلام:

كان الناس وقتئذ يشدّون الرحال إلى قبر إبراهيم الخليل -عليه السلام- بفلسطين، فتصدّى ابن قيم الجوزية لهذه البدعة؛ مبيناً أنها من البدع المنكرة في الدين، المخالفة للصراط المستقيم، فما كان من أهل الزيغ والانحراف والبدع والباطل إلا أن وشوا به إلى الحكام والقضاة في ذلك العصر، حيث تم استدعاؤه من قبلهم، ثم ضربوه بسبب هذه الفتوى؛ كما حكى ذلك المؤرخ المقريزي بقوله:

---

(١) «البداية والنهاية»، لابن كثير: ١٤/ ٢٦٧.

«وضرب شمس الدّين محمّد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، وشهر على حمار بدمشق. وسبب ذلك: أن ابن قيم الجوزية تكلم بالقدس في مسألة الشّفاعة والتوسل بالأنبياء، وأنكر مجرّد القصد للقبر الشريف دون قصد المسجد النّبويّ، فأنكر المقادسة مسألة الزّيارة، وكتبوا فيه إلى قاضي جلال الدّين محمّد القزويني وغيره من قضاة دمشق... فلمّا وصلت كتب المقادسة في ابن القيم كتبوا في ابن تيمية وصاحبه ابن القيم إلى السّلطان فعرف شمس الدّين الحريري قاضي القضاة الحنفيّة بديار مصر ذلك؛ فشنع على ابن تيمية تشنيعاً فاحشاً؛ حتّى كتب بحبسه، وضرب ابن القيم»[1].

ولم يكتف الحكام والقضاة آنذاك بضربه، بل أودعوه السجن مدة من الزمن بسبب ذلك، قال الذهبي: «حبس مدة لإنكاره شد الرحال إلى قبر الخليل»[2].

وهذه هي الفترة التي حبس فيها ابن قيم الجوزية (مع شيخه ابن تيمية) في سجن القلعة؛ كما بيّن ذلك ابن عبد الهادي بقوله: «أمر القاضي الشافعي بحبس جماعة من أصحاب الشيخ بسجن الحكم، وذلك بمرسوم النائب، وإذنه له في فعل... وأوذي جماعة من أصحابه، واختفى آخرون، وعزر جماعة، ونودي عليهم ثم أطلقوا؛ سوى الإمام

---

(١) «السلوك لمعرفة دول الملوك»، للمقريزي: (٣/ ٨٩)، وينظر: «الدرر الكامنة»، لابن حجر: (٥/ ١٣٨).

(٢) «ذيل طبقات الحنابلة»، لابن رجب: (٥/ ١٧٢).

شمس الدين محمد ابن أبي بكر إمام الجوزية؛ فإنه حبس بالقلعة، وسكنت القضية»[١].

وهذه الحادثة تدلّ على مدى أهمية ابن قيم الجوزية، وعظم تأثيره، وأيضاً تدل على مدى حقد أهل الباطل عليه وعلى شيخه؛ حيث تم إطلاق جميع السجناء من السجن، وإبقاء ابن قيم الجوزية في السجن منفرداً[٢].

وقد ظل ابن قيم الجوزية محبوساً في سجن القلعة منفرداً عن شيخه ابن تيمية، ولم يفرج عنه إلا بعد وفاة شيخه ابن تيمية[٣] بشهر؛ ذلك أن ابن تيمية توفي في محبسه بالقلعة في ليلة الاثنين لعشرين مضت من ذي القعدة، سنة ثمان وعشرين وسبعمائة[٤]، وأفرج عن ابن قيم الجوزية في يوم الثلاثاء لعشرين مضت من ذي الحجة[٥].

وقد حرّف أهل الباطل فتوى ابن قيم الجوزية (وشيخه) في شد الرحال لقبر الخليل، وسعوا في تأليب الحكام والقضاة عليه (كما سبق أن بيّنا)، بل وحاولوا إثارة الرأي العام ضده، وافتروا عليه زوراً وبهتاناً وظلماً وعدواناً: أنه يحرّم زيارة القبور مطلقاً! وحاشاه من ذلك، بل لقد

(١) «العقود الدرية»، لابن عبد الهادي، (ص: ٣٤٦).
(٢) «ذيل طبقات الحنابلة»، لابن رجب: (٥/ ١٧٣).
(٣) «ذيل طبقات الحنابلة»، لابن رجب: (٥/ ١٧٣).
(٤) ينظر: «العقود الدرية»، لابن عبد الهادي، (ص: ٣٨٥).
(٥) ينظر: «البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٤/ ١٦١).

كان ابن قيم الجوزية: «لا يمنع الزيارة الخالية عن شد الرحل، بل يستحبها ويندب إليها، وكتبه ومناسكه تشهد بذلك»[١].

وقد واجه ابن قيم الجوزية (مع شيخه ابن تيمية) هذه المحنة بشجاعة منقطعة النظير، ورباطة جأش فريدة، وطمأنينة عجيبة، كما حكى ذلك ابن قيم الجوزية حاله وحال شيخه أثناء حبسهما في سجن القلعة، فيقول: «قال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة». وكان يقول في محبسه في القلعة: «لو بذلت ملء هذه القاعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة، أو قال ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير»، ونحو هذا.

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» ما شاء الله (يردد ذلك كثيراً).

وقال لي مرة: المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه. ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه، وقال:

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾[٢].

وعلم الله (يقول ابن قيم الجوزية) ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، ومع

---

(١) ينظر: «غاية الأماني»، لأبي الثناء الآلوسي: (٢/ ٢٥١).

(٢) سورة الحديد، آية: ١٣.

ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً، وأسرّهم نفساً، تلوح نضرة النعيم على وجهه»[١].

بل كان ابن قيم الجوزية مدة سجنه (كما قال ابن رجب) «مشتغلاً بتلاوة القرآن بالتدبر والتفكر، ففتح عليه من ذلك خير كثير»[٢].

فانقلبت محنته إلى منحة، رحمه الله وطيب ثراه.

وفاته:

توفي ابن قيم الجوزية ليلة الخميس في الثالث عشر من رجب سنة ٧٥١هـ، وقت أذان العشاء. وصلي عليه من الغد بعد صلاة الظهر بالجامع الأموي، ثم بجامع الجراح. وقد كانت جنازته حافلة شهدها القضاة والأعيان والصالحون، وتزاحم الناس على حمل نعشه. ودفن بمقبرة الباب الصغير بدمشق عند والدته.

وقد رؤي ابن قيم الجوزية بعد بموته وهو في حالة حسنة[٣].

(١) «الوابل الصيب»، لابن قيم الجوزية، (ص: ٤٨).

(٢) «ذيل طبقات الحنابلة»، لابن رجب: (٥/ ١٧٣).

(٣) وللاستزادة ينظر: «ذيل طبقات الحنابلة»، لابن رجب: (٥/ ١٧٦)، و«النجوم الزاهرة»، لابن تغري بردي: (١٠/ ٢٤٩)، و«العبر في خبر من غبر»، للذهبي: (٤/ ١٥٥)، و«البدر الطالع»، للشوكاني: (٢/ ١٤٥)، و«شذرات الذهب»، لابن العماد الحنبلي: (٨/ ٢٩١)، و«الوافي بالوفيات»، للصفدي: (٢/ ١٩٧)، و«الدرر الكامنة»، لابن حجر: (٥/ ١٤٠)، و«المقصد الأرشد»، لابن مفلح: (٢/ ٣٨٥)، و«بغية الوعاة»، للسيوطي: (١/ ٦٣)، و«البداية والنهاية»، لابن كثير: (١٤/ ٢٧٠)، و«أعيان العصر»، للصفدي: (٤/ ٣٦٨).

(١١) النورسي

اسمه ونسبه:

سعيد النورسي، ابن الملا ميرزا.

ويلقب بـ«بديع الزمان»، و«سعيدي مشهور»(١).

وأما نسب «النورسي» فهو كردي من عشيرة «آسباريت»، ويطلق عليها النورسي نسبه إلى قرية: «نورس» وهي من قرى الأكراد القريبة من بحيرة «وان» في مقاطعة «هزان» بإقليم «بتلس» شرقي الأناضول(تركيا)(٢).

وسبب تلقيبه بـ«بديع الزمان»، و«سعيدي مشهور» لنجابته وذكائه؛ فقد قيل: إنه من فرط ذكائه ونجابته تعمّق في دراسة العلوم الكونية حتى وصل في دراسته لها إلى درجة التأليف وهو في سن مبكرة من حياته؛ فلقبه أساتذته بذلك(٣).

---

(١) ينظر: «بديع الزمان النورسي» لعبد الله الطنطاوي، مجلة المنار، العدد: (٦٣)، شوال ١٤٢٣هـ، و«الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة»: (١/ ٣٢٤)، و«بديع الزمان سعيد النورسي، نظرة عامة عن حياته وآثاره»، لإحسان قاسم الصالحي.

(٢) ينظر: «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة»: ١/ ٣٢٤، و«سيرة ذاتية مختصرة لبديع الزمان سعيد النورسي»، لإحسان قاسم الصالحي، ص: ٨.

(٣) ينظر: «بديع الزمان النورسي»، لعبد الله الطنطاوي، مجلة المنار، العدد: (٦٣)، شوال ١٤٢٣هـ، و«الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة»: (١/ ٣٢٤)، و«سيرة ذاتية مختصرة لبديع الزمان سعيد النورسي»، لإحسان قاسم الصالحي، (ص: ٨).

مولده ونشأته:

ولد «النورسي» عام (١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٣م)[١].

وأما نشأة «النورسي»، فقد نشأ في قرية: «نورس» في بيئة كردية يغلب عليها الجهل والفقر؛ كما هو حال كثير من بلاد المسلمين في ذلك الوقت، إلا أن «النورسي» نشأ منذ صغره في أسرة صالحة، فقد كان أبواه يضرب بهما المثل في التقوى والورع والصلاح؛ فوالده كان مضرب المثل في الورع، ووالدته «نورية» كانت فاضلة، حتى قيل: إنها لم تكن ترضع أطفالها إلا على وضوء[٢].

وقد أقبل النورسي على طلب العلم في سنّ مبكّرة، فتردّد إلى عدد من حلقات العلم المنتشرة في المناطق والمدن المجاورة، وحضر مجالس أبرز شيوخها، ففاق بنجابته ونبوغه أقرانه، وكان من جدّه وعلوّ همّته في طلب العلم أن حفظ تسعين كتاباً من أمهات الكتب، وحصّل من العلم في ثلاثة أشهر ما يحصّله غيره في بضع عشرة سنة، فكان لفرط ذكائه وقوة

---

(١) ينظر: «المكتوبات»: (٢١)، و«سيرة ذاتية مختصرة لبديع الزمان سعيد النورسي»، لإحسان قاسم الصالحي، (ص: ٨)، و«رسائل النور في السجن والقيم التربوية والجمالية دراسة في تحليل الخطاب»، النور للدراسات الحضارية والفكرية، السنة التاسعة، يناير، ٢٠١٨، العدد: (١٧)، (ص: ١١).

(٢) ينظر: «سيرة ذاتية مختصرة»، لإحسان قاسم الصالحي، (ص: ٨)، و«رسائل النور في السجن والقيم التربوية والجمالية دراسة في تحليل الخطاب»، النور للدراسات الحضارية والفكرية، السنة التاسعة، يناير، ٢٠١٨، العدد: (١٧)، (ص: ١١)، و«إخلاص الإمام بديع الزمان النورسي ودعوة القرآن»، لعابد توفيق الهاشمي.

حافظته وبراعته في المناظرة مثار إعجاب شيوخه وأساتذته، وكان ذلك مدعاةً لاشتهاره وهو في سن مبكرة من عمره، حتى قيل: إنه حفظ كتاب «جمع الجوامع» في أصول الفقه في خلال أسبوع واحد.

وشرع باستظهار القرآن الكريم، فكان يحفظ في اليوم مقدار جزأين منه، حتى إذا بلغ أكثره توقف عن حفظه وانصرف إلى درس معانيه، لئلا تخلّ سرعة الحفظ باحترام القرآن، ولأن الحاجة إلى معرفة حقائقه أولى وأهم.

وقد عرف «النورسي» (وهو في سن الثامنة عشر) بالرماية، والمصارعة، وركوب الخيل، والزهد والتقشف»[١].

ثناء العلماء عليه:

أثنى على «النورسي» كثير من العلماء والأدباء والكتاب، ومن أقوالهم في ذلك نذكر ما يلي:

قال أبو الحسن الندوي: «كان مرهف الحس وذكياً فطناً، فتفرّس الخطر المحدق ببلاده، وساءه ذلك الوضع السائد فيها من فشو الجهل والبطالة، ووجود الأمية في الأوساط الشعبية، وخمود تلك الشعلة الإيمانية، والغيرة الدينية التي كانت متأججة في الشعب التركية من ذي قبل، فشمّر عن ساق الجد لمحو الأمية، ونشر العلوم الدينية، فعكف على دراسة القرآن دراسة عميقة ككتاب خالد... كما كانت له اليد الطولى في العلوم الجديدة من

(١) ينظر: «بديع الزمان سعيد النورسي، نظرة عامة عن حياته وآثاره»، لإحسان قاسم الصالحي، و«بديع الزمان النورسي»، لعبد الله الطنطاوي، مجلة المنار، العدد: (٦٣)، شوال ١٤٢٣هـ، و«الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة»: (١/ ٣٢٤).

التاريخ والفلسفة والرياضيات والفلكيات وغيرها؛ حتى أصبح جامعاً بين العلوم، بين العلوم القديمة والجديدة، يشار إليه بالبنان، ويجلّه كبار العلماء في عصره، وكان متصدياً للدرس والإفادة»[١].

وقال عابد توفيق الهاشمي: «ذكاء وقاد، وعلم نادر، وخطيب مصقع، ومفسّر للقرآن، ومؤلّف جليل، ومجاهد شجاع، وداعية على كل أحواله، وسياسي محنّك»[٢].

وقال عبد الحليم عويس: «إن النورسي أكّد على ضرورة الالتزام بالرؤيا الإسلامية للإنسان؛ لأنها متوازنة بلا إفراط ولا تفريط، بينما أن المذاهب الجماعية والفردية وعبادة العقل والحرية قادت الغرب إلى الدمار»[٣].

وقال عظمت الله الندوي: «أنجبت (أي الأمة الإسلامية) مجددين ومصلحين بذلوا قصارى جهودهم ونذروا نفوسهم ونفائسهم في سبيل إعلاء كلمة الله وإرشاد البشرية على المستوى الإقليمي والعالمي، ومن أبرز هؤلاء المجددين والمصلحين: الداعية الشيخ سعيد النورسي الملقب بـ «بديع الزمان:»؛ لأنه كان من بدائع الزمن ونـوادره من حيث توفير استجابة إسلامية للتحديات الغربية وإيجاد الصحوة الإسلامية في

---

(١) النور للدراسات الحضارية والفكرية، السنة الثانية يناير، العدد الثالث، (ص: ٨)، «النورسي ودعوته»، لأبي الحسن الندوي.

(٢) من مقال له منشور على شبكة الإنترنت.

(٣) من مقال له منشور على شبكة الإنترنت

المجتمع الإسلامي على أساس الكتاب الإلهي والسّنّة النبوية. وقيّض الله هذا الداعية في تركيا حينما كانت تئن هذه البلاد تحت براثن العلمانية الظالمة والحضارة الغربية الجالبة للأضرار اجتماعياً وثقافياً واقتصادياً، وكانت الظروف والأوضاع القاسية تدفع تركيا إلى التخلّي عن نور الإسلام وضياء القرآن باسم الحضارة الغربية باعتبارها حاجة الوقت ونداء الزمان»[١].

وقال عبد الله الطنطاوي: «الشيخ المجاهد العالم العامل بديع الزمان النورسي»[٢].

وقال أيضاً: «كان النورسي أمة في رجل، وربى تلاميذه بالقدوة، وحياته كانت أكبر كرامة؛ إنه رجل عصر المصائب والبلايا والمهالك - كما قال عن نفسه - وهو عصرنا، وقد هيّأ الأدوية الناجعة للجروح الإنسانية الأبدية، وقدمها إليها خلال رسائله وكتبه التي هي من نور القرآن العظيم، تدعو إلى تطهير النفس، وصقل الروح، وغرس الإيمان والإخلاص في النفوس»[٣].

وقال الدكتور محسن عبد الحميد: «يتقدّم «النورسي» في هدوء ذكي، ليأخذ بيد طالب الحقيقة في جولة رائعة، شاسعة هائلة، كي

---

(١) من مقال له بعنوان: «الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي والصحوة الإسلامية في تركيا».

(٢) مجلة المنار، العدد: (٦٣)، شوال ١٤٢٣هـ.

(٣) مجلة المنار، العدد: (٦٣)، شوال ١٤٢٣هـ.

يفتح له فيها مغاليق عقله وقلبه، ويوقفه أمام لوحة الوجود، وجمالها الأخّاذ ومظاهرها البديعة، بادئاً رحلته الكونية من عجائب الآفاق العلوية الى مدهشات الكائنات السفلية، سابراً غورها، واصفاً اتساقها وتوازنها، ولوحاتها الفنية الرائعة، التي تأخذ بالألباب وتضرب على أوتار القلوب»[١]

وقال إحسان قاسم الصالحي: «بديع الزمان سعيد النورسي أحد العظماء الذين ألقى الله تعالى على كاهله مسؤولية النهوض بتجديد الحياة في الإيمان الراكد في القلوب، وبعبء التصدّي لهذا التيار الجارف المكتسح الذي كاد يسلخ الشعب التركي المسلم عن تاريخه ودينه وإسلامه»[٢].

وقال د. محمد أمين الإسماعيلي (أستاذ العقيدة وتاريخ الأديان بكلية الآداب والعلوم الإنسانية - بالرباط): «لقد فتح النورسي عينيه على أحداث تركيا الجسام، وتلمّس أمة كبيرة لها هويتها الإسلامية وأصالتها الدينية، فخورة بوجودها الإيماني، تزهو به وتفتخر؛ لأنها وصلت بالإسلام إلى قمة الحياة والمجد، وسادت على الأمم؛ بفضل عقيدتها، وأصالتها، ثم أصابها المرض الذي يصيب الحضارات الكبرى»[٣].

وقال: الدكتور سعيد الغزاوي (كلية الآداب ابن مسيك - الدار البيضاء- المغرب): «كنا دائماً نشير إلى عبقرية النورسي وإبداعه الذي

---

(١) موقع سعيد النورسي على شبكة الإنترنت.

(٢) موقع سعيد النورسي على شبكة الإنترنت.

(٣) موقع سعيد النورسي على شبكة الإنترنت.

جعل معاصريه يلقبونه بديعاً، وكنا نشير إلى معادلة يود أن يحقق من خلالها منهجه الصوفي الذي ينكر أي انتساب لطريقة إلا طريق القرآن والإيمان، ثم يثبت بحياته وفكره ومنهج تعامله مع طلابه معالم طريقة صوفية متميزة»[١]

وقال الأستاذ الدكتور عمّار جيدل: «ليس عالما عادياً فضلاً عن أن يكون رجلاً عادياً، والتعامل مع أمثال هذا العالم الفذ يقتضي حضوراً قلبياً وعقلياً في تواكب وتناغم، إذ التعامل معه بأحد المنطقين يضيّع الحقيقة المفردة (غير قابلة للتجزئة) المكوّنة لرسائله المعروفة برسائل النور ويضيّع الخطوط الرئيسة في فهم شخصيته. إنّنا أمام شخصية متكاملة تقطر إخلاصاً وتتّقد ذكاء ودقة تحليل وتنبجس أفكاراً في حيوية لافتة للانتباه، إنّنا أمام علم يعتصر قلبه ألماً لما آل إليه أمر أمّتنا، ويتدفّق حيوية في تلمّس مسلك إخراجها من أزمتها، أزمة اختصرها - رحمه الله - في الخطر الذي يتهدد الإيمان في العصر الراهن»[٢].

وقال حسين عاشور: «إن الشيخ بديع الزمان سعيد النورسى - ذلك المصلح الكبير- من أكثر الناس حرصاً على التحلّي بما أمكن من تلك الشمائل»[٣].

(١) موقع سعيد النورسي على شبكة الإنترنت.
(٢) موقع سعيد النورسي على شبكة الإنترنت.
(٣) موقع سعيد النورسي على شبكة الإنترنت.

مؤلفاته:

خلّف النورسي مؤلفات وكتباً ورسائل عديدة؛ منها:

١- رسائل النور، وعددها «١٣٠» رسالة، وقد جمعت تحت عنوان: «كليات رسائل النور»، وهي تضم أربع مجموعات أساسية، هي: «الكلمات، المكتوبات، اللمعات، الشعاعات،...».

٢- الخطوات الست.

٣- المثنوي العربي النوري.

٤- إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز.

٥- الآية الكبرى.

٦- صيقل الإسلام.

٧- الخطبة الشامية.

وغير ذلك من مؤلفاته ورسائله التي ألف أغلبها أثناء محنته.

وبعض مؤلفاته ورسائله كتبها باللغة العربية، ككتاب: «إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز»، وغير ذلك من مؤلفاته التي كتبها باللغة العربية.

وقد ترجمت أغلب مؤلفاته ورسائله إلى اللغات العربية والإنجليزية، والألمانية، والأردية، والفارسية، والكردية، والفرنسية، والروسية، وغيرها.

محنته:

عاصر «النورسي» عهد السلطان عبد الحميد الثاني، وفترة الاتحاد والترقي، وأحداث الحرب العالمية الأولى، وسقوط الدولة العثمانية، ثم العهد الجمهوري والحزب الواحد الحاكم، ثم فترة تعدد الأحزاب وحياة ديمقراطية في البلاد.

ويمكننا تقسيم حيات النورسي إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: مرحلة «سعيد القديم»، (بالتركية: Said Eski)، وتبدأ من مولده إلى بلوغه من العمر ٤٥ عاماً.

المرحلة الثانية: مرحلة «سعيد الجديد» (بالتركية: Said Yeni)، وتبدأ من بعد سن الخامسة والأربعين إلى ٨٧ سنة[١].

وهذا التقسيم لمراحل حياة النورسي دلّت عليه عبارات النورسي نفسه، وشهدت بذلك أحواله ومواقفه العلمية والعملية والسلوكية.

وقد تعرّض النورسي خلال مرحلة حياته الأولى والثانية لمحن جسام، وابتلاءات عظام -كما سيأتي-.

ومن أبرز المحن التي تعرض لها النورسي خلال مرحلة حياته الأولى ما يلي:

أولاً: التكبيل والنفي: حيث تم تكبيله ونفيه عام ١٩٢٦ من «ماردين» إلى «بتليس»، وكان عمره حينها ستة عشر عاماً.

---

(١) ينظر: «اللمعات»، (ص: ٣٤٧).

والسبب وراء هذه المحنة: «أنه أبدى نشاطاً أدبياً، ومناصرة للمنادين بالحرية، واهتماماً بالأمور الاجتماعية والسياسية، فأصدرت سلطات «ماردين» قراراً بنفيه مكبلاً بالأغلال إلى مدينة «بتليس»»[١].

ثانيا: المحاكمة أمام محكمة عسكرية: والسبب في ذلك: انتقاد النورسي للاستبداد ونظام الأمن، واستخبارات القصر «يلدز»؛ مما أثار عليه حاشية السلطان، حيث تم إحالته للمحاكمة أمام محكمة عسكرية بأمر من حاشية السلطان.

ولما مثل النورسي أمام القضاة العسكريين تكلّم النورسي بكل جرأة وشجاعة؛ مما دفع برئيس المحكمة إلى إحالة النورسي إلى لجنة من الأطباء النفسانيين في مستشفى «طوب طاش»، وكوّنت اللجنة من طبيب تركي، وآخر أرمني، وثالث رومي، وطبيبين يهوديين، ولما حضرت اللجنة الطبية لفحص قوى النورسي العقلية، بادرها النورسي بحديث عميق وصل إلى لب الأطباء، مما أرغمهم على كتابة تقرير عنه جاء فيه: «لو كانت هناك ذرة واحدة من الجنون عند بديع الزمان لما وجد عاقل واحد على وجه الأرض»!

ثالثا: الاستجواب والمثول أمام وزير الداخلية: ذلك أن النورسي بعد قرار اللجنة الطبية - السابق - تم إحالته إلى وزير الداخلية، وأمام وزير الداخلية جرى بينه وبين النورسي الحوار التالي؛ حيث بادره الوزير قائلاً في فرح وطمأنينة: «إن السلطان يخصك بالسلام مع مرتب بمبلغ ألف

---

(١) «بديع الزمان، سيرة ذاتية»، (ص: ٥٩).

قرش! وعندما تعود إلى بلدك سيجعل مرتبك ثلاثين ليرة كما أرسل لك ثمانين ليرة هدية سلطانية»!

فرد عليه النورسي بكل شموخ قائلاً: «لم أكن أبداً متسول مرتب! ولن أقبله ولو كان ألف ليرة؛ لأنني لم آت لغرض شخصي، وإنما لمصلحة البلد، فما تعرضونه عليّ ليس سوى رشوة السكوت».

فرد عليه الوزير مهدداً: «إنك بهذا ترد الإرادة السلطانية، والإرادة السلطانية لا ترد».

فرد عليه النورسي بتحدّ: «إنني أردّها، لكي يستاء السلطان، ويستدعيني؛ عند ذلك أستطيع أن أقول له قولة الحق».

فرد عليه الوزير متوعداً: «إن العاقبة ستكون غير سارة»!

فرد عليه النورسي باستهانة: «تعددت الأسباب والموت واحد، فإن أعدم فسوف أرقد في قلب الأمة، علماً بأنني عندما جئت إلى إستانبول كنت واضعاً روحي على كفي اعملوا ما شئتم، فإني أعني ما أقول: إنني أريد أن أوقظ أبناء الأمة، ولا أقوم بهذا العمل إلا لأنني فرد من هذا البلد، لا لأقتطف من ورائه مرتباً، لأن خدمة رجل مثلي للدولة لا تكون إلا بإسداء النصائح، وهذه لا تتم إلا بحسن تأثيرها، وهذا لا يتم إلا بترك المصالح الشخصية فإنني معذور إذن عندما أرفض المرتب».

حينها أصيب الوزير بالذعر من كلام النورسي، ومن صرامة موقفه،

فقال له: «إن ما ترمي إليه من نشر المعارف في بلدك هو موضع دراسة في مجلس الوزراء حالياً»!

فرد عليه النورسي: «إذن فلم يتأخر نشر المعارف، ويستعجل في أمر المرتب؟ لماذا تؤثرون منفعتي الشخصية على المنفعة العامة»؟

رابعاً: الاستجواب والمثول أمام «مصطفى كمال»: والسبب في ذلك: أن النورسي لما دعي إلى أنقرة سنة ١٩٢٢م، واستقبل في المحطة استقبالاً حافلاً، لاحظ النورسي أن أكثر النواب لا يصلّون، وأن مصطفى كمال بدأ يسلك سلوكاً معادياً للإسلام؛ فأصدر النورسي بياناً وجهه إلى النوّاب، تضمّن عشر مواد، استهل النورسي هذا البيان بقوله: «يا أيها المبعوثون... إنكم لمبعوثون ليوم عظيم».

وقد لاقى هذا البيان استجابة لدى بعض النواب بعد إلقاء البيان عليهم حيث قام ستون نائباً بأداء فريضة الصلاة، والتزموا بالدين، الأمر الذي أغضب «مصطفى كمال»، فاستدعى النورسي وقال له: «لا شك أننا في حاجة ماسة إلى أستاذ قدير مثلك، ولهذا دعوناك إلى هنا للاستفادة من آرائك السديدة! ولكن أول عمل قمت به هو الحديث عن الصلاة، لقد كان أول جهودك هنا هو بث الفرقة بين أهل المجلس»!

فأجابه النورسي مشيراً إليه بإصبعه في حدّة: «باشا.. باشا: إن أعظم حقيقة تتجلّى بعد الإيمان هي: الصلاة، وإن الذي لا يصلي خائن، وحكم الخائن مردود».

حينها قرر مصطفى كمال إبعاد «النورسي» عن العاصمة، حيث عيّنه واعظاً عاماً للولايات الشرقية، ولكن «النورسي» رفض الوظيفة والراتب على الرغم من أن الراتب كان مغرياً.

هذه أبرز المحن التي تعرّض لها النورسي أثناء مرحلة حياته الأولى «مرحلة سعيد القديم».

المرحلة الثانية: مرحلة «سعيد الجديد»، وفي هذه المرحلة تعرّض النورسي لعدة محن، ومن أبرزها ما يلي.

أولا: الاعتقال والنفي: ذلك أن النورسي في المرحلة الثانية من حياته وهي «سعيد الجديد» انقطع للعبادة والدعوة، وابتعد عن السياسة الظالمة الجائرة، إلا أنه وعلى رغم من ابتعاده عن السياسة إلا أنه تعرّض لمحن عدّة؛ ومنها: الاعتقال والنفي؛ حيث أمرت حكومة أنقرة العلمانية بالقبض على النورسي، ونقله إلى «إستانبول»؛ حيث بقي في «استانبول» تحت الحراسة مدة عشرين يوماً، ثم صدر الأمر بنقله إلى مدينة «بوردور» حيث بقي فيها منفياً سبعة أشهر، ومن ثم نقل إلى «إسبارطة» حيث بقي فيها منفياً عدة أشهر.

ثم صدرت الأوامر بنفيه إلى ناحية «بارلا» النائية، حيث نقل على متن زورق إلى «بارلا» في شتاء شديد البرودة، سنة ١٩٢٦م.

وكان وصول النورسي إلى منفاه «بارلا» من أعمال «إسبارطة» في غرب الأناضول في شتاء سنة ١٩٢٦م، حيث قضى الليلة الأولى في

مخفر الشرطة، ثم خصص لإقامته بيت صغير يتألف من غرفتين، ويطل على مروج «بارلا»، وبساتينها الممتدة إلى بحيرة «أغريدير».

وقد هدفت السلطات الحاكمة آنذاك من نفي النورسي إلى البلدة الصغيرة نائية «بارلا»؛ حتى يخمل ذكره، ويقل تأثيره، ويطويه النسيان، ويجف هذا النبع الإسلامي.

وفي «بارلا» بقي النورسي ثمان سنوات ونصف.

وفي فترة الثمان السنوات والنصف التي قضاها النورسي في «بارلا» منفياً فيها كانت قد تدهورت حالته الصحية، وكان قليل الإقبال على الطعام، فقد كان يقضي يومه بالكامل على إناء صغير من الحساء مع كسرات من الخبز.

وأثناء بقاء النورسي في «بارلا» منفياً فيها كانت عيون السلطة ترصّده وتراقب حركاته وسكناته؛ حتى أن الأهالي كانوا يتجنّبون الاقتراب منه، والتحدّث إليه؛ كما حكى ذلك النورسي بقوله: «حينما كنت في منفاي - ذلك الأسر الأليم - بقيت وحدي منفرداً منعزلاً عن الناس على قمة جبل «جام» المطلة على مراعي «بارلا»... كنت أبحث عن نور في تلك العزلة... وذات ليلة في تلك الغرفة الصغيرة غير المسقفة المنصوبة على شجرة صنوبر عالية على قمة ذلك المرتفع إذا بشيخوختي تشعرني بألوان وأنواع من الغربة المتداخلة - كما جاء ذلك في المكتوب السادس بوضوح - ففي سكون تلك الليلة حيث لا أثر ولا صوت سوى ذلك الصدى

الحزين لحفيف الأشجار وهمهمتها.. وأحسست بأن ذلك الصدى الأليم قد أصاب صميم مشاعري ومس أعماق شيخوختي وغربتي، فهمست الشيخوخة في أذني منذرة: - أن النهار قد تبدّل إلى هذا القبر الحالك، ولبست الدنيا كفنها الأسود، فسوف يتبدل نهار عمرك إلى ليل، وسوف ينقلب نهار الدنيا إلى ليل البرزخ، وسوف يتحول نهار صيف الحياة إلى ليل شتاء الموت، فأجابتها نفسي على مضض: نعم كما أنني غريبة هنا عن بلدتي ونائية عن موطني فإن مفارقتي لأحبائي الكثيرين خلال عمري الذي ناهز الخمسين، ولا أملك سوي تذارف الدموع وراءهم هي غربة تفوق غربتي عن موطني.. وأني لأشعر في هذه الليلة غربة أكثر حزناً وأشد ألماً من غربتي على هذا الجبل الذي توشح بالغربة والحزن، فشيخوختي تنذر بدنو من موعد فراق نهائي عن الدنيا وما فيها».

ثانياً: السجن الانفرادي والتحقيق: ذلك أن النورسي نقل من «بارلا» إلى «ارسباطة» سنة (١٩٣٤م)، وفي «ارسباطة» داهمت قوة من الجندرمة بيت النورسي[1] واعتقلته صبيحة يوم من أيام نيسان سنة (١٩٣٥م)، ثم اقتادته مكبلاً بالقيود إلى سجن مدينة: «اسكي شهر»، حيث وضع النورسي في سجن انفرادي.

وفي سجن مدينة «اسكي شهر» تم التحقيق الطويل معه (ومع طلبته) ولم يسفر التحقيق عن شيء يمكن الاستناد إليه في الحكم بإدانته (أو إدانة

---

(١) وأيضاً في ذلك اليوم داهمت الشرطة منازل مائة وعشرين من طلبة النور في مختلف المناطق.

طلابه) إلا أن المحكمة حكمت عليه بالسجن أحد عشر شهراً؛ بسبب رسالته عن «تستر النساء»، وهي اللمعة الرابعة والعشرون.

ثالثاً: النفي (مرة ثانية) والتضيق والمراقبة والاستجواب: ذلك أن النورسي نفي إلى «قسطموني» في ربيع سنة (١٩٣٦م) بعد أن قضى في سجن «أسكي شهر» مدة سجنه البالغة أحد عشر شهراً، حيث اقتيد النورسي إلى مخفر الشرطة التي قضى فيه مدة ثلاثة أشهر، ثم نقل بعدها إلى بيت صغير يقع أمام مخفر الشرطة مباشرة، حتى يكون تحت المراقبة الدائمة من قبل الشرطة.

رابعاً: السجن (مرة ثانية) في سجن انفرداي والتحقيق معه: حيث سيق النورسي من «أنقرة» إلى «أسبارطة»، ومنها إلى مدينة «دينزلي» حيث أودع في سجنها تسعة أشهر في زنزانة انفرادية.

وفي مدينة «دينزلي» - التي أودع النورسي في سجنها - شكّلت الحكومة لجنة تدقيق في ماهية رسائل النور، ولكن النورسي اعترض على هذه اللجنة لعدم أهليتها في ذلك، حيث جاء في عريضة اعتراضه على اللجنة المكوّنة: «إن هؤلاء الخبراء - الذين لا خبرة لهم على الإطلاق - غير مؤهلين لتدقيق رسائل النور، لذلك فإنني أطالب بتأليف لجنة عليا في أنقرة تتألّف من أهل العلم. وإذا لزم الأمر فليقدّم متخصصون وعلماء من أوروبا لتدقيق هذه الرسائل، فإذا وجدوا فيها أي عنصر يستوجب العقاب فإنني أرضى بذلك العقاب».

فاستجابت الحكومة لذلك، وقامت بتشكيل لجنة أخرى من علماء

وخبراء قاموا بدراسة وتدقيق جميع رسائل النور، وقد خرجت هذه اللجنة بقرار جاء فيه: «ليس لبديع الزمان فعالية سياسية كما لا يوجد أي دليل كان على أنه يؤسس طريقة صوفية أو قائم بإنشاء أية جمعية، وأن مواضيع كتبه تدور كلها حول المسائل العلمية والإيمانية وهي تفسير القرآن الكريم».

ثم جرى بعد هذه المحاكمات والمدافعة أن أصدرت محكمة الجزاء الكبرى قراراً في ١٥/ ٦/ ١٩٤٤ ينص على تبرئة النورسي من جميع التّهم المسندة إليه.

سادساً: المداهمة والسجن والمحاكمة (مرة ثانية): حيث داهمت الشرطة بيت النورسي في ٢٣ كانون الثاني سنة ١٩٤٨م (وأيضاً داهمت بيوت بعض طلبة النور) ثم سيق النورسي إلى سجن مدينة «أفيون» (وسيق أيضاً مجموعة من طلابه).

وفي سجن مدينة «أفيون» تم محاكمة النورسي في محكمة «أفيون» وقد دامت جلسات المحكمة مدة طويلة، انتهت جلسات هذه المحاكمة بإصدار المحكمة قرارها في ٦ كانون الأول سنة ١٩٤٨م ينص على الحكم على سجن النورسي عشرين شهراً، حيث بقي النورسي في سجن مدينة «أفيون» عشرين شهراً.

وفي سجن مدينة «أفيون» عومل النورسي معاملة قاسية - على الرغم من كبر سنّه ومرضه وشدة البرد القارس - فقد تركوه وحده في زنزانة كبيرة عارية تسع ستين سجيناً؛ دون مدفأة، بينما كان الثلج يتراكم على زجاج نافذته.

وعلى الرغم من انتهاء مدة الحكم في سجن مدينة «أفيون» إلا أن السلطات لم تفرج عنه في الوقت المعتاد، إنما أطلقوه في (٢٠ أيلول سنة ١٩٤٩م) في الفجر، حيث خرج من السجن بصحبة شرطيين (وعدد من طلابه) إلى بيت قد أعدّ له[١].

وأما أبرز التّهم التي وجّهت للنورسي أثناء مراحل حياته الأولى والثانية وبسببها تعرضه للمحن المختلفة فيمكن إجمالها في النقاط التالية:

١ - العمل على هدم الدولة العلمانية، والثورة الكمالية.

٢ - إثارة روح التدين في تركيا.

٣- تأليف جمعية سرية.

٤ - التهجم على مصطفى كمال أتاتورك[٢].

وغير ذلك من التّهم التي تعدّ في نظر الشرع والقانون شيئاً لا يستحق العقاب، إلا أن أعداء الإسلام اتّخذوها ذرائع واهية لقمع الحق وأهله، ومنع انتشاره ومحاربة حملته.

---

(١) ينظر: «بديع الزمان سعيد النورسي، نظرة عامة عن حياته وآثاره»، لإحسان قاسم الصالحي، و«رسائل النور في السجن والقيم التربوية والجمالية»، النور للدراسات الحضارية والفكرية، السنة التاسعة، يناير، ٢٠١٨، العدد: (١٧)، و«إخلاص الإمام بديع الزمان النورسي ودعوة القرآن»، لعابد توفيق الهاشمي، و«بديع الزمان النورسي»، لعبد الله الطنطاوي، مجلة المنار، العدد: (٦٣)، شوال ١٤٢٣هـ، و«موقع بديع الزمان النورسي على الشبكة العنكبوتية (الإنترنت).

(٢) الموسوعة الميسّرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة.

وعلى الرغم من كثرة المحن التي تعرّض لها النورسي، إلا أنه بفضل الله انقلبت محنه إلى منح، ويظهر ذلك جلياً من خلال الأمور التي واجه بها النورسي هذه المحن، ومن أبرزها ما يلي:

أولاً: الصبر والثبات والاحتساب: فعلى الرغم من طول مدة محنته، وتعدّد صنوف الأذى التي مورست ضده (ما بين الاعتقال والمداهمات والقيود والمحاكمات الكثيرة حتى قيل: الدعاوى التي تم محاكمته من أجلها بلغت ٢٥٠٠ دعوى، فضلاً عن السجن الانفرادي والنفي والتضييق والإقامة الجبرية) إلا أنه على الرغم من كل ذلك ثبت وصبر واحتسب.

ثانياً: الشجاعة والجرأة: كما تدلّ على ذلك مواقفه أمام القضاة والمحاكم العسكرية وكبار رجال الدولة القمعية آنذاك.

ثالثاً: الدعوة إلى الله: فقد قام النورسي بالدعوة إلى الله أثناء فترة المحنة، وقد تاب واهتدى على يديه كثير من المجرمين.

رابعاً: التفاؤل وعدم اليأس أو التشاؤم: فعلى الرغم سوء المرحلة التي مرّ بها المسلمون في تركيا عامة، وقسوة المحن التي مر بها النورسي خصوصاً أثناء تغلغل العلمانية وسيطرتها على مقاليد الأمور العامة والخاصة في تركيا؛ إلا أن النورسي كان في محنته متفائلاً بنصر الله، مستشعراً أن العاقبة للمتقين، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

خامساً: استغلال الوقت في نشر العلم وتأليف الكتب والرسائل: فقد ألّف أغلب كتبه ورسائله أثناء محنته وعلى وجه الخصوص محنته في مرحلة حياته الثانية، وهي مرحلة «سعيد الجديد».

سادساً: العبادة واللجوء إلى الله، والقرب منه، والإخلاص له وحده لا شريك له؛ كما يدل على ذلك أقواله وأحواله المختلفة أثناء محنته، وأيضاً أحواله وأقواله قبل المحنة وبعدها.

سابعاً: رفض كل الإغراءات والمساومات: فقد عرضت عليه إغراءات مالية ضخمة، ومناصب قيادية مهمة؛ إلا أنه رفض كل ذلك.

وفاته:

توفي النورسي في الخامس والعشرين من شهر رمضان المبارك سنة ١٣٧٩هـ الموافق ٢٣ آذار ١٩٦٠م في مدينة «أورفة»، ودفن في مقبرة «أولو جامع»، لكن السلطات الحاكمة قامت بنبش قبره بعد خمسة أشهر من وفاته، ونقلت رفاته بالطائرة إلى جهة مجهولة[١].

تغمّده الله بواسع رحمته وأسكنه فسيح جناته.

(١) للمزيد عن سيرة سعيد الزمان النورسي ينظر: «سيرة ذاتية مختصرة لبديع الزمان سعيد النورسي»، إحسان قاسم الصالحي، و«الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية»، لأبي الحسن الندوي، و«رسائل النور في السجن والقيم التربوية والجمالية»، النور للدراسات الحضارية والفكرية، السنة التاسعة، يناير، ٢٠١٨، العدد: ١٧، ص: ١١، و«بديع الزمان نظرة عامة عن حياته وآثاره»، لمصطفى عاشور، و«جوانب غير معروفة من حياة سعيد النورسي»، لنجم الدين شاهين، و«الموسوعة الحركية» لفتحي يكن، و«العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا»، لعبد الكريم مشهداني، و«بديع الزمان سعيد النورسي قراءة جديدة في فكره المستنير»، لجمال الدين فالح الكيلاني بالاشتراك مع زياد حمد الصميدعي، و«بديع الزمان سعيد النورسي»، لمحمد بن موسى الشريف.

(١٢) سيد قطب

اسمه ونسبه:

سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي(١).

أما نسب سيد قطب، فقد اختلف الكتاب الذين كتبوا عن سيد قطب في تحديد أصله، فمنهم ذهب إلى أن أصله مصري.

وذهب كثير من الكتاب إلى أن أصله هندي، مستندين إلى كلام سيد قطب نفسه الذي نقله عنه أبو الحسن الندوي أثناء مقابلته له في مصر عام ١٩٥١م، حيث أخبر سيد قطب أبا الحسن الندوي أنه يرغب في زيارة الهند، ثم نقل الندوي عن سيد قطب قوله: «وأما الباعث الطبعي فلأن جدنا السادس كان هندياً (وهو الفقير عبد الله)، ولا تزال السحنة الهندية موروثة في أسرتنا»(٢).

وقد نفى هذه الحكاية محمد قطب حيث قال: إنها مجرد ظن! حاملاً كلام سيد قطب الذي نقله عنه الندوي أن سيد قطب قاله له على سبيل المجاملة والدعابة فقط.

وقد مال صلاح الخالدي(٣) إلى رأي من ذهب من الكتّاب إلى أن سيد قطب أصله هندي؛ أخذاً بكلام سيد قطب الذي نقله عنه أبوالحسن

---

(١) ينظر: «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد»، لصلاح الخالدي، (ص: ١٥).

(٢) ينظر: «مذكرات سائح»، للندوي، (ص: ١٥٣).

(٣) يعد صلاح الخالدي من أبرز الكتّاب الذين لهم اعتناء بتراث سيد قطب، والكتابة عنه، حيث كتب عنه عدة كتب.

الندوي؛ لأنه حدّد اسم الجد القادم من الهند، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ[١].

مولده ونشأته:

ولد سيد قطب (٩/ ١٠/ ١٩٠٦م) في قرية: «موشة»[٢]، إحدى قرى محافظة أسيوط في صعيد مصر. وتسمى بلد (الشيخ عبد الفتاح)؛ لأنه أحد أوليائها، وله مقام بارز فيها[٣].

وأما نشأة سيد قطب فقد نشأ في قرية: «موشة» منذ طفولته، في بيت أبيه الواسع الفسيح الجميل[٤].

وقد عبّر سيد قطب عن حال أسرته المعيشية ونشأته فيها بقوله: «ليست عظيمة الثراء، ولكنها ظاهرة الامتياز، كانت في وقت من الأوقات عظيمة الثراء، ولكنها توزعت وتضاءلت بالميراث، وبقي لوالده قدر لا بأس به منها، ولكنه كان يتناقص دائماً.

---

(١) ينظر: «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد»، لصلاح الخالدي، (ص: ٢٩).

(٢) كتبها بعضهم هكذا «موشة»، وبعضهم كتبها: «موشا»، وتمتاز هذه القرية بموقعها الجغرافي، حيث تقع بين جبلين صغيرين يحيطان بها، وبأراضيها الزراعية، إضافة إلى أنها تقع على جانب نهر النيل، ويمر النهر من أراضيها الزراعية، وبها العديد من البساتين التي تزرع فيها مختلف أنواع الخضار والفواكه، وكانت تلك البساتين أكبر من عدد الأيدي العاملة فيها، ينظر: «طفل من القرية»، (ص: ١٨٢).

(٣) ينظر: «طفل من القرية»، (ص: ٨٦)، و«سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد»، لصلاح الخالدي، (ص: ١٥).

(٤) ينظر: «طفل من القرية»، لسيد قطب، (ص: ٢٠٤ - ٢٠٥).

«كان والده قد صار عميد الأسرة المكلّف بحفظ اسمها ومركزها في الوقت الذي لم ينله من الميراث إلا نصيب محدود، لا ينهض بما تنهض به ثروة الأسرة مجتمعة، على حين لم يستطع أن ينقص شيئاً من تكاليف المظهر في الريف»[١].

وقد كان لوالديّ سيد قطب الأثر البالغ في نشأته على الإيمان والأخلاق الفاضلة منذ صغره، فقد كانت علاقة والد سيد قطب بالله قوية متينة، وأيضاً كان محافظاً على الصلاة، مؤدياً لها - في الغالب - في المسجد، وكان كثيراً ما يصطحب طفله «سيد» معه إلى المسجد، ولما كبر سيد وناهز العاشرة صار يذهب للمسجد لوحده، ويحرص على أداء الصلاة جماعة فيه[٢].

وقد عبّر سيد قطب عن عظيم دور والده في حسن تربيته له منذ الصغر في صفحة إهداء كتابه: «مشاهد القيامة» له حيث قال سيد: «لقد طبعت فيّ وأنا طفل صغير مخافة اليوم الآخر، ولم تعظني أو تزجرني، ولكنك كنت تعيش أمامي، واليوم الآخر ذكراه في ضميرك وعلى لسانك.. وإن صورتك المطبوعة في مخيلتي ونحن نفرغ كل مساء من طعام العشاء، فتقرأ الفاتحة وتتوجّه بها إلى روح أبيك في الدار الآخرة، ونحن أطفالك الصغار نتمتم مثلك بآيات منها متفرقات قبل أن نجيد حفظها كاملات»[٣].

(١) «طفل من القرية»، لسيد قطب، (ص: ٢١).
(٢) «طفل من القرية»، لسيد قطب، (ص: ١٢٠) بتصرف.
(٣) «مشاهد القيامة في القرآن»، لسيد قطب، (ص: ٥) باختصار.

وأيضاً كان لوالدة سيد قطب الأثر العظيم في نشأته على الإيمان والأخلاق الفاضلة منذ صغره، وقد عبّر سيد قطب عن ذلك في صفحة إهدائه كتابه: «التصوير الفني» لها حيث قال سيد: «لطالما تسمّعت من وراء «الشيش» في القرية، للقراء يرتلون في دارنا القرآن، طوال شهر رمضان. وأنا معك - أحاول أن ألغو كالأطفال - فتردني منك إشارة حازمة، وهمسة حاسمة؛ فأنصت معك إلى الترتيل، وتشرب نفسي موسيقاه. وإن لم أفهم بعد معناه.

وحينما نشأت بين يديك بعثت بي إلى المدرسة الأولية في القرية، وأولى أمانيك أن يفتح الله عليّ، فأحفظ القرآن؛ وأن يرزقني الصوت الرخيم، فأرتله لك كل آن. ثم عدلت بي عن هذا الطريق في النهاية إلى الطريق الجديد الذي أسلكه الآن؛ بعد ما تحقق لك شطر من أمانيك، فحفظت القرآن.

ولقد رحلت عنا - يا أماه - وآخر صورك الشاخصة في خيالي، جلستك في الدار أمام المذياع. تستمعين للترتيل الجميل؛ ويبدو في قسمات وجهك النبيل أنك تدركين - بقلبك الكبير، وحسك البصير - مراميه وخفاياه»[١].

وقد اعتنت به أمه عناية فائقة، حيث جعلته محط آمالها، وبنت شخصيته على الإيمان، والعزة والكرامة وتحمل المسؤولية، كانت تريد منه أن يكون رجلا حتى قبل أوانه[٢].

---

(١) «التصوير الفني»، لسيد قطب، (ص: ٥).

(٢) ينظر: حديث أم سيد قطب عنه في «طفل من القرية، لسيد قطب، (ص: ٢٠١- ٢٠٨).

وقد تميّز سيد قطب منذ صغره بعصامية نادرة، وذاكرة فذة؛ جعلته يجمع بين دروس المدرسة وواجباتها وبين حفظ القرآن ومراجعته، حيث أقبل سيد قطب على حفظ القرآن وهو في السنة الثانية الابتدائية وعمره ثمان سنوات.(١)

واستمر سيد قطب على خطته في حفظ بهمّة وتصميم حيث كان يحفظ كل عام عشرة أجزاء من القرآن، وبعد ثلاثة أعوام أتم حفظ القرآن كاملاً، وكان إتمامه لحفظ القرآن وهو السنة الرابعة الابتدائية، وعمره عشر سنوات(٢).

وبذلك زاد حب مدرسيه له، وارتفع في أعينهم درجات، وأيضاً ازداد حب أهله له، وخاصة أمه التي كانت هذه أغلى أمانيها(٣).

وقد كان لحفظ سيد قطب للقرآن وعمره عشر سنوات عظيم الأثر عليه، حيث اتسعت آفاقه، وازدادت ثقافته، وقوّم لسانه، وقوي بيانه، وحسن أسلوبه، وشفت روحه، وتفتحت مداركه، وقد ترك ذلك أثراً واضحاً على شخصيته ونفسيته وأسلوبه فيما بعد(٤).

ولم يكتف سيد قطب بحفظه للقرآن ودراسته النظامية في القرية، بل أضاف إلى ذلك ثقافته الخاصة حيث كان محباً للقراءة، مهتماً بشراء الكتب، وقد احتوت مكتبته كتباً عديدة، ذات مواضيع مختلفة.

---

(١) «طفل من القرية»، لسيد قطب، (ص: ٤١).

(٢) ينظر: «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد»، لصلاح الخالدي، (ص: ٦٠).

(٣) «سيد قطب الشهيد الحي»، لصلاح الخالدي، (ص: ١٢٥).

(٤) «سيد قطب الشهيد الحي»، لصلاح الخالدي، (ص: ١٢٦).

وربما استعار سيد قطب بعض الكتب من صاحب المكتبة إذا عجز عن شرائها، ودفع لصاحب المكتبة أجرة مالية مقابل الاستعارة[١].

وبهذا اشتهر سيد قطب في القرية بالكتب والقراءة في أوساط المثقفين في القرية فارتفع شأنه عندهم، وأخذ الجميع يتنبأون له بالمستقبل الزاهر[٢].

وبعد أن تخرّج سيد قطب من مدرسته في القرية عام ١٩١٧ في سن الحادية عشرة من عمره، وجّهته أمه إلى الدراسة في القاهرة، حيث غادر سيد قطب قريته ودموع والديه تنهمر على خديهما حزناً على فراقه، وكانت مغادرته لقريته بصحبة أحد أقاربه، حيث نزل سيد قطب في القاهرة في بيت خاله أحمد حسين عثمان[٣].

وفي القاهرة واصل سيد قطب مشواره التعليمي حيث التحق سيد قطب بمدرسة المعلمين الأولية في القاهرة، ثم درس فيها حتى تخرّج منها.

ثم التحق بعد ذلك بكلية تجهيزية دار العلوم عام ١٩٢٥م حيث درس بها حتى تخرج منها عام ١٩٢٩م. وفي سنة ١٩٣٢ حصل على شهادة البكالوريوس في الآداب من كلية دار العلوم. وعمل مدرسا حوالي ست سنوات[٤]، وفي عام ١٩٤٨م انتدبته وزارة المعارف إلى أمريكا،

(١) سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، لصلاح الخالدي، (ص: ٦٥).

(٢) «طفل من القرية»، لسيد قطب، (ص: ١٣١).

(٣) ينظر: «سيد قطب الشهيد الحي»، لصلاح الخالدي، (ص: ١٣٠).

(٤) ينظر: «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد»، لصلاح الخالدي، (ص: ٧٣).

في بعثة تربوية ميدانية، للاطلاع على مناهج التربية والتعليم هناك، وأقام في أمريكا سنتين، وعاد عام ١٩٥٠م، وبعد عودته عُيِّن بوظيفة مراقب مساعد في مكتب وزير المعارف وقتها إسماعيل القباني، ووقعت بينه وبين كبار رجال الوزارة خلافات مستمرة، بسبب وقوفهم في وجهه ورفضهم لآرائه الإصلاحية، ذات الصبغة الإسلامية، وقدم استقالته إلى وزير المعارف بتاريخ ١٩٥٣م.

وفي عام ١٩٥٣م انضم سيد قطب إلى جماعة الإخوان المسلمين، وكان عمره حينها ٤٦ سنة.[١]

ثناء العلماء عليه:

أثنى على سيد قطب العلماء والدعاة والكتّاب الذين عرفوه عن قرب، أو عاصروه، أو اطلعوا على كتبه، ومن أقوالهم في الثناء عليه نذكر ما يلي:

قال أبوالحسن الندوي (عندما سمع خبر إعدام سيد قطب): «إن هذه الشهادة ليست شهادة الأفراد، وإنها ليست هدراً للدماء، وعبثاً بالحقوق البشرية والكرامة الإنسانية فحسب، وإنها ليست همجية وعداء سافراً للإسلام فحسب، بل إنها خسارة فادحة للدعوة الإسلامية والعلم والأدب، والدراسة والبحث والنقد، ومأساة علمية ضخمة، إن سيد قطب من أولئك الأفذاذ الذين يسعد بهم العالم الإسلامي، وهو في الطراز

(١) المصدر السابق.

الأول من صفوة الدعاة ورجال الفكر والأدب الذين تحظى بهم الأمم بعد فترات طويلة».[١]

وقال عبد الله بن جبرين: «إن سيد قطب من علماء المسلمين، ومن أهل الدعوة، وقد نفع الله به، وهدى بدعوته خلقاً كثيراً، وله جهود لا تنكر، ولأجل ذلك شفع الشيخ عبد العزيز بن باز في سيد قطب عندما قرر عليه القتل، وتلطّف في الشفاعة فلم يقبل شفاعته الرئيس جمال - عليه من الله ما يستحق - ولما قتل (يقصد سيد قطب) أطلق عليه: أنه شهيد؛ لأنه قتل ظلماً، وشهد بذلك الخاص والعام، ونشر ذلك في الصحف والكتب بدون إنكار، ثم تلقى العلماء كتبه، ونفع الله به، ولم يطعن أحد فيه منذ أكثر من عشرين عاماً».[٢]

وقال عبد الله عزام: «والحق أنني ما تأثرت بكاتب كتب في الفكر الإسلامي أكثر مما تأثرت بسيد قطب، وإني لأشعر بفضل الله العظيم عليّ أن شرح صدري، وفتح قلبي لدراسة كتب سيد قطب، فقد وجّهني سيد قطب فكرياً، وابن تيمية عقدياً، وابن القيم روحياً، والنووي فقهياً؛ فهؤلاء أكثر أربعة أثروا في حياتي أثراً عميقاً.[٣]

لقد كان لاستشهاد سيد قطب أثر في إيقاظ العالم الإسلامي أكثر من حياته، ففي السنة التي استشهد فيها يطبع الظلال سبع طبعات، بينما لم

(١) إخوان أولاين، الموقع الرسمي لجماعة الإخوان المسلمين.

(٢) موقع الشيخ عبدالله بن جبرين الرسمي.

(٣) إخوان أولاين، الموقع الرسمي لجماعة الإخوان المسلمين.

تتم الطبعة الثانية أثناء حياته.. ولقد مضى سيد قطب إلى ربه رافع الرأس، ناصع الجبين، عالي الهامة، وترك التراث الضخم من الفكر الإسلامي الذي تتوارثه الأجيال، بعد أن وضّح معاني غابت عن الأذهان طويلاً، ووضح معاني ومصطلحات: الطاغوت، الجاهلية، الحاكمية، العبودية، والألوهية، ووضح بوقفته المشرّفة معاني البراء والولاء، والتوحيد، والتوكّل على الله، والخشية منه، والالتجاء إليه».

وقال عمر التلمساني: «الذين يعرفون الشهيد سيد قطب، ودماثة خلقه، وجم أدبه، وتواضعه، ورقّة مشاعره، يعرفون أنه لا يكفّر أحداً، إنه داعية إسلامي، من عيون دعاة المسلمين، ظلمه من أخذ كلامه على غير مقاصده، ومن هاجموه متجنين، لما رأوا من عميق تأثير كلماته وكتاباته على الشباب الطاهر النظيف».

وقال عمر التلمساني أيضاً عن مؤلفات سيد قطب وفكره: «الشهيد سيد قطب له مؤلفات عدة وجيدة على مستوى رفيع، منها: «في ظلال القرآن»، و«العدالة الاجتماعية في الإسلام»، و«معالم في الطريق»، وتمتاز هذه المؤلفات بالنقمة على الظلم في كل مظاهره، والحرص على رفع المعاناة عن كل الطبقات، وأن تسود مصر الحرية، التي ليس لها حدود إلا فيما أحلّ الله وحرّم، وما تواضعت عليه الأمم الراقية ذات الحريات الواسعة»[1].

وقال محب الدين الخطيب: «لقد برهن سيد قطب بمواقفه في عهد

---

(١) «ذكريات لا مذكرات»، للتلمساني، (ص ٧٥).

الطغيان على أنه يحسن القول في تأييد الحق يوم يتجهّم وجه الباطل القوي للحق، إذا انصرف عنه جنوده، وهناك كثيرون من حملة الأقلام يحسنون تأييد الحق إذا كانت له سوق يروّج فيها، أو دولة تخطب ود مؤيديه ولو إلى حين، وهم على استعداد لأن يقولوا غير ذلك أيضاً».[١]

وقال الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد عن كتب سيد قطب: «وجدت في كتبه خيراً كثيراً، وإيماناً مشرقاً، وحقاً أبلج، وتشريحاً فاضحاً لمخططات العداء للإسلام، على عثرات في سياقاته، واسترسال بعباراته، ليته لم يفه بها، وكثير منها ينقضها قوله الحق في مكان آخر، والكمال عزيز، والرجل كان أديباً نقّادة، ثم اتجه إلى خدمة الإسلام من خلال القرآن العظيم، والسّنّة المشرّفة، وسخّر قلمه ووقته ودمه في سبيلها، فشرق بها طغاة عصره، وأصر على موقفه في سبيل الله تعالى، وكشف عن سالفته... وطلب منه أن يسطّر بقلمه كلمات اعتذار، وقال كلمته الإيمانية المشهورة: إن أصبعاً أرفعه للشهادة لن أكتب كلمة تضارها، أو كلمة نحو ذلك.

فالواجب على الجميع الدعاء له بالمغفرة، والاستفادة من علمه، وبيان ما تحققنا خطأه فيه، وإن خطأه لا يوجب حرماننا من علمه، ولا هجر كتبه»![٢]

وقال الشيخ حمود بن عقلاء الشعيبي: «إن سيداً يعدّ في عصره علماً من الأعلام أصحاب منهج مقارعة الظالمين والكفر بهم، ومن أفذاذ

---

(١) إخوان أولاين، الموقع الرسمي لجماعة الإخوان المسلمين.

(٢) «النصيحة الذهبية»، وهي رد العلامة بكر أبوزيد على ربيع المدخلي .

الدعاة إلى تعبيد الناس لربهم والدعوة إلى توحيد التحاكم إلى الله، فلم يقض إلا مضاجع أعداء الله ورسوله كجمال عبدالناصر وأمثاله... وما فرح أحد بقتله كما فرح أولئك، ولقد ضاق أولئك الأذناب بهذا البطل ذرعاً، فلما ظنوا أنهم قد قتلوه إذا بدمه يحيي منهجه، ويشعل كلماته حماساً، فزاد قبوله بين المسلمين وزاد انتشار كتبه؛ لأنه دلّل بصدقه وإقدامه على قوة منهجه، فسعوا إلى إعادة الطعن فيه رغبة منهم لقتل منهجه أيضاً، وأنى لهم ذلك؟

فاستهداف سيد قطب لم يكن استهدافاً مجرداً لشخصه، فهو ليس الوحيد من العلماء الذين وجدت له العثرات، فعنده أخطاء لا ننكرها، ولكن الطعن فيه ليس لإسقاطه هو بذاته، فقد قدم إلى ربه، ونسأل الله له الشهادة، ولكن الذي لا زال يقلق أعداءه وأتباعهم هو منهجه الذي يخشون أن ينتشر بين أبناء المسلمين. وإني إذ أسمع الطعن في سيد قطب لأستغرب ذلك؛ لقوله الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.[1]

فكل من معه نور من النبوة أيضاً له أعداء من أهل الباطل بقدر ما معه من ميراث نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، فما يضير سيداً طعن الطاعنين، بل هو رفعة له وزيادة في حسناته، ولكن الذي يثير الاستغراب هو فعل أولئك الأقوام الذين يدّعون اتباع الحق ومع ذلك ينقصون الميزان ولا يزنون بالقسطاس المستقيم، والله يقول:

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٣١.

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾[١]

فأولئك إذا أرادوا مدح أحد عليه من المآخذ ما يفوق سيداً بأضعاف قالوا كلمتهم المشهورة: «تغمس أخطاؤه في بحر حسناته»، وقالوا: «إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث»، وغير ذلك، وإذا أرادوا ذم آخر كسيد قطب الذي يعد مجدداً في باب «إن الحكم إلا لله» سلكوا معه طريق الخوارج وكفّروه بالمعاصي والزلات.

وسيد قطب لا ندّعي له العصمة من الخطأ، بل نقول إن له أخطاء ليس هذا مجال تفصيلها، ولكنها لا تخل بأصل دعوته ومنهجه، كما أن عند غيره من الأخطاء التي لم تقدح في منزلتهم، وعلى سبيل المثال ابن حجر والنووي وابن الجوزي وابن حزام، فهؤلاء لهم أخطاء في العقيدة إلا أن أخطاءهم لم تجعل أحداً من أبناء الأمة ولا علمائها يمتنع من الاستفادة منهم، أو يهضمهم حقهم، وينكر فضائلهم، فهم أئمة إلا فيما أخطأوا فيه، وهذا الحال مع سيد، فأخطاؤه لم تقدح في أصل منهجه ودعوته لتوحيد الحاكمية، وتعبيد الناس لربهم... وله - رحمه الله - من المواقف والأقوال التي لا يشك عارف بالحق أنها صادرة عن قلب قد مليء بحب الله وحب رسوله ﷺ، وحب التضحية لدينه».[٢]

---

(١) سورة المطففين، آية: ١، ٢، ٣.

(٢) «جامع آثار الشيخ حمود بن عقلاء الشعيبي»، جمع وترتيب عبدالله آل حمدان، (١/ ١٠٠).

ولما سئل الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمة الله عليه، عن كتب المودودي والندوي وسيد قطب، قال: «كلها كتب مفيدة، كتب هؤلاء الثلاثة، كلها كتب مفيدة، فيها خير كثير، ولا تخلو من بعض الأغلاط، وكل يؤخذ من قوله ويُترك، وليسوا بمعصومين».[١]

وقد ذكر الشيخ العلامة عبدالعزيز بن باز –رحمه الله– في كتابه «تحفة الإخوان بتراجم بعض الأعيان» **سيد قطب –رحمه الله– وقال عنه:**

«إن سيد قطب –رحمه الله– نُفِّذ فيه حكم الإعدام يوم الإثنين الموافق ١٣/ ٥/ ١٣٨٦هـ، رحمة الله عليه وعلى سائر العلماء المسلمين، ونرجو أن يكون من الشهداء الأبرار. وقد قُتل معه في هذا اليوم الشيخ عبدالفتاح إسماعيل، والشيخ محمد إبراهيم هراس، غفر الله للجميع، وكتب الشهادة لهم، والمذكور له مؤلفات كثيرة مفيدة، أشهرها وأهمها تفسيره في (ظلال القرآن)».[٢]

وقال الدكتور سلمان العودة: «والذي أدين الله به أن الأستاذ سيد قطب من أئمة الهدى والدين، ومن دُعاة الإصلاح، ومن روّاد الفكر الإسلامي... سخّر فكره وقلمه في الدفاع عن الإسلام، وشرح معانيه، وردّ شبهات أعدائه، وتقرير عقائده وأحكامه، على وجه قلّ من يباريه أو يجاريه في هذا الزمان.

---

(١) في اليوتيوب بعنوان: «رأي الشيخ عبدالعزيز بن باز في كتب سيد قطب».

(٢) «تحفة الإخوان، بتراجم بعض الأعيان»، للشيخ عبدالعزيز بن باز، (ص ٣٩)، طبعة دار أصالة الحاضر.

وكان حديثه حديث المعايش الذي لابس همّ الإسلام قلبه، وملك عليه نفسه، قد شغله الحزن على الإسلام، والغضب له، حتى عن ذاته وهمومه الخاصة».(١)

وقال يوسف العظمة: «وحديثه حين يقابل جمهوره كان يبدأ هادئاً، ولكن في ثقة، وبسيطاً ولكن في عمق، سلس العبارة ولكن في غير سوقية ولا تبذل، وقد يهاجم الأستاذ خصومه، ويبكّت المنحرفين عن الحق، ولكن في أدب وعفّة مقال»(٢).

وقال صلاح الخالدي: «رحم الله الإمام الشهيد، والمفكّر الرائد، والداعية المجاهد سيد قطب، وتقبّل الله جهده وجهاده»(٣).

وقال أيضاً: «لقد كسب سيد قطب باستشهاده الحياة الحقيقية، فهو الشهيد الحي عند الله - إن شاء الله - كذلك باستشهاده عاشت أفكاره، فأصبحت حيّة، وتمثّلها مؤمنون دعاة في واقعهم وحياتهم وجهادهم»(٤).

وغير ذلك من أقوالهم في الثناء عليه.(٥)

---

(١) موقع الإسلام اليوم.

(٢) «سيد قطب»، ليوسف العظمة، (ص: ٢٣٣).

(٣) «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد»، لصلاح الخالدي، (ص: ٤٨٣).

(٤) «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد»، لصلاح الخالدي، (ص: ٤٨٢).

(٥) للاستزادة في معرفة أقوال العلماء في سيد قطب، انظر كتاب: «أقوال العلماء المنصفين في سيد قطب»، للمؤلف، طبعة دار الظاهرية.

مؤلفاته:

منح الله سيد قطب قلباً واعياً، وذهناً صافياً، وعلماً وافراً، وقلماً سيالاً؛ أثرى من خلال ذلك المكتبة الإسلامية والأدبية بتراثه الفكري والأدبي.

ومن أبرز مؤلفاته وكتبه ما يلي:

١- في ظلال القرآن.

٢- مهمة الشاعر في الحياة وشعر الجيل الحاضر.

٣- الشاطئ المجهول (ديوان شعر).

٤- نقد كتاب مستقبل الثقافة في مصر.

٥- التصوير الفني في القرآن.

٦- مشاهد القيامة في القرآن.

٧- العدالة الاجتماعية في الإسلام.

٨- الأطياف الأربعة (سيرة ذاتية).

٩- طفل من القرية (سيرة ذاتية).

١٠- المدينة المسحورة (رواية).

١١- كتب وشخصيات.

١٢- أشواك (رواية).

١٣- النقد الأدبي أصوله ومناهجه.

١٤- معركة الإسلام والرأسمالية.

١٥- السلام العالمي والإسلام.

١٦- دراسات إسلامية (مجموعة مقالات).

١٧- هذا الدين.

١٨- المستقبل لهذا الدين.

١٩- خصائص التصور الإسلامي.

٢٠- الإسلام ومشكلات الحضارة.

٢١- معالم في الطريق.

٢٢- مقومات التصور الإسلامي.

وقد حاول البعض منع تراث سيد قطب ومؤلفاته، ولكن أنى لهم ذلك؟ فإن سيد قطب قد عمّد تراثه بدمه، وهو الذي قال عن قوة الكلمة وحياتها وحيويتها: «ليست كل كلمة تبلغ إلى قلوب الآخرين فتحركها، وتجمعها، وتدفعها.. إنها الكلمات التي تقطر دماء؛ لأنها تقتات قلب إنسان حي.

كل كلمة عاشت قد اقتاتت قلب إنسان... إن أصحاب الأقلام يستطيعون أن يصنعوا شيئاً كثيراً، ولكن بشرط واحد: أن يموتوا لتعيش أفكارهم، أن يطعموا أفكارهم من لحومهم ودمائهم، أن يقولوا ما يعتقدون أنه حق، ويقدّموا دماءهم فداء لكلمة الحق. إن أفكارنا وكلماتنا تظل جثثاً هامدة، حتى إذا متنا في سبيلها أو غذيناها بالدماء، انتفضت حيّة، وعاشت بين الأحياء»(١).

---

(١) «دراسات إسلامية»، لسيد قطب، (ص: ١٣٩).

محنته:

امتحن سيد قطب أكثر من مرة، وشملت محنته كافة صنوف المحنة؛ محنة التخويف والترهيب، والسجن والتعذيب، والمساومة والإغراء، والمحاكمة الهزلية، ثم الإعدام شنقاً.

وقد مرّت محنة سيد قطب بمرحلتين:

المرحلة الأولى: (من عام ١٩٥٤م إلى عام (١٩٦٤م): حيث استمرت ١٠ سنوات تقريباً، وشملت هذه المرحلة من المحنة: الاعتقال والسجن، والمحاكمة الهزلية أمام محكمة عسكرية، والتعذيب النفسي والجسدي الرهيب.

المرحلة الثانية: (من ٩/ ٨/ ١٩٦٥م) إلى (٢٩/ ٨/ ١٩٦٦م)، حيث استمرت أكثر من سنة، وشملت هذه المرحلة من المحنة: الاعتقال، والسجن، والمحاكمة الهزلية أمام محكمة عسكرية، ثم محاولة إغرائه بما شاء من الأموال والمناصب - كما سيأتي -، ثم الإعدام شنقاً.

هذه محنة سيد قطب من حيث الإجمال.

أما محنته من حيث التفصيل (على وجه الاختصار والإيجاز) فقد مرت بمرحلتين -كما ذكرنا-:

الأولى: محنة سيد قطب في السجن (١٩٥٤ - ١٩٦٤م): حيث تم اعتقال سيد قطب مطلع عام ١٩٥٤م عقب تفاقم الخلاف بين عبدالناصر وبين الإخوان، فبيّت عبد الناصر النيّة لضرب الإخوان، حيث أصدر مجلس قيادة الثورة أمراً بحل جماعة الإخوان، وأذاع المجلس بياناً مطولاً

عبر الإذاعة، ونشر في الصحف؛ ليلة اعتقال سيد قطب: اتهم فيه الإخوان: بالقيام بأعمال خطيرة! تفرّق الأمة! وتهدّد الأمن! -حسب وصف البيان- كما نسب إليهم الاتصال بالإنجليز، والتآمر معهم ضد الوطن[١].

ولعل هذا أول اعتقال لسيد قطب، وأول دخول له السجن أيضاً[٢].

وقد أعقب هذا الاعتقال والسجن مظاهرات واحتجاجات حاشدة؛ تم على إثرها رضوخ عبد الناصر لمطالبهم والإفراج عن سيد قطب ومن معه من المعتقلين.

ثم اعتقل سيد قطب مرة ثانية في نهاية أكتوبر ١٩٥٤م عقب حادث المنشية؛ حيث أذيع في الساعة الثامنة من مساء ٢٦/ ١٠/ ١٩٥٤م: أن عبدالناصر قد نجا من محاولة اغتيال، وهو يخطب في دار هيئة التحرير في المنشية بالإسكندرية.

وعقب هذه الحادثة (المدبّرة) قامت الحكومة باعتقال سيد قطب، وأيضاً ألقت القبض على الآلاف من الإخوان، والزجّ بهم في السجون.

وقد عبّر سيد قطب عن هذه المحنة بقوله: «ثم كانت حوادث ١٩٥٤م فاعتقلت مع من اعتقلوا في يناير، وأفرج عنهم في مارس، ثم اعتقلت بعد ذلك في حادث المنشية في ٢٦ أكتوبر كذلك»[٣].

وقد بقي سيد قطب في السجن بعد هذا الاعتقال مدة شهر بدون

---

(١) ينظر البيان في كتاب: «الإخوان المسلمون»، لمحمود عبد الحليم: (٣/ ٢٥٩- ٢٦٧).

(٢) «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد»، لصلاح الخالدي، (ص: ٣٤٦).

(٣) «لماذا أعدموني»، (ص: ١٢).

تحقيق أو محاكمة، ثم بدأ التحقيق معه من قبل محكمة عسكرية شكّلت من ضباط الجيش، سمّيت: «محكمة الثورة»؛ حيث صب على سيد قطب صنوف الأذى من التعذيب والاضطهاد (وأيضاً على من معه من المعتقلين في السجن)، حتى إنه أدى ذلك إلى مضاعفة أمراضه التي في بدنه، وإصابته بأمراض أخرى(١).

وقد عبّر سيد قطب عن شدّة التعذيب الرهيب الذي مورس عليه (ومن معه) أثناء إحضاره من السجن إلى قاعة المحكمة في إحدى المرات كشاهد على محاكمة حسن الهضيبي - مؤسس الجماعة آنذاك - حيث جرى بين سيد قطب وبين رئيس المحكمة جمال سالم الحوار التالي:

قال جمال سالم: يبدو عليك التعب يا أستاذ سيد، فهل أنت تعبان؟

فرد عليه سيد قطب: نعم؛ لأني كنت واقفاً على قدمي ست ساعات، قبل دخولي المحكمة!

فقال جمال سالم: وماذا يعني هذا؟ كلنا نقف مدداً طويلة؟!

فرد عليه سيد قطب: ولكننا تطبّق علينا في السجن مبادئ الثورة!

ثم نزع سيد قطب رداءه عن جسمه أمام الحضور، فظهر للحاضرين جميعاً آثار التعذيب الشديد على جسمه فاضطر رئيس المحكمة جمال سالم لرفع الجلسة فوراً(٢).

---

(١) ينظر: «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد»، لصلاح الخالدي، (ص: ٣٤٨).

(٢) ينظر: «مجلة المجتمع»، العدد (٥٣٩)، (ص: ٢٧)، و«مذابح الإخوان»، لجابر رزق، (ص: ١١٣).

وقد تأخرت محاكمة سيد قطب السرية والحكم عليه بسبب الأمراض التي أصيب بها، والتي ضاعف منها تعذيبه المتواصل، فقد ذكر يوسف العظمة أن سيد قطب نقل «في اليوم الثالث من شهر أيار سنة ١٩٥٥م إلى المستشفى العسكري للمعالجة مما أصابه من آثار التعذيب، والأمراض المختلفة التي خلّفها سجنه الرهيب في جسده الطاهر: مرضاً صدرياً، وأزمة قلبية، و«روماتيزم» في معظم أعضاء جسمه المعذّب المكدود.

وفي الثالث عشر من تموز ١٩٥٥م حكمت محكمة الشعب على الرجل المبتلى، والعالم الرباني بالسجن لمدة خمسة عشر عاماً مع الأشغال الشاقة. وكان الحكم غيابياً؛ لعدم استطاعته حضور الجلسة من جراء ما أصابه من إعياء ومرض وتعذيب»[١].

والسبب في كون محاكمة سيد قطب سرية؛ لأن القضاة والجلادين يخشون جرأة سيد قطب وشجاعته، وفضحه لجلاديه لهم أمام الناس، كما روت ذلك مجلة الشهاب حيث جاء فيها: «إنه في اليوم الذي تقررت فيه محاكمة سيد قطب جاءه مدير السجن حمزة البسيوني، وقال له: لن نحاكمك لأنك مصدور! وعرف السبب بعد ذلك؛ لأنه كان من المقرر في ذلك الوقت حضور مندوب عن لجنة حقوق الإنسان الدولية، ويخشون أن يتحدّث سيد قطب أمامه عن التعذيب.

وبعدما ذهب المندوب قدّم سيد قطب للمحاكمة، وعندما سألوا سيد قطب خلع قميصه ليري القضاة والمحامون والشهود آثار التعذيب الوحشية!

---

(١) ينظر: «سيد قطب»، ليوسف العظمة، (ص: ٣٩).

ولما سمع سيد قطب الحكم بسجنه خمسة عشر عاماً اعترض عليه مستهزئاً: إنه مدة قليلة! فأين حكم الإعدام؟!»[١].

وقد حكى سيد قطب في تقريره عن مرضه قبل المحاكمة من أنه كان في السجن الحربي تمهيداً لمحاكمته، فلما مرض نقل إلى مستشفى سجن «طرة»، ولما خفّ مرضه أعيد إلى السجن الحربي للمحاكمة أمام جمال سالم حيث يقول سيد قطب: «في ذلك الوقت أنا كنت في طرة معتقلاً، ولم يصدر عليّ حكم بعد، ولم أحاكم بسبب تمزّق في الرئتين ونزيف حاد، اقتضى نقلي من السجن الحربي في ١٥ يناير ١٩٥٥م إلى مصحة ليمان طرة للعلاج... وفي إبريل كانت حالتي قد تحسّنت نوعاً ما، وتقرر إعادتي إلى السجن الحربي لتقديمي للمحاكمة»[٢].

ثم نقل سيد بعد الحكم بالأشغال الشاقة خمسة عشر عاماً إلى ليمان أو سجن طرة[٣] لقضاء مدة الحكم.

وفي سجن طرة تمكّن سيد قطب من حل لغز المنشية - بعد تأمل وتفكير- حيث يقول سيد قطب: «وأحب أن أقرر هنا: أنه ثبت أن الحادث كان مدبراً، وأن للمخابرات الأمريكية يداً في هذا الحادث وتدبيره، وأن لعبدالناصر وخاصة رجاله يداً مباشرة في هذا الحادث، وأن الذي أطلق الرصاص ليس محمد عبد اللطيف، بل أحد ضباط

---

(١) ينظر: «مجلة الشهاب».

(٢) «لماذا اعدموني»، (ص: ٢٠).

(٣) يعتبر سجن طرة من أسوأ سجون مصر، وأكثرها قذارة وإيذاء.

الشرطة بترتيب من رجال عبد الناصر، وأن المقصود من كل هذا البطش بالإخوان المسلمين، وضربهم والقضاء على دعوتهم. وأن هناك اتفاق بين عبدالناصر والمخابرات الأمريكية على ضرب الإخوان، وعلى تجميد حالة الحرب بينه وبين إسرائيل لعشر سنوات - كما صرّح بذلك السفير الأمريكي في السعودية للسفير السوري في السعودية وقتها: عمر بهاء الدين الأميري»[١].

وهذه الحقيقة أكد عليها الأستاذ أحمد رائف وجلاها بالإثباتات والشهود والروايات والتحقيقات والمقابلات في كتابه: «سراديب الشيطان» الذي طبع مؤخراً[٢].

ولما تضاعفت أمراض سيد قطب الجسمية، وتدهورت حالته الصحية كان لابد من نقله إلى المستشفى، وبما أن سيد قطب محكوم عليه بالسجن خمسة عشر عاماً، فقد رتّبوا له وضعاً استثنائياً، وهو أن يقيم في مستشفى سجن طرة، أو مصحة طرة -كما يسميها سيد-.

بل إنه في فترة من الفترات لم يكن في السجن في طرة ولا في مستشفاه إلا سيد قطب واثنان من المرضى[٣].

وبعد حوالي خمس سنوات من إقامة سيد قطب في مستشفى سجن طرة تضاعفت أمراضه، وساءت حالته الصحية، بل تدهورت، حيث نقل

---

(١) ينظر: «وثيقة عمر الأميري في مجلة المجتمع»، عدد: (٧٥٨).

(٢) ينظر: «سراديب الشيطان»، لأحمد رائف (الفصول من السادس حتى العاشر).

(٣) ينظر: «لماذا أعدموني»، (ص: ٢٧).

إلى مستشفى المنيل الجامعي حيث بقي فيه ستة أشهر ثم أعيد إلى مستشفى طرة، حيث بقي متنقلاً بين هذين المستشفيين عدة مرات في نفس السنة.

ثم بعد إصابة سيد قطب بالذبحة الصدرية أفرج عنه إفراجاً صحياً، كما أشار إلى ذلك سيد قطب في تقريره حيث يقول: «وكنت قد خرجت بعفو صحي بعد سوء حالتي الصحية بالذبحة الصدرية التي أصبت بها في السجن، مع بقية أمراضي الأخرى»[١].

الثانية: محنة سيد قطب[٢] في (٩/ ٨/ ١٩٦٥م-٢٩/ ٨/ ١٩٦٦م): وقد بدأت هذه المرحلة من محنة سيد قطب باعتقاله ليلة الإثنين (٩/ ٨/ ١٩٦٥م) حيث داهمت المباحث منزل سيد قطب في رأس البر قبل الفجر، وألقت القبض عليه، وساقته إلى السجن الحربي، حيث بقي فيه في التعذيب والتحقيق والمحاكمة إلى أن تم إعدامه بعد سنة من هذا الاعتقال[٣].

وفي هذه المرة من المحنة حبس سيد قطب في زنزانة انفرادية في السجن الحربي، ومنع من الخروج منها طيلة مائة وثلاثين يوماً. وقد قام

(١) «لماذا أعدموني»، (ص: ٣٧).

(٢) في هذه المرحلة من محنة سيد قطب الثانية اعتقل شقيق «سيد قطب»: «محمد قطب» في ٢٩ أو ٣٠ يوليو ١٩٦٥م، حيث قدّم سيد قطب رسالة احتجاج للضابط «أحمد راسخ» بالمباحث العامة حملها ابن أخته «رفعت بكر» للمباحث، احتج فيها سيد قطب على طريقة اعتقال شقيقه محمد، وكون أهله لا يعرفون مكان اعتقاله، ينظر: «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد»، لصلاح الخالدي، (ص: ٤١٨).

(٣) «الموتى يتكلمون»، (ص: ١٢٠ - ١٢١).

بالتحقيق مع سيد في هذه المرة صلاح نصار، حيث استمر التحقيق مع سيد عدة ساعات خلال ثلاثة أيام متوالية بدأت يوم الأحد والإثنين، والثلاثاء[١].

ثم شكّلت بعد ذلك محاكم لمحاكمة سيد (ومن معه) حيث بدأت المحاكمة في ٩/ ٤/ ١٩٦٦م (أي أن هناك أكثر من أربعة أشهر بين التحقيق مع سيد وبين محاكمته).

ولم تبدأ المحاكمة الأولى لسيد قطب على يد الدجوي إلا يوم الثلاثاء ١٢/ ٤/ ١٩٦٦م[٢].

وفي هذه المحاكمة قال سيد قطب للدجوي ما يعتقد، وتكلّم عن التعذيب الوحشي الذي تعرّض له المتهمون[٣].

وفي محاكمة سيد قطب - الهزلية - هذه وقعت عدة تجاوزات ومخالفات، ومنها: أنها محاكمة عسكرية لمواطنين مدنيين، وأن الدجوي

---

(١) ينظر محاضر التحقيق في اليوم الأول والثاني والثالث في كتاب: «الموتى يتكلمون»، (ص: ١٣١ - ١٤٦).

(٢) من الملهيات المبكيات في المحاكمة هذه: أن رئيس نيابة أمن الدولة «صلاح نصار» ومعه وكلاء النيابة كانوا يلقبون سيد قطب بألقاب السخرية والاستهزاء؛ مثل: «القطب الأغر»، و«القطب اللامع» و«زعيم الإجرام» [ينظر: «البوابة السوداء»، لأحمد رائف، ص: ٢٢٢]. وأيضا عينت المحكمة المحامي «أحمد مختار قطب» للدفاع عن سيد قطب، وهو عميل قديم من عملاء المخابرات، وليس قريباً لسيد قطب كما قد يظنه البعض، ينظر: «لماذا أعدم سيد قطب؟»، (ص: ٢٨).

(٣) ينظر: «الشهيد سيد قطب»، ليوسف العظمة، (ص: ٥٩).

كان يضع يده على رقبة سيد قطب، وكأنه يقول له: «إننا سنعدمك!»، وأن القانون المصري يمنع إعـدام من بلغ الستين، أو مصاب بمرض عضال، وهذ الصفتان تنطبقان على سيد قطب، وغير ذلك من المخالفات والتجاوزات.

وقد انزعج المحامون العرب من هذه المحاكمة، فتطوعوا للقدوم إلى مصر والدفاع عن سيد قطب (ومن معه) ولكن الحكومة منعتهم[١].

وحاولت منظمة العفو الدولية إرسال أحد أعضائها المحامين لحضور المحاكمات بصفة مراقب، ولكن الحكومة المصرية لم توافق.

وقد أذاعت منظمة العفو الدولية بياناً للصحف والرأي العام، وكان مما جاء فيه: «تمسك المتهمون بوقوع تعذيب عليهم، لانتزاع الاعتراف منهم، وقد وجّه هذه الاتهام إلى سلطات التحقيق، من جانب سيد قطب - وهو المتهم الرئيس في القضية الحالية - ولكن رئيس المحكمة بادر فوراً إلى إسكات المتهم، رافضاً أن يسمع منه الأدلة على هذه المسألة، معلناً بأن المتهمين يكذبون»[٢].

ومضت أربعة أشهر بعد انتهاء محاكمة سيد قطب كان فيها ينتظر الحكم عليه بالإعدام؛ كما يروي ذلك إبراهيم المصري في مجلة الشهاب اللبنانية قائلاً:

«وهنا لابد من كشف النقاب عن حديث استكتمه سيد قطب أحد

(١) ينظر: «الشهيد سيد قطب»، ليوسف العظمة: (ص: ٥٩).

(٢) ينظر البيان في «لماذا أعدم سيد قطب وإخوانه»، (ص: ٣٥ - ٤١).

إخوانه قبل اعتقاله بأسابيع كان الحديث يدور حول اليهودية، وخطرها على العالم أجمع، وعلى المسلمين خاصة. يقول سيد: لقد وقفت على مدى تغلغل الأصابع اليهودية وخطرها، بعد بحث وطول عناء، واليهود إذا علموا أنني أحيط بذلك فلابد أن أقتل»[١].

وأيضاً يدل معرفة سيد قطب بأنهم سيعدمونه مقابلة أجراها معه أحمد رائف في السجن، ومما جرى في المقابلة قول أحمد رائف لسيد قطب: ماذا تنتظر؟ فأجاب سيد قطب بابتسامة واثقة نابعة من صدر هادئ مطمئن: «أنتظر الوفود على ربي»[٢].

وبعد أربعة أشهر من محاكمة «سيد قطب» (ومن معه) نطق فؤاد الدجوي بالأحكام التي أصدرها عبد الناصر على سيد قطب (ومن معه)، حيث كان سيد قطب أول المحكومين عليهم بالإعدام، وقد روى محمود الديري إسماع سيد للحكم وإعدامه، ومما جاء في روايته قوله: «نادوا على الأستاذ سيد... وأخذوه إلى الحجرة المجاورة حيث نطقوا بالحكم عليه.. فرأينا المهندس الذي يسجل الأحكام يبكي!.. فعرفنا أن الحكم هو: الإعدام.

ويضيف ممدوح الديري: «لقد سمعت أن الشهيد عندما سمع الحكم قال: الحمد لله»[٣] أي بعد سماع سيد قطب للنطق بحكم الإعدام عليه (ومن معه).

---

(١) «مجلة الشهاب»، السنة الخامسة، العدد الحادي عشر، أيلول ١٩٧١م.

(٢) «البوابة السوداء»، (ص: ٢٢٣).

(٣) «مذابح الإخوان»، (ص: ١١٨).

وقد حاول الطغاة مساومة سيد قطب قبل إعدامه ليتخلى عن الحق الذي يحمله، ويدين الله به، حيث طلبوا منه كتابة رسالة اعتذار إلى عبدالناصر مقابل خروجه من السجن، وإلغاء حكم الإعدام عليه، وتوليه مناصب قيادية كبيرة، ومنحه أموالاً ضخمة، وقد استمرت هذه المساومات حتى الليلة الأخيرة من حياة سيد قطب، وقد استخدم الطغاة أخت سيد قطب «حميدة» لتضغط عليه ليستجيب لهم؛ كما ذكرت تلك المساومات حميدة قطب، وقد حاولت حميدة قطب مع أخيها ذلك، ولكن سيد قطب أبى كل ذلك[1].

وقد أثارت محاكمة الدجوي - الظالمة لسيد قطب وتعذيب الجلادين له - المراقبين للأحداث، ومعظمهم لاذ بالصمت إيثاراً للسلامة، وكان ممن أثارتهم هذه المحاكمة كمال الدين حسين (النائب السابق لعبدالناصر) حيث بعث برسالة لعبد الناصر، وصورة منها لمدير المباحث عبدالحكيم عامر، ولكن عبد الناصر واجه هذه الرسلة باعتقال كمال الدين حسين[2].

وأيضاً لاقت هذه المحاكمة استنكار كثير من الشعوب العربية والإسلامية، وخرجت بعض المظاهرات والاحتجاجات المنددة والمستهجنة لهذا الحكم.

وأيضاً بعث الملك فيصل برسالة إلى عبد الناصر يطلب منه عدم إعدام سيد قطب، ولكن عبد الناصر أصرّ على قراره السيئ[3].

---

(١) ينظر: «أيام من حياتي»، (ص: ١٨٣- ١٨٤).
(٢) ينظر: «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد»، لصلاح الخالدي، (ص: ٤٦٢).
(٣) ينظر: «سراديب الشيطان»، لأحمد رائف، (ص: ١٤٩ - ١٥٢).

بل كان لإعدام سيد قطب (ومن معه) أثر بالغ على المساجين؛ كما تدل على ذلك هذه الحادثة التي حكاها أحمد رائف بقوله: «وعدت بالذكرى إلى اليوم الذي جاءنا الخبر فيها بإعدام الشهيد وكنا أيامها بمعتقل أبي زعبل السياسي... وكان الكلام حراماً وممنوعاً، والرعب يخيّم فيه على العنابر والزنازين، وكانت رغم هذا أول صلاة في فناء المعتقل.. وكانت صلاة المغرب، وقرأ الإمام قوله تعالى:

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧﴾[1]

وضج المعتقل بالبكاء»[2].

وقد واجه سيد قطب هذه المحنة عبر مراحلها التي مرت بها بعدة أمور، منها:

أولا: الشجاعة والصراحة والجرأة: كما يدلّ على ذلك حادثة إحضاره من السجن إلى قاعة المحكمة في إحدى المرات كشاهد على محاكمة حسن الهضيبي - مؤسس الجماعة آنذاك - حيث جرى بين سيد قطب وبين رئيس المحكمة جمال سالم الحوار التالي:

قال جمال سالم: يبدو عليك التعب يا أستاذ سيد، فهل أنت تعبان؟

فرد عليه سيد قطب: نعم؛ لأني كنت واقفاً على قدمي ست ساعات، قبل دخولي المحكمة!

---

(١) سورة المائدة، آية: ٢٧.

(٢) «سراديب الشيطان»، لأحمد رائف، (ص: ١٥٢).

فقال جمال سالم: وماذا يعني هذا؟ كلنا نقف مدداً طويلة؟!

فرد عليه سيد قطب: ولكننا تطبق علينا في السجن مبادئ الثورة!

ثم نزع سيد قطب رداءه عن جسمه أمام الحضور، فظهر للحاضرين جميعاً آثار التعذيب الشديد على جسمه فاضطر رئيس المحكمة جمال سالم لرفع الجلسة فوراً[١]، فهذه الحادثة تدل على جرأة سيد قطب وشجاعته، فلم يخش من المحكمة العسكرية ولا من قضاتها الجلادين، ولا من زبانية السجن الذين قاموا بتعذيبه، وحتماً سيقومون بتعذيبه أشد وأنكى من ذي قبل، وذلك عقب رفع الجلسة وإرجاع سيد قطب إلى السجن؛ انتقاماً منه لفضحه إيّاهم، وبيانه للرأي العام ما تعرّض له هو ومن معه من التعذيب في السجن.

وأيضا كان سيد قطب أثناء محاكمة الدجوي له صادقاً صريحاً جريئاً، شجاعاً أبياً كريماً[٢].

ثانياً: التحلّي بالأخلاق الحسنة: حيث كان سيد قطب يعامل من معه في السجن - ولو كانوا سجانين - بأخلاق إسلامية عظيمة، حتى ملك قلوبهم، ولجأوا إليه كثيراً؛ بل إن الحلواني - مدير السجن - قال: «إن المدير الفعلي للسجن هو سيد قطب».

---

(١) ينظر: «مجلة المجتمع»، العدد (٥٣٩)، (ص: ٢٧)، و«مذابح الإخوان»، لجابر رزق، (ص: ١١٣).

(٢) ينظر نص حوار سيد مع القاضي الدجوي في المحكمة، في كتاب «الموتى يتكلمون»، (ص: ١٦٠ - ٢٨٢).

ثالثاً: استغلال الوقت فيما ينفع: حيث ألّف سيد قطب في مستشفى السجن كتباً إسلامية ناضجة، خرجت أصولها من السجن إلى المطبعة[١].

ومن الكتب التي ألّفها سيد قطب في سجنه؛ ما يلي:

١- أكمل تفسير: «**في ظلال القرآن**»، ثم أعاده في طبعته المنقحة.

٢- هذا الدين.

٣- المستقبل لهذا الدين.

٤- الإسلام ومشكلات الحضارة.

٥- خصائص التصور الإسلامي

٦- مقومات التصور الإسلامي.

٧- **معالم في الطريق**[٢] (ولعله هو الكتاب الذي حوكم سيد قطب من أجله، ويعد هذا الكتاب أكثر كتبه تداولاً وانتشاراً في الأوساط الدعوية والفكرية).

رابعاً: الخلوة مع الله، والتأمّل والتفكّر والتدبّر في كتاب الله: حيث عاش سيد قطب في سجنه نعمة الحياة في ظلال القرآن؛ كما عبّر عن ذلك في مقدمة كتابه: «في ظلال القرآن»: «الحياة في ظلال القرآن نعمة. نعمة لا يعرفها إلّا من ذاقها. نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه.

والحمد لله.. لقد منّ عليّ بالحياة في ظلال القرآن فترة من الزمان،

---

(١) ينظر: «سيد قطب»، لعادل حمودة، (ص: ١٣١).

(٢) ينظر: سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، (ص: ٣٦٤).

ذقت فيها من نعمته ما لم أذق قط في حياتي. ذقت فيها هذه النعمة التي ترفع العمر وتباركه وتزكيه»[١].

خامساً: الصبر والاحتساب والعزّة: حيث قابل سيد قطب الأذى والتعذيب الذي مورس ضده بإيمان وصبر وثبات وعزّة واحتساب[٢].

سادساً: الرضا والسعادة بما قدّم (في سبيل الحق والوقوف مع أهله، ومقارعة الباطل وأهله)، وأيضاً رضاه وسعادته بما سيقدم عليه (وهو الموت) كما يدل على ذلك عدة أمور:

١- رسالتان بعث بهما سيد قطب أثناء فترة انتظاره للإعدام إلى صديقه السعودي أحمد عبدالغفور عطار[٣].

٢- قال سيد قطب: «لست نادماً لذلك (أي على قتله على يد النظام)، ولا متأسفاً لوفاتي، وإنما أنا سعيد للموت في سبيل دعوتي»[٤].

٣- ما قاله «سيد قطب» أثناء زيارة لأخته: «حميدة قطب» بعد حكم الإعدام بخمسة أيام؛ كما روت ذلك «زينب الغزالي» وكانت مع حميدة قطب في زنزانة واحدة، وكان برفقة سيد قطب أثناء زيارته لأخته في السجن أركان حرب السجن ويدعى إبراهيم وصفوت الروبي، ثم

---

(١) «في ظلال القرآن» لسيد قطب: (١/ ١١).

(٢) ينظر: «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد»، لصلاح الخالدي، (ص: ٣٤٨).

(٣) ينظر الرسالتين في مجلة: «كلمة حق» السنة الأولى، مايو ١٩٦٧م، العدد الثاني، (ص: ٤٠).

(٤) «الشهيد قطب»، (ص: ٥٦).

انصرف أركان حرب، وبقي صفوت وسيد، وكان مما تحدث به سيد أثناء زيارته: أن الآجال ومواعيدها بيد الله، وأمرنا بالرضا والتسليم.. وكان الحديث عن الرضا بقضاء الله.. ثم أنهى حديثه: «فلنوطن أنفسنا على الصبر» ثم انصرف[1].

٤- الصورة التي ظهرت لسيد قطب على التلفزيون أثناء النشرة الإخبارية المسائية مساء يوم الأحد ٢٨/٨/١٩٦٦م لحظة خروجه من السجن ليلة تنفيذ حكم الإعدام فيه: حيث ظهر سيد قطب في هذه الصورة وهو منتصب القامة، رافع الرأس، مشرق الوجه، منبسط الأسارير... يمد يده لكل جندي وحارس أمام السجن الحربي، ويسلّم عليهم مصافحاً، ويودّعهم بابتسامة مشرقة، وصدق الشاعر في قوله عن ابتسامة سيد قطب هذه:

يا شهيداً رفع الله جبهة

الحق على طول المدى

سوف تبقى في الحنايا علماً

حادياً للركب رمزاً للفدى

ما نسينا أنت قد علمتنا

بسمة المؤمن في وجه الرّدى[2]

---

(١) «أيام من حياتي»، (ص: ١٨٢).

(٢) ينظر: «لماذا أعدم سيد قطب»، (ص: ٣).

سابعا: التضحية بنفسه (التي تعد أغلى ما يملك) في سبيل الحق الذي يحمله، كما يدل على ذلك قول سيد قطب في تقريره قبل إعدامه: «إنه آن أن يقدّم إنسان مسلم رأسه ثمناً لإعلان وجود حركة إسلامية»[١].

ثامناً: الثبات على الحق إلى آخر لحظة من حياته: (فعلى الرغم مما تعرّض له من شدة التعذيب، والحكم عليه بالإعدام شنقاً، ومحاولة مساومته وإغرائه بالمناصب والمال مقابل إسقاط حكم الإعدام عنه أو تخفيفه) فقد رفض كل ذلك، كما يدل على ذلك أنه لما طلب من سيد قطب أن يكتب كلمات اعتذار واسترحام لعبد الناصر مقابل إطلاق سراحه، قال سيد قطب: «إن أصبع السبابة الذي يشهد لله بالوحدانية في الصلاة ليرفض أن يكتب حرفاً يقر به حكم طاغية»[٢].

فرفض سيد قطب كل ذلك حتى آخر لحظة من حياته.

إننا نحسبه -والله حسيبه- رحل إلى ربه شهيداً، وأنه ممن باع حياته لله رخيصة.

وفاته:

توفي سيد قطب (شهيداً فيما نرجو من الله) فجر يوم الإثنين ١٣ جمادى الأولى ١٣٨٦هـ - الموافق ٢٩/ ٨/ ١٩٦٦م، وكان عمره ٦٠ عاماً، حيث تقدّم سيد قطب (ومن معه) إلى حبل المشنقة بخطى وئيدة ثابتة.

---

(١) «لماذا أعدموني»، ص: ٧.

(٢) ينظر: «لماذا أعدم سيد قطب»، ص: ٢.

وبذلك يكون سيد قطب أسدل الستار على آخر صفحة من حياته في هذه الدنيا الفانية ليبدأ حياته الحقيقية عند الله[1].

وقد رفع الله سيد قطب في حياته وبعد مماته، فصارت ألسنة المؤمنين الصادقين تلهج بالدعاء له، والثناء عليه، بل تسابق العلماء والأدباء إلى الكتابة عنه، ونشر أفكاره وتراثه، وتناقلت الأجيال مواقفه الشجاعة، وثباته في وجه الباطل وأهله.

أما قاتلوه، فقد ذهبوا إلى مزبلة التاريخ غير مأسوف عليهم، وألسنة المؤمنين الصادقين تلهج بالدعاء عليهم، ولعناتهم تصل إليهم أينما كانوا، وعند الله في ذلك اليوم العصيب تجتمع الخصوم، ويقتص من الظالم للمظلوم، وما ربك بظلام للعبيد.

رحم الله الإمام الأديب سيد قطب، وجعله عنده مع الشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.. آمين..

---

(١) ينظر: «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد»، لصلاح الخالدي، (ص: ٤٧٩).

(١٣) الألباني

اسمه ونسبه:

أبوعبدالرحمن محمد بن نوح بن نجاتي بن آدم الأشقودري، الألباني، الأرناؤوطي، الشهير بـ«محمد ناصر الدين الألباني»، الإمام، العلامة، المحدّث(١).

وأما نسبه، فيعود نسبه إلى «أشقودرة» عاصمة ألبانيا يومئذ. واشتهر بـ«الألباني» نسبة إلى ألبانيا. وأما «الأرناؤوطي» فنسبة إلى مكوّنات سكان ألبانيا، حيث يتكوّن منهم: الألبانيون، والبشناق، وغيرهم، و«أرناؤوط» نظيرها قولنا: «العرب»، حيث يتكون منهم: بنو تميم، وبنو عدي(٢).

مولده ونشأته:

ولد الألباني في مدينة أشقودرة عاصمة ألبانيا يومئذ، عام ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م(٣).

وأما نشأة الألباني فقد نشأ في أسرة فقيرة متديّنة يغلب عليها الطّابع

---

(١) ينظر: «محمد ناصر الدين الألباني: محدّث العصر، وناصر السّنّة»، لإبراهيم العلي، (ص: ١١)، و«ترجمة موجزة»، لعاصم القريوتي، (ص: ٣)، و«الروض الداني»؛ لعصام هادي، (ص: ٧).

(٢) من تسجيل «ترجمة الألباني»؛ لأبي إسحاق الحويني. وينظر: «ترجمة الألباني»، لمحمد بيومي، (ص: ٨)، و«أحداث مثيرة»، لمحمد صالح المنجد.

(٣) ينظر: «حياة الألباني»، لمحمد الشيباني: (١/ ٤٤)، و«أحداث مثيرة»، لمحمد صالح المنجد، (ص: ٨)، و«صفحات بيضاء»؛ لعطية عودة، (ص: ١٩).

العلمي، فقد تخرّج والده الحاج نوح نجاتي الألباني من المعاهد الشرعيّة في العاصمة العثمانية - الأستانة - قديماً التي تعرف اليوم باسطنبول، ورجع إلى بلاده لخدمة الدّين وتعليم الناس ما درسه وتلقّاه[1].

ثم بعد أن تولّى حكم ألبانيا الملك «أحمد زوغو» سار بها في طريق تحويلها إلى بلاد علمانيّة وقلّد الغرب في جميع أنماط حياته، وهنا قرر والد الألباني الهجرة إلى بلاد الشام؛ فراراً بدينه، وخوفاً على أولاده من الفتن، فوقع اختياره على مدينة دمشق التي كان تعرّف عليها من قبل في طريق ذهابه وإيابه من الحجّ[2].

وكان سن الألباني حين وصل دمشق بصحبة والده (وكافة أفراد أسرته) تسع سنين، وفي دمشق التحق الألباني بمدرسة: «الإسعاف الخيريّة الابتدائية» بدمشق.

وقد تميز الألباني منذ صغره بالذكاء الحاد، حيث أخذ المرحلة الابتدائية خلال أربع سنوات، وقد حكى الألباني حكاية تدل على ذكائه وتفوقه على زملائه في المدرسة حيث يقول: «وأذكر جيّدًا يبدو لتقدمي في السنّ بالنسبة للطّلاب الابتدائيّين، فقد جاوزت السنة الأولى والثانية في سنة واحدة، ولذلك حصلت على الشهادة الابتدائية في أربع سنوات، ويبدو

---

(١) ينظر: «حياة الألباني»، لمحمد الشيباني: (١/ ٤٤)، و«أحداث مثيرة»، لمحمد صالح المنجد، (ص: ٨)، و«ترجمة موجزة»، لعاصم القريوتي، (ص: ٣ - ٤).

(٢) ينظر: «حياة الألباني»، لمحمد الشيباني: (١/ ٤٤)، و«أحداث مثيرة»، لمحمد صالح المنجد، ص: ٨، و«ترجمة موجزة» لعاصم القريوتي، ص: ٣ - ٤).

أنّ الله قد فطرني على حبّ اللغة العربية، وهذا الحبّ هو الذي كان سبباً كسبب مادّي بعد الفضل الإلهي أن أكون متميّزاً متفوّقاً على زملائي من السوريّين في علم اللغة العربية ونحوها.

وأذكر جيدّاً: «أنّ أستاذ اللغة والنحو حينما كان يكتب جملةً أو بيت شعر على اللوح، ويسأل الطلّاب عن إعراب تلك الجملة أو ذلك البيت يكون آخر من يطلب منه هو الألباني. وكنت يومئذ أعرف بالأرناؤوط... فكان أستاذ النحو يخرجني آخر واحد إذا عجز الطلّاب عن الإعراب ويناديني: إيه يا أرناؤوط إيش تقول؟ فأصيب الهدف في كلمة واحدة، فيبدأ يعيّر السوريّين بي، ويقول: مش عيب عليكم؟! هذا أرناؤوطي؟»[1]

وقد تحدّث الألباني عن هجرة أسرته إلى الشام وفضل والده عليه؛ حيث يقول: «جنيت - بفضل الله ورحمته - بسبب هجرته هذه إلى دمشق الشّام ما لا أستطيع أن أقوم لربّي بواجب شكره، ولو عشت عمر نوح - عليه الصلاة والسلام - فقد تعلّمت فيها اللغة العربيّة السورية أولًا، ثمّ اللغة العربية الفصحى ثانياً، الأمر الذي مكّنني أن أعرف التوحيد الصّحيح الذي يجهله أكثر العرب الذين كانوا من حولي -فضلاً عن أهلي وقومي- إلّا قليلاً منهم، ثمّ وفقني الله -بفضله وكرمه دون توجيه من أحد منهم- إلى دراسة الحديث والسّنّة أصولاً وفقهاً، بعد أن درست على والدي وغيره من المشايخ شيئاً من الفقه الحنفي، وما يعرف بعلوم

---

(١) «الإمام الألباني»، لمحمد بيومي، (ص: ١٤)، وينظر: «الإمام الألباني دروس ومواقف»، لعبد العزيز السدحان، (ص: ٢٧٢)، و«أحداث مثيرة».

الآلة؛ كالنّحو والصرف والبلاغة، بعد التخرّج من مدرسة الإسعاف الخيرية الابتدائية»[١].

ثم تحوّل الألباني من دراسة علم الفقه على المذهب الحنفي (الذي تلقّاه عن والده وعلى يد غيره من علماء المذهب الحنفي) إلى دراسة علم الحديث وهو ابن عشرين سنة.

والسبب في نقطة تحوله -بعد مشيئة الله وفضله- حادثة عجيبة ملخصها: أن الألباني في صغره كان يبحث لدى أحد باعة الكتب عن كتاب «ألف ليلة وليلة، و«عنترة بن شداد» فلفت نظره «مجلة المنار» لرشيد رضا، وكان عمر الألباني وقتئذ سبع عشرة سنة، فأخذ الألباني «مجلة المنار» وفتحها، فوجد فيها مقالات كثيرة، وفيها قرأ الألباني فصلاً لمحمد رشيد يتكلم فيه عن مزايا كتاب الإحياء للغزالي، وينقده من بعض النواحي كالصوفيات، والأحاديث الواهية، وذكر أن لأبي الفضل زين الدين العراقي كتاباً وضعه على الإحياء خرّج فيه أحاديث الإحياء، وميّز صحيحها من ضعيفها، اسمه: «المغنى عن حمل الأسفار (الكتب) في الأسفار (جمع سفر وهي الرحلة) في تخريج ما في الإحياء من الأخبار»، فتلهّف الألباني لكتاب العراقي الأصلي (ولعل هذا شيء قذفه الله في قلبه، لا تستطيع أن تقول إنه أتى بتوجيه بشر إطلاقاً) حيث سعى الألباني لاقتناء كتاب العراقي (أربع مجلدات) (وعمره سبع عشرة سنة) حيث استعارها من دار الحلبي؛ لأنه لم يكن لديه القدرة المالية على

---

(١) «سلسلة الأحاديث الصحيحة»: (٧/ ٦١٥ - ٦١٦).

شرائه حينئذ، فلما حضر وقت إعادتها كان لا بد له من نسخها، فأخذ الألباني ينسخها بيده باستخدام مسطرة من كرتون مقوى، وخطوط متوازية؛ حتى نسخ الجزء الأول، ثم نسخ الكتاب كله (ألفين واثنتي عشرة صفحة) بخط يده.

وهذا أمر فريد يدل على تميز الألباني منذ صغره بالجلد، فإننا لم نر ولم نسمع ولم نقرأ له مثيلاً في هذا الزمن أن واحداً عمره ثماني عشرة سنة أخذ كتاباً من أربع مجلدات ونسخ ألفي صفحة بيده.

ثم بدأ الألباني يبحث عن معاني الكلمات الغريبة التي تمر به (لأن مستوى كتاب العراقي أعلى من مستواه بكثير في ذلك الوقت)، حيث بدأ بالرجوع إلى مراجع اللغة العربية، ثم بدأ يكتب المعاني، ويضع حواش على هذا الكتاب الذي خطّه بيده، ولا يزال هذا الكتاب المخطوط بخط يده موجوداً في مكتبة الألباني إلى الآن، مع تعليقاته عليه[١].

وكان الألباني في مرحلة طلبه الأولى للعلم يجمع بين طلب العلم والعمل، فقد عمل الألباني في البداية في أعمال حرة لا تتعارض مع طلب العلم؛ حيث عمل في البداية في النجارة (لمدة سنتين) حيث تعلّمها في دمشق من خاله، ومن رجل آخر يكنى بأبي محمد، ولكنه لم ينجذب لهذه المهنة (لأنها تهد القوة وتشغل كثيراً) فتحوّل عنها إلى مهنة إصلاح الساعات، حيث تعلّمها من والده (الذي كان له دكان لإصلاح الساعات،

---

(١) ينظر: «الروض الداني»، لعصام هادي، (ص: ٧، ٨)، و«أحداث مثيرة»، لمحمد صالح المنجد.

وهو صاحب صنعة في هذا المجال) فلما أخذ الألباني هذه المهنة من والده وأتقنها فتح الألباني دكاناً خاصاً به.

وفي دكانه الخاص عمل الألباني في مهنة إصلاح الساعات، حتى يتمكّن من الحصول على القوت الضروري له ولأسرته؛ كما عبّر الألباني عن ذلك بقوله: «من توفيق الله تعالى وفضله عليّ أن وجّهني منذ أول شبابي إلى تعلّم هذه المهنة، ذلك أنها حرة لا تتعارض مع جهودي في علم السّنّة، فقد أعطيت لها من وقتي ثلاث ساعات زمنية فقط، ماعدا الثلاثاء والجمعة، وهذا القدر يمكنني من الحصول على القوت الضروري لي ولعيالي وأطفالي على طريقة الكفاف (طبعاً) فإن من دعائه عليه الصلاة والسلام: «**اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً**»[(١)].

ثم لما احتاج الألباني إلى مزيد من الكتب يمم وجهه شطر المكتبة الظاهرية التي كانت خزانة للمخطوطات والكتب، ومستودعاً عظيماً جداً لها، وفيها كان يمكث للقراءة ثمان ساعات إلى اثنتي عشرة ساعة.

وكان يفتح دكانه أحياناً يومين فقط في الأسبوع لكسب العيش، والباقي في المكتبة الظاهرية[(٢)].

ثم استمر الألباني في مرحلته العلمية والعملية والدعوية حتى نفع الله به أمة الإسلام، حيث صار يضرب به المثل في علم الحديث.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) ينظر: «حياة الألباني»: (١/ ٤٨ - ٤٩)، و«أحداث مثيرة»، لمحمد صالح المنجد.

ثناء العلماء عليه:

أثنى على الألباني علماء يمثّلون هيئات رسمية حكومية، ومجامع علمية، وجامعات إسلامية، ومؤسسات شرعية، وأيضاً أثنى عليه علماء ودعاة وأدباء وشعراء بمسمياتهم الخاصة.

وأقوال العلماء في الثناء عليه كثيرة جداً، نذكر منها ما يلي:

١- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت: حيث جاء في بيانها: «وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت مع إيمانها بقضاء الله وقدره تحتسب عند الله تعالى العلامة الموهوب محدّث العصر، إمام العلماء، وعلماً من أعلام أهل الحديث؛ سماحة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني غفر الله له بقدر ما قدّم في دنيا الناس ودينهم من نور وهدى وبيان وصدق حمايته للسّنّة المطهّرة التي قد وهب حياته للدفاع عنها، ورفع علمها خفاقاً في كل أطراف الأرض، وقد نهلت المجامع العلمية من فيض علمه، وتلقّت بالقبول ما اعتمده -يرحمه الله تعالى- من تصحيح الأحاديث النبوية، وشكر الله جهاده بكل قوة واقتدار في الدفاع عنها، ورد الشبهات والدس الرخيص من خلال الأحاديث الموضوعة.

لقد كان لسماحة الشيخ الراحل -يرحمه الله تعالى- منهج فريد في محاربة البدع والخرافات، وجمع المسلمين على كلمة الحق والصراط المستقيم».(١)

---

(١) «حياة الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه»، لمحمد بن إبراهيم الشيباني.

٢- اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والافتاء (ممثلة برئيسها العام عبدالعزيز بن عبد الله بن باز، وعضوية كل من عبد الله بن قعود، عبد الله ابن غديان، عبد الرزاق عفيفي) حيث قالت اللجنة: «الرجل معروف لدينا بالعلم والفضل وتعظيم السّنّة وخدمتها، وتأييد مذهب أهل السّنّة والجماعة في التحذير من التعصب والتقليد الأعمى، وكتبه مفيدة، ولكنه كغيره من العلماء ليس بمعصوم، يخطئ ويصيب، ونرجو له في إصابته أجرين، وفي خطئه أجر الاجتهاد»[١]

٣- مجمع الفقه الإسلامي (ممثلاً بأمينه العام الحبيب بلخوجة) حيث قال علماء المجمع: «إننا فقدنا بموته رجلاً سباقاً إلى خدمة العالم الإسلامي فكان بذلك مرجعاً لعدد كبير من الأساتذة والشيوخ».[٢]

٤- رابطة العالم الإسلامي (ممثلة بأمينها العام عبدالله صالح العبيد) حيث قال علماء الرابطة: «لا شك بأن فقد الأمة الإسلامية بوفاة الشيخ الألباني تعتبر خسارة فادحة».[٣]

٥- هيئة جائزة الملك فيصل العالمية، حيث جاء في قرارها في دورتها الثانية والعشرين بتاريخ ١٥ - ١٨ رمضان ١٤١٩هـ الموافق ٢ - ٥ يناير ١٩٩٩م: «تقرّر منح الشيخ محمد ناصر الدين حاج نوح الألباني جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية لهذا العام (١٤٤٩هـ/ ١٩٩٩م)

---

(١) فتاوى اللجنة الدائمة: (١٢/ ٢٢٤ - ٢٢٥)، رقم الفتوى (٥٩٨١).

(٢) «حياة الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه»، لمحمد بن إبراهيم الشيباني.

(٣) «حياة الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه»، لمحمد بن إبراهيم الشيباني.

وموضوعها: «الجهود العلمية التي عنيت بالحديث النبوي تحقيقاً وتخريجاً ودراسة»، ومما جاء في قرارها أيضاً: «ويعتبر الشيخ الألباني شخصية علمية رائدة وصاحب مدرسة متميّزة».(١)

٦- محمد بن إبراهيم آل الشيخ (مفتي عام المملكة رئيس القضاة فيها) حيث قال: «صاحب سنّة، ونصرة للحق، ومصادمة لأهل الباطل»(٢).

٧- صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ (معالي وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف السعودية) حيث قال: «لاشك أن فقد العلامة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني مصيبة لأنه علمٌ من أعلام الأمة ومحدّث من محدثيهم وبهم حفظ الله -جل وعلا- هذا الدين ونشر بهم السّنّة... إن للفقيد مآثر عدّة في نصرة العقيدة السلفية ومنهج أهل الحديث».(٣)

٨- عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ (مفتي عام المملكة الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء الشيخ) حيث قال: «أحد العلماء في هذا العصر... فهو رجلٌ صاحب سنّة ومحب للسّنّة ومدافع عنها».(٤)

٩- عبد العزيز بن عبد الله بن باز (مفتي عام المملكة) حيث قال: «ما رأيت تحت أديم السماء عالماً بالحديث في العصر الحديث مثل العلامة محمد ناصر الدين الألباني»(٥).

---

(١) «حياة الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه»، لمحمد بن إبراهيم الشيباني.

(٢) «الإمام الألباني»، لعبد العزيز السدحان، (ص: ٢١٧).

(٣) «حياة الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه»، لمحمد بن إبراهيم الشيباني.

(٤) «حياة الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه»، لمحمد بن إبراهيم الشيباني.

(٥) «حياة الألباني»، لمحمد بن إبراهيم الشيباني: (١/ ٦٦).

١٠- **محمد بن صالح العثيمين** حيث قال: «ذو علم جمّ في الحديث رواية ودراية، وإنّ الله تعالى قد نفع فيما كتبه كثيراً من الناس؛ من حيث العلم، ومن حيث المنهاج والاتجاه إلى علم الحديث»[١].

وقال أيضاً: «الرجل طويل الباع، واسع الاطلاع، قوي الإقناع، وكل واحد يؤخذ من قوله ويترك سوى قول الله ورسوله، ونسأل الله تعالى أن يكثر من أمثاله في الأمة الإسلامية»[٢].

وقال أيضاً: «الذي عرفته عن الشيخ من خلال اجتماعي به -وهو قليل- أنه حريص جداً على العمل بالسّنّة، ومحاربة البدعة سواء كانت في العقيدة أم في العمل. أما من خلال قراءتي لمؤلفاته فقد عرفت عنه ذلك، وأنه ذو علم جمّ في الحديث رواية ودراية، وأن الله تعالى قد نفع فيما كتبه كثيراً من الناس من حيث العلم ومن حيث المنهاج والاتجاه إلى علم الحديث، وهو ثمرة كبيرة للمسلمين، ولله الحمد[٣].

وقال أيضاً: «الألباني رجل من أهل السّنّة -رحمه الله- مدافع عنها، إمام في الحديث، لا نعلم أن أحداً يباريه في عصرنا»[٤].

١١- **بكر بن عبدالله أبو زيد** حيث قال: «وارتسام علمية الألباني في

---

(١) «حياة الألباني»، لمحمد الشيباني: (٢/ ٥٤٣)، و«الروض الداني»، لعصام هادي، (ص: ٨).

(٢) «حياة الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه»، لمحمد الشيباني: (٢/ ٥٤٣).

(٣) «حياة الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه»، لمحمد الشيباني: (٢/ ٥٤٣).

(٤) شريط «مكالمات هاتفية مع مشايخ الدعوة السلفية»، رقم: (٤) - إصدار: مجالس الهدى للإنتاج والتوزيع - الجزائر، وكان ذلك بتاريخ: ١٢/ ٦/ ٢٠٠٠م.

نفوس أهل العلم، ونصرته للسّنّة وعقيدة السلف - أمرٌ لا ينازع فيه إلا عدوٌّ جاهل، والحكم ندعه للقرّاء، فلا نطيل»[١].

١٢- **عبد الرحمن عبد الخالق** حيث قال: «عالم من علماء المسلمين، وعلم من أعلام الدعوة إلى الله، وشيخ المحدّثين وإمامهم في العصر الراهن»[٢].

١٣- **عبد المحسن العباد** حيث قال: «عالم كبير ومحدّث مشهور وله عناية عظيمة في خدمة السّنّة، وفي العناية بحديث رسول الله ﷺ، وبيان مصادر تلك الأحاديث والكتب التي ذكرتها وبيان درجاتها من الصحة والضعف... فجهوده عظيمة، وخدمته للسّنّة مشهورة، ولا يستغني طلبة العلم عن الرجوع إلى كتبه، وإلى مؤلفاته؛ فإنّ فيها الخير الكثير وفيها العلم الغزير»[٣].

١٤- **محمد إبراهيم شقرة (رئيس المسجد الأقصى)** حيث قال: «لو أن شهادات أهل العصر في شيوخ السّنّة وأعلام الحديث والأثر اجتمعت، فصيغ منها شهادة واحدة، أو جمعت في ضفث واحد، ثم وضعت على منضدة تاريخ العلماء، فأني أحسب أن تكون شهادة صادقة في علم الحديث الأوحد، أستاذ العلماء، وشيخ الفقهاء، ورأس المجتهدين في هذا الزمان، الشيخ محمد ناصر الدين الألباني أكرمه الله في الدارين»[٤].

(١) «الردود»، (ص: ٣٤٤).

(٢) «حياة الألباني»، لمحمد الشيباني: (٢/ ٥٤٥).

(٣) «مجلة الأصالة»، عدد: (٢٣)، (ص: ١٣)، (١٥ شعبان ١٤٢٠هـ).

(٤) «حياة الألباني»، لمحمد الشيباني: (٢/ ٥٤٥).

١٥- **محمد الأمين الشنقيطي**، حيث يقول عبد العزيز الهده: «كان الشيخ العلامة البحر محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله - الذي ما علم مثله في عصره في علم التفسير واللغة يجلّ الشيخ الألباني إجلالاً غريباً، حتى إذا رآه ماراً وهو في درسه في الحرم المدني يقطع درسه قائماً ومسلّماً عليه إجلالاً له»[(١)].

١٦- **زيد بن فياض**، حيث قال: «إن الشيخ محمد ناصر الدين الألباني من الأعلام البارزين في هذا العصر، وقد عني بالحديث وطرقه ورجاله ودرجته من الصحة أو عدمها، وهذا عمل جليل من خير ما أنفقت فيه الساعات وبذلت فيه المجهودات، وهو كغيره من العلماء الذين يصيبون ويخطئون، ولكن انصرافه إلى هذا العلم العظيم مما ينبغي أن يعرف له به الفضل، وأن يشكر على اهتمامه به»[(٢)].

١٧- **محمد حامد الفقي** حيث قال: «الأخ السلفي البحّاثة الشيخ ناصر الدين»[(٣)].

١٨- **محب الدين الخطيب** حيث قال: «من دعاة السّنّة الذين وقفوا حياتهم على العمل لإحيائها»[(٤)].

١٩- **علي حسن الحلبي** حيث قال: «إنّ إجماع علماء أهل السّنّة المعاصرين، رحم الله ميّتهم، وحفظ الله حيّهم، ليكاد -ولله الحمد-

---

(١) «مجلة الأصالة»، عدد (٢٣).

(٢) «حياة الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه»، لمحمد بن إبراهيم الشيباني.

(٣) «حياة الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه»، لمحمد بن إبراهيم الشيباني.

(٤) «حياة الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه»، لمحمد بن إبراهيم الشيباني.

ينعقد على إمامة وأستاذيّة شيخنا الوالد العلّامة المحدّث أبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، المتوفّى سنة ١٤٢٠هـ -تغمّده الله برحمته-، وكلماتهم في ذلك كثيرة منثورة، ومشهورة، ومبرورة»[١].

مؤلّفاته:

أثرى الألباني المكتبة الإسلامية بمؤلفاته النافعة، وتحقيقاته الرائعة، وتعليقاته الماتعة (وبعض مؤلفاته وتحقيقاته وتعليقاته ما تزال مخطوطة لم تطبع بعد)، ومما طبع منها نذكر ما يلي:

أولاً: المؤلفات (المطبوعة)، ومنها:

١ - اللحية في نظر الدين.

٢- صلاة العيدين في المصلّى هي السّنّة.

٣- مناسك الحج والعمرة في الكتاب والسّنّة وآثار السلف

٤- الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام.

٥ - كشف النقاب عمّا في كلمات أبي غدة من الأباطيل والافتراءات.

٦- منزلة السّنّة في الإسلام.

٧- سلسلة الأحاديث الضعيفة وأثرها السيئ في الأمة.

٨- خطبة الحاجة.

٩- التعقيب على كتاب الحجاب للمودودي.

١٠- الرد على رسالة أرشد السلفي.

---

(١) «الدرر المتلألئة»، لعلي الحلبي، (ص: ٦).

١١- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها.

١٢- تسديد الإصابة إلى من زعم نصرة الخلفاء الراشدين والصحابة.

١٣- دفاع عن الحديث النبوي والسيرة.

١٤- التوسل: أحكامه وأنواعه.

١٥- حجاب المرأة المسلمة في الكتاب والسّنّة.

١٦- وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة.

١٧- صفة صلاة النبي من التكبير إلى التسليم كأنك تراها.

١٨- قيام رمضان وبحث عن الاعتكاف.

١٩- تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد.

٢٠- أحكام الجنائز.

٢١- تلخيص أحكام الجنائز.

٢٢- آداب الزفاف في السّنّة المطهّرة.

٢٣- نصب المجانيق في نسف قصة الغرانيق.

ثانياً: التحقيقات العلمية (المطبوعة):

١- رياض الصالحين للنووي.

٢- الكلم الطيب لابن تيمية.

٣- صحيح الكلم الطيب لابن تيمية.

٤- اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي.

٥- كتاب العلم للحافظ أبي خيثمة.

٦- مختصر صحيح مسلم للمنذري.

٧- فضل الصلاة على النبي لإسماعيل بن إسحاق.

٨- لفتة الكبد في تربية الولد لابن الجوزي.

٩- مساجلة علمية بين الإمامين الجليلين: العز بن عبدالسلام وابن الصلاح.

١٠- تصحيح حديث إفطار الصائم قبل سفره بعد الفجر.

١١- مشكاة المصابيح للتبريزي.

ثالثاً: التخريجات (المطبوعة):

١- صحيح الجامع الصغير وزيادته.

٢- ضعيف الجامع الصغير وزيادته..

٣- الآيات البيّنات في عدم سماع الأموات عند الحنفية السادات لمحمود الآلوسي.

٤- غاية المرام في تخريج أحاديث كتاب الحلال والحرام.

٥- حقيقة الصيام لابن تيمية.

٦- شرح العقيدة الطحاوية لأبي جعفر الطحاوي.

٧- المرأة المسلمة للشيخ حسن البنا.

٨- تخريج أحاديث مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام للقرضاوي.

٩- ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان لمحمود الآلوسي.

١٠- تخريج الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام.

١١- تخريج كتاب الرد على الجهمية للدارمي.

١٢- تخريج كلمة الإخلاص وتحقيق معناها لابن رجب الحنبلي.

١٣- تخريج كتاب إصلاح المساجد من البدع والعوائد لجمال الدين القاسمي.

١٤- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل لابن ضويان.

١٥- كتاب السّنّة ومعه ظلال الجنة في تخريج السّنّة لأبي عاصم الضحاك.

١٦- تخريج كتاب المصطلحات الأربعة في القرآن.

١٧- تخريج الإيمان لابن أبي شيبة.

١٨- حجاب المرأة المسلمة ولباسها في الصلاة لشيخ الإسلام ابن تيمية.

١٩- تخريج فضائل الشام للربعي.

رابعاً: اختصار ومراجعة وتعليق (مطبوعة):

١- صحيح ابن خزيمة للأعظمي.

٢- مختصر كتاب العلو للعلي العظيم للذهبي.

٣- مختصر الشمائل المحمدية للترمذي.

٤- التعليقات على صفة الفتوى والمفتي والمستفتي لابن حمدان.

٥- التعليق على كتاب الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير.

٦- مختصر شرح العقيدة الطحاوية.

٧ - مختصر صحيح البخاري.

٨ - مختصر صحيح مسلم.

٩ - صحيح سنن الترمذي.

١٠ - صحيح سنن النسائي.

١١ - صحيح سنن ابن ماجه.

١٢ - صحيح سنن أبي داود.

١٣ - صحيح الترغيب والترهيب.

محنته:

لما ذاع صيت الألباني وانتشر بين الخاصة والعامة إنكاره للمنكرات، وبيانه للبدع والمخالفات الشرعية؛ وخاصة الشركيات والبدع المتعلّقة بالقبور؛ مستدلاً على ذلك بنصوص الكتاب والسّنّة المحذّرة من ذلك؛ كحديث: «**لعن الله اليهود والنصارى اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[١]، «**ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك**»[٢].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه مسلم.

بل ألّف في ذلك كتاب: «تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد»، وترك الصلاة في المسجد الأموي؛ لأن فيه قبراً؛ فثار عليه أهل الأهواء والبدع والضلالات من الصوفية والطرقية والقبورية، وغيرهم من الخارجين عن منهاج السلف؛ حيث عملوا على تأجيج عامة الناس ضده، وسعوا في الوشاية عليه إلى السلطات السورية؛ حتى أنه صار في أوائل ١٩٦٠م تحت مرصد الحكومة السورية (مع أنه كان بعيداً عن السياسة)، وكانت نتيجة ذلك اعتقاله والزجّ به في السجن مرتين؛ كما حكى ذلك الألباني بقوله:

«ولقيت في سبيل ذلك (أي في سبيل دعوته إلى الكتاب والسّنّة وإحياء السنن، وتحذيره من الشركيات والبدع) من الأقارب والأباعد ما يلقاه كل داعية للحق لا تأخذه في الله لومة لائم... وسجنت مرتين بسبب وشاياتهم إلى الحكام الوطنيين والبعثيين، وبتصريحي لبعضهم حين سئلت: لا أؤيد الحكم القائم؛ لأنه مخالف للإسلام»[١].

وأما تفاصيل محنة الألباني، فقد سجن مرتين:

الأولى: حيث تم اعتقاله، والزجّ به في سجن قلعة دمشق لمدة شهر -وهي نفس القلعة التي سجن فيها (ابن تيمية)-، كما حكى ذلك الألباني بقوله: «وشاء الله تبارك وتعالى حيث قدّر عليّ أن أسجن في عام ١٣٨٩هـ الموافقة لسنة ١٩٦٩م مع عدد من العلماء من غير جريرة اقترفناها سوى الدعوة إلى الإسلام وتعليمه للناس، فأساق

---

(١) «سلسلة الأحاديث الصحيحة»: (٧/ ٦١٦).

إلى سجن القلعة بضعة أشهر أحتسبها في سبيل الله عز وجل»[١].
ثم أفرجت عنه الحكومة عندما قامت الحرب ضد إسرائيل مع جميع المعتقلين السياسيين.

الثانية: كانت بعد اشتداد الحرب، حيث تم اعتقاله مرة ثانية والزجّ به في سجن الحسكة شمال شرق دمشق لمدة ثمانية أشهر؛ كما حكى ذلك الألباني بقوله (مبيناً كيفية اعتقاله وتفاصيل محنته): «أخذوني في سيّارة ونقلوني من مكان إلى مكان، ووضعوني في مركز شرطة على أساس ينقلوني، وما أدري إلى أين؟ مرّ بي أحد بني قومي الذين يسمون «بالأرناؤوط»، فسألني عن سبب وجودي في هذا المكان، فأخبرته بالأمر، ثم ذهب الرجل وسأل عن المكان الذي سينقلوني إليه، ثم جاء وقال لي: إنهم قرّروا نفيك إلى الحسكة، يعني شمال شرق سوريا.

فطلبت منه أن يذهب إلى ابني في الدكّان ويخبره أن يأتي لي بالشنطة ويضع فيها نسخة صحيح مسلم، وبرّاية وقلم رصاص ومحّاية... إلخ، ويدركني هنا، وإلّا فليلحقني إلى منطلق السيارات إلى حلب.

وذهب الرجل إلى ابني، وسارع ابني وأتى لي بكل شيء طلبته، وأدركني في منطلق السيّارات والسيّارة ترجع القهقرى لتنطلق، فصعد إليّ وسلّم عليّ وعانقني وودّعني، وانطلقت السيارة بنا إلى حلب، ومن حلب إلى الحسكة.

الحسكة فيها سجنٌ جديد واسعٌ جداً ومرتفع، فأدخلوني إلى عروش

---

(١) «حياة الألباني»: (١/ ٢٨).

طويل، وإذا فيه شباب من المسلمين من حزب التحرير، ورئيسهم كان يحضر دروسي في حلب، سلفي يعني، ثمّ انحرف فقلنا: رب ضارة نافعة، وكنت ليلًا ونهاراً في نقاش مع الجماعة، ولكن أنا جاي أريد أن أشتغل، وكانت اللمبة ملتصقة بالسقف، والسقف كان عال جداً فحكيت مع صاحبنا هذا الذي كان سلفياً، اسمه الشيخ مصطفى، وقد مضى عليه في السجن مع الأسف نحو سنتين، وبسبب طول المكث هناك صار بينهم وبين مدير السجن صحبة، ومدير السجن الظاهر كان عنده شيءٌ من الفطرة ولو أنه بعثي، فكان يتجاوب فعلاً مع الشيخ مصطفى ومع المسلمين أولئك ويساعدهم بقدر الإمكان، وكانوا مشتركين على الطعام... فاشتركت أنا معهم... المهمّ أنا أريد كهرباء... فتحدّث الشيخ مصطفى مع مدير السجن وقال له: الشيخ الألباني طالب علم ويريد أن يشتغل؛ لأنه أتى معه بالكتب.

فقال له مدير السجن: نأتي له بما يريد ولكن على حسابه، فقلت: هذا سهل، يأتي هو بالأغراض ونحن ندفع... فنزلت اللمبة من فوق إلى فوق رأسي تماماً»[(١)].

ثم بعد سجن الألباني في سجن الحسكة شد الألباني رحاله مهاجراً إلى الأردن، حيث استقر به المقام في مدينة عمّان حتى توفّاه الله.[(٢)]

وقد واجه الألباني هذه المحنة بأمور عدة، وهي:

---

(١) من تسجيل «ترجمة الألباني» لأبي إسحاق الحويني، وينظر: «الإمام الألباني»، لمحمد بيومي، (ص: ٣٨ - ٣٩).

(٢) ينظر: «علماء ومفكرون عرفتهم»، لمحمد المجذوب: (١/ ٢٩٤).

أولاً: الصبر والثبات والاحتساب والرضا بالقدر: فقد كان دائماً يردد مقولة يوسف -عليه السلام- التي حكاها القرآن في قوله تعالى:

﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾[١]

حتى أن الألباني قال عن نفسه: «ما أحسست الغربة بالسجن إطلاقاً»[٢].

ثانياً: العلم والعمل والدعوة إلى الله: حيث قام الألباني أثناء فترة سجنه بتعليم المساجين، ودعوتهم إلى الكتاب والسّنّة، ونبذ البدع، وإحياء السنن، والمحافظة على الفرائض، وقد استجاب له عامة السجناء؛ حيث أقام الألباني في السجن صلاة الجماعة والجمعة في سجن القلعة، حتى قيل: إن صلاة الجمعة لم تقم في هذا السجن منذ أقامها ابن تيمية أثناء فترة سجنه فيه إلا لما دخله الألباني[٣].

رابعاً: استغلال الوقت، حيث قام بمواصلة مسيرة التأليف، حيث ألّف أثناء فترة سجنه في سجن الحسكة مختصره على صحيح مسلم -وهو غير اختصار مسلم للمنذري الذي حقق أحاديثه الألباني-، حيث قال الألباني: «وهناك (أي في سجن الحسكة) عكفت على تحقيق أمنيتي في

---

(١) سورة يوسف، آية: ٣٣، وينظر: «حياة الألباني»، لمحمد الشيباني: (١/ ٢٨)، و«أحداث مثيرة»، لمحمد صالح المنجد.

(٢) من تسجيل «ترجمة الألباني» لأبي إسحاق الحويني، وينظر: «الإمام الألباني»، لمحمد بيومي، (ص: ٣٨ - ٣٩).

(٣) ينظر: «حياة الألباني» لمحمد الشيباني: (١/ ٢٩)، و«أحداث مثيرة»، لمحمد صالح المنجد.

اختصاره وتهذيبه، وفرغت من ذلك في نحو ثلاثة أشهر كنت أعمل فيه ليل نهار، ودون كلل ولا ملل، وبذلك انقلب ما أراده أعداء الأمة انتقاماً منّا إلى نعمة لنا، يتفيأ ظلالها طلاب العلم من المسلمين في كل مكان، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات»(١).

فبذلك استطاع الألباني أن يحوّل محنته إلى منحة بفضل الله، ثم بصدقه وإخلاصه.

وفاته:

توفي الألباني آخر عصر يوم السبت، الثّاني والعشرين (٢٢) من شهر جمادى الآخرة، سنة ١٤٢٠ هـ، الموافق للثاني (٢) من شهر أكتوبر سنة ١٩٩٩ م، عن عمر يناهز (٨٨) عاماً.

وصلّى عليه تلميذه إبراهيم شقرة، واجتمع ساعة دفنه من حضر من إخوانه، وأبنائه، وتلاميذه، وأحبابه، وأصحابه، وأقربائه، مما قدّر بخمسة آلاف (٥٠٠٠) نفس أو يزيد.

ودفن في يوم وفاته في العاصمة عمّان، على جبل يسمى: «الهملان»، بجانب المقبرة الأهليّة الخاصة التي بجانب بيته(٢).

وقد تولى تغسيل الألباني جاره وصديقه (عزت خضر أبو عبدالله)،

---

(١) «مختصر صحيح البخاري»: ١/ د، وينظر: «حياة الألباني»، لمحمد الشيباني: (٢/ ٧٧٤).

(٢) ينظر: «أحداث مثيرة»، لمحمد صالح المنجد، (ص: ٤٦)، و«صفحات بيضاء»، لعطية عودة، (ص: ١٠٠)، «الإمام الألباني»، لعبد العزيز السدحان، (ص: ٢٩٢)، و«حصول التهاني»، لجمال عزون: (١/ ٢٣).

وساعده في ذلك بعض الناس الذين اختارهم عزت خضر، بناءً على وصية الألباني.

وصلى عليه قرابة خمسة آلاف، وهذا عدد كبير جداً إذا ما قورن بسرعة تجهيزه، تنفيذاً لوصيته بذلك.

ودفن الألباني في أقرب مقبرة لبيته تنفيذاً لوصيته، حيث أوصى الألباني قبل موته بما يلي: «أوصي زوجتي وأولادي وأصدقائي وكل محب لي إذا بلغه وفاتي: أن يدعو لي بالمغفرة والرحمة -أولاً- وألا يبكون عليّ نياحة أو بصوت مرتفع.

وثانياً: أن يعجلوا بدفني، ولا يخبروا من أقاربي وإخواني إلا بقدر ما يحصل منهم واجب تجهيزي، وأن يتولى غسلي (عزت خضر أبوعبدالله) جاري وصديقي المخلص، ومن يختاره - هو- لإعانته على ذلك.

وثالثاً: أختار الدفن في أقرب مكان، لكي لا يضطر من يحمل جنازتي إلى وضعها في السيارة، وبالتالي يركب المشيعون سياراتهم، وأن يكون القبر في مقبره قديمة يغلب على الظن أنها سوف لا تنبش...

وعلى من كان في البلد الذي أموت فيه ألا يخبروا من كان خارجها من أولادي - فضلاً عن غيرهم- إلا بعد تشييعي، حتى لا تتغلّب العواطف، وتعمل عملها، فيكون ذلك سبباً لتأخير جنازتي.

سائلاً المولى أن ألقاه وقد غفر لي ذنوبي ما قدّمت وما أخّرت..

وأوصي بمكتبتي -كلها- سواء ما كان منها مطبوعاً، أو تصويراً، أو

مخطوطاً- بخطي أو بخط غيري- لمكتبة الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة؛ لأن لي فيها ذكريات حسنة في الدعوة للكتاب والسّنّة، وعلى منهج السلف الصالح -يوم كنت مدرساً فيها-.

رحم الله الألباني، ورفع درجته، وجزاه الله خير ما جزى عالماً عن أمّته.

الفهرس

صدر للمؤلف

١ - (الجامية في الميزان) .

٢- (آراء العلامة محمد رشيد رضا العقدية في أشراط الساعة الكبرى ، وآثارها الفكرية) .

٣- (ما بعد الموت ..).

٤- (مابعد الموت عند غير المسلمين) .

٥- (فتاوى العلامة محمد رشيد رضا العقدية) .

٦- (فتاوى العلامة محمد رشيد رضا الفقهية).

٧- (كما يولى عليكم تكونوا) .

٨- (وقفات فقهية مع العلامة الألباني رحمه الله).

٩- (التحذير من الغلو في التكفير) .

١٠- (التحذير من الغلو في التبديع) .

١١- (أسباب رد الحق الواضح).

١٢- (علماء صدعوا بالحق فسجنوا وعذبوا وقتلوا) .

١٣- (أقوال العلماء المنصفين في سيد قطب، ويليه نبذة يسيرة عنه، وأبرز المآخذ عليه والرد عليها).

صدر للمؤلف

١- الجامية في الميزان.

٢- آراء العلامة محمد رشيد رضا العقدية في أشراط الساعة الكبرى، وآثارها الفكرية.

٣- مابعد الموت..

٤- مابعد الموت عند غير المسلمين.

٥- فتاوى العلامة محمد رشيد رضا العقدية.

٦- فتاوى العلامة محمد رشيد رضا الفقهية.

٧- كما يولى عليكم تكونوا.

٨- وقفات فقهية مع العلامة الألباني رحمه الله.

٩- التحذير من الغلو في التكفير.

١٠- التحذير من الغلو في التبديع.

١١- أسباب رد الحق الواضح.

١٢- علماء صدعوا بالحق فسجنوا وعذبوا وقتلوا.

١٣- أقوال العلماء المنصفين في سيد قطب، ويليه نبذة يسيرة عنه، وأبرز المآخذ عليه والرد عليها.